محمد العلي

البئر المستحيلة

محمد العلي

البئر المستحيلة

محمد العلي

البئر المستحيلة

محاولات لتجاوز السائد في الثقافة والمجتمع

مقالات

جمع وإعداد: أحمد العلي

المركز الثقافي العربي

النادي الأدبي بالرياض

البئر المستحيلة

تأليف: محمد العلي

الطبعة الأولى، 2013

جميع الحقوق محفوظة

ISBN: 978-9953-68-627-1

الناشر:

النادي الأدبي بالرياض

والمركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ هاتف: 303339 522 212+

Email: markaz@wanadoo.net.ma

بيروت ـ هاتف: 352826 1 961+

Email: cca_casa_bey@yahoo.com

فهرس

مفتاح الكتاب 13

مقالات القبس الكويتية
(كلمات مائية)
1994–1995

آراخنا 17
سكرات الحب 20
المنطق والانفعال 23
بعد ذلك 26
شطحات أم ماذا؟ 29
الردحلوجي 32
هل نفهم التاريخ؟ 36
المستقبل السالف 40
دخول الذات في الذات 44
بعد غد 48
أُمّةٌ بلا أحلام 51
نسيها المنذر 54

لقد كذبت 57
عسليكم 60
لقطات موجهة 64
لا . . لن نتعب 67
لا تقرأ ص 97 71
من أبعاد المواجهة 75
كلمة كلب لا تنبح! 78
مسيرة التعليل 81
. . . أو ليلى من الخشب 85
التعريف الغامض 89
الحريق الأنيق 92
فضاء دلالي أزرق 95
آهٍ يا للقدر، كيف يتقن صوغ الرماد؟! 99
أليست هذه مجزرة؟! 101
قُل لقلبك 104

مقالات الحياة اللندنية

(كلمات مائية)

1998–2001

في البدء 109
البئر المستحيلة 111
المواعيد 114
من بالباب؟ – 1 116

من بالباب؟ – 2 118
أين الخطأ؟ 120
أتسمعني؟ 122
يا هلا 124
الأرأَيتيون 126
هزيمة اليقين – 1 128
هزيمة اليقين – 2 130
(ختير القنديل) 132
سؤال ملون 135
موت القارئ 137
مجاز الذوق 139
الملل 141
المثقف – 1 143
المثقف – 2 145
أمنية 147
رسالة – 1 149
رسالة – 2 150
رسالة – 3 152
رسالة – 4 154
رسالة – 5 156
رسالة – 6 158
رسالة – 7 160
رسالة – 8 162

رسالة – 9 164
رسالة – 10 166
تكافؤ الفرص 168
نحن هنا 170
الصمت كلاماً 172
هل تعرف؟ 174
تعبير 176
ما بعد 178
لا 180
نقائض رصاصية 182
مفردة 184
غرس 186
وقاحة 188
حبل الغسيل 190
جسد 192
بماذا؟ 194
هذا هو 196
الأمن الثقافي 198
طيور الروح 200
وصية 202
الوجع 203
لقد ضعت 206
الأوهام الدائمة 208

. . . ولكنه ضحك 210
التدجين – 1 212
التدجين – 2 214
إحداها 216
حوار 217
التعب 219
إنه الحب 221
الجسر الغائب 222
في الصحافة 224
محادثة 226
لماذا؟ 228
الرجفة 230
جمرها 231
كتاب 233
البؤس 235
الإرادة 237
الجذور 239
التوقع 240
جواب طويل 241
السكتة القلبية 243
مخض الماء 245
شغف 246
قيس الجديد 248

نخلة 250
ثم ماذا؟ 252
زبد ساطع 254
الحزن 256
الرعب الدائم 258
سؤال 260
تبيئة 262
الثبات 264
انقراض الحرف 266
الغربان البيضاء 268
سكرات الجهل 270
متى يثمر؟ 272
رمز 274
جفاف 276
كلمات مائية 278

مقالات الجزيرة السعودية

(كلمات مائية)

1998–1997

لو 283
الفقراء 285
(تعا) 287
زرع . . حصد 289

وكأنا 291
صنم الكهف 293
ذاكر 295
إنشاء 297
أينهم؟! 299
المشعب 301
الزمن 303
إلى أين؟ 305
بنية ذهنية 307
الانشطار 309
كلمات مائية 311
90% 313
حتف ثقافته 315
سوطان 317
جحيم الاكتمال 319

مقالات لم تُنشَر في الصحف

الحرية 323
منعت من النشر 325
حبسة اليد 327
شؤون صغيرة 329
الوسطية 331
الأقنعة 334

هل نفهم تراثنا 336
سوريالية 338
ليس بعيداً 341
الملوخية حرام 343
ماذا نسميه؟ 345
تخدير 348
لو كان الفقر رجلاً لقتلته 350
أنا حر 352
القطيعة 355
خطورة التعريف 359
شجاعة الاعتراف 361
الاستبداد 365
في يومٍ فقَدَ ظلّه 370
يخرب بيتك 372
إلى هناك 374
المقاوم 376
غصون 378

مفتاح الكتاب

يحتوي هذا الكتاب على المقالات التي كتبها الأستاذ محمد العلي في صُحُف **القبس** الكويتية، و**الحياة** اللندنية، و**الجزيرة** السعودية وما لم يُنشَر في الصحف.. وهي لقيمتها الفكرية والأدبية، أحببتُ جمعها وإعادة نشرها.

وبانتهاء هذا العمل، أشكر الأساتذة: علي الدميني، محمد القشعمي، عزيزة فتح الله، أحمد زين ومحمد النبهان.. لما بذلوه من جهودٍ كبيرة ومتأنّية، مباشرة وغير مباشرة، ليخرج الكتاب بهذا المحتوى والشكل. وأشكر القائمين على نادي الرياض الأدبي، وأخص بالذكر الأستاذ عبدالله الوشمي والأستاذة ليلى الأحيدب، للترحيب بهذا العمل والإيمان بقيمته وتبنّيه.

أحمد عبدالسلام العلي

مقالات القبس الكويتية

(كلمات مائية)

1994-1995

آراخنا

-1-

هناك ما لا يقل عن 620 نوعاً من العناكب في العالم، تتفاوت في الحجم واللون، ومن أشهرها عنكبوت المنزل الذي يسمى العنكبوت الكاردينال، نسبة إلى الصليب الظاهر على ظهره.

إن كافة العناكب غير ضارة بالإنسان، ولا هي سامة، باستثناء العنكبوت الأميركي، واسمه (عنكبوت الأرملة) فلدغته مميتة أكثر من لدغة أفعى سامة.

حين وصلت إلى هذا الجزء من بحث طويل عريض عن العناكب.. نسيت حتى تلك الأسطورة الإغريقية الجميلة التي تعيد فصيلة العناكب إلى (آراخندا) وهو مأخوذ من اسم الفتاة (آراخنا) التي تنافست مع الآلهة (أثينا) في سرعة الحياكة، فغضبت عليها أثينا، وحولتها إلى عنكبوت.

نسيت حتى هذه الأسطورة، وبقي ذهني غارقاً في أن العناكب كلها غير سامة، ما عدا العنكبوت الأميركي.

أي خصيصة هي تلك التي تمتاز بها الأرض الأميركية، بحيث تستحيل بها، وعليها، حتى العناكب إلى سامة، مؤذية، يتطاير الشر من أطرافها؟!

لماذا؟ هل هناك تفسير علمي لهذا الشذوذ؟

لست عالماً في العناكب، ولا في الأساطير حتى أجيب عن مثل هذا السؤال. أنا شخص قرأ شيئاً لافتاً، وعجيباً فأراد أن ينقل تعجبه هذا إلى الآخرين.

وتذكرت رأساً خبراً نشرته جريدة **الجزيرة** في عددها 4820 عن رجل من تكساس وضع قنبلة في حقيبة زوجته، ومعها أطفالهما الثلاثة، لتحترق هي وأطفالها في مقابل حصوله على مليون دولار قيمة التأمين.

ما الذي يجعل السيدة أميركا تمتاز بهذه الكثرة من الشرور السوداء؟ وكما يقول القدماء: لم أحر جواباً.

-2-

لقد وقف الفيلسوف الأخلاقي ألبرت شنيستر في كتابه (فلسفة الحضارة) وقفة «طللية» باكية، وهو يعدد الأسباب التي تتولد منها الشرور والمتعلقة بإنسان هذا العصر الذي يسمى خطأ بـ«عصر الحضارة». ولكنه غلب عليه جانب الفلسفة كفيلسوف أخلاقي، وألقى باللوم كله على الفلسفة التي وصفها بـ«الحارس النائم». ولم يلتفت إلى أن الفلسفة لم تعد تلك صاحبة المُثُل، والتي تبحث عن الكمال المطلق.. لقد تشظّت الفلسفة وأصبحت فلسفات عديدة، أهمها فلسفة المال.. الفلسفة (البراغماتية) التي تقوم عليها كل الحياة الأميركية، وغير الأميركية.

-3-

حدثنا نهر بن نهير عن جبل بن جبيل عن سراقة البيزنطي عن أسامة البهيقي عن أبيه عن جده، قال:

كنا في مجلس أبي عمار السلولي، فالتفت إلينا سائلاً:

هل تؤمنون بقول ابن رشد:

«. . ذلك أن الطبيعة التي خلق منها الإنسان والتركيب الذي ركب عليه، اقتضى أن يكون بعض الناس وهُم الأقل أشراراً بطبعهم»؟

فأجاب ابن حمديس غاضباً:

لا . . لا . . لا أصدق قول ابن رشد هذا، إن الإنسان خير كله، ومن قال غير هذا فهو لا شك أعمى وأضل سبيلاً.

فالتفت إليه غياث بن المسيب، وقال له بغضب: إذا كان ابن رشد قد جانب الصواب، فذلك بقوله: «وهم الأقل» إذ الأصوب أن يقول: «وهم الأكثر»، ويحك يا ابن اللخناء، ألم تسمع قول الشاعر الفحل:

الظلم من شيم النفوس فإن تجد
ذا عفّة فلعلّة لا يظلم؟

سكرات الحب

-1-

حين يعتكر الأفق حلزونياً، وتتوسّد الأشجار سواعدها القزحية في مباهج الظهيرة ذات النكهة الصاعدة في الرماد الأسطوري، ويتورد الماء على حين غرة من شدو الدقائق المنتقاة بفرحة نافرة.

حين يحدث هذا تستقيم الخطوط المنحنية، كأنها استمدت غوايتها من صهيل الأبراج المتقاطعة مع الساحات المنقرضة انقراضاً آتياً لا شك فيه.

أما اللغة فإنها ستشمر عن قامتها ذات الأبعاد المتواطئة مع الخرير المتجمد في أنهار الشعر المتزوجة مع المدن الخريفية في الضحى المتغطرس. ولذلك قال الحكيم المتكرر في نفسه: لا شيء في اللاشيء.

هل في هذا الكلام المتربع أعلاه كلمة واحدة تحتاج في فهمها إلى قاموس؟ هل فيه مفردة واحدة تلبس ثوباً ضبابياً؟

لا. ليس فيه.

إذاً: لماذا هو غير مفهوم، بل ولا يمكن فهمه على الإطلاق؟

لأن اللغة ليست مجموعة مفردات، إنها علاقات، وإذا فقدت العلاقة الأفقية والعمودية بين المفردات أصبحت هذياناً.

-2-

غير أن المفردات حتى لو قامت بينها علاقات أفقية كالبنيان المرصوص فإنها تختلف خطاً اختلافاً كبيراً: فهناك من المفردات ما يأخذ صيغة واحدة متكررة لا يحيد عنها، وهناك ما تكون طبيعته متحركة.

خذ مثلاً كلمة (سكرات)، إننا لا نسمعها إلا مضافة للموت (سكرات الموت)، وهذا معناه أننا ملأناها بالمحتوى البشع وحسب من معانيها الكثيرة، فالقاموس يقول:

سكر من الغضب = امتلأ غيظاً

فلان من الشراب = غاب عقله

السكرة: غلبة اللذة على الشباب.

والسكرة من الموت، أو الهم، أو النوم، ونحوها = شدته وغلبته.

نحن إذاً نسينا جميع المعاني لمفردة (سكرة) وحبسناها فقط في صيغة الجمع، وفي تركيب الإضافة.

أليس هذا خطأ أسود لبعض المفردات دون بعض؟ بلى إنه كذلك.

هل كان محمود درويش يقصد تلك الزرافات من الكلمات الجميلة التي سكنت غياهب المعجمات من دون أن نلتفت إليها حين قال:

أُطلُّ على المفردات التي انقرضت في لسان العرب؟

-3-

والمعاني ليست أحسن حظاً من المفردات، فهناك من المعاني ما يأتيك في عرس لفظي، أو حديثة لغوية، متبرجاً «تبرج الأنثى تصدت للذكر»، وهناك ما يأتيك على جماله في أسمال لغوية تنفّرك منه إياك.

لذلك قسم أحد المنظرين والشعراء «الشعرية» من الناحية النوعية إلى:

1. التعبير نثرياً بالنثر
2. التعبير نثرياً بالشعر
3. التعبير شعرياً بالنثر
4. التعبير شعرياً بالشعر

-4-

هوى أبو عيينة المهابي جارية يقال لها «أمان» فأغلى بها مولاها السوم، وجعل يرددها إلى إبراهيم الموصلي وابن اسحق، فتأخذ عنهما، وكلما زادت في الغناء زاد في السوم، فقال أبو عيينة:

قلت لما رأيت مولى أمان
قد طغى سومه بها طغيانا
لا جزى الله الموصلي أبا اسحق
عنا خيراً ولا إحسانا
جاءنا مرسلاً بوحي الشيطان
أغلى به علينا القيانا
من غناء كأنه (سكرات الحب)
يسبي العقول والآذانا.

المنطق والانفعال

-1-

«أتعلم أيها الاخ أنّا لا نعادي علماً من العلوم، ولا نتعصب على مذهب من المذاهب، ولا نهجر كتاباً من كتب الحكماء والفلاسفة، مما وضعوه وألّفوه في فنون العلم، وما استخرجوه بعقولهم وتفحّصهم من لطيف المعاني» **إخوان الصفاء**.

ظهر إخوان الصفاء في عام 373هـ - 983م وقد اشتق اسمهم كما يقول أحد المستشرقين عن قصة (الحمامة المطوقة) في كليلة ودمنة التي تقول:

«إن الحيوانات إذا صفت إخوتها، وتبادلت المعونة في ما بينها، تستطيع الفكاك من شباك الصياد، وغيرها من المخاطر».

نحن حين نقرأ هذا النص لإخوان الصفاء، ونعرضه على واقعه التاريخي، يأخذ بعضنا العجب: إذ كيف يمكن في القرن الرابع الهجري، وهو أحد القرون الذهبية، أن يعادى علم من العلوم أو مذهب من المذاهب؟!

غير أن هذا التعجب ليس صحيحاً، فهناك في العصور الذهبية علوم نصب لها العداء، ومذاهب رجمت بالسهام والنبال والسيوف، لا بالحجارة فقط! وهناك وهناك .. مما يصعب تفصيله.

ولكن هل نختلف نحن بعد ألف سنة عن ذاك الذي حدث في القرنين الثالث والرابع؟

هذا هو السؤال.

-2-

ويبدو أن العصبية القبلية تحولت في تلك العصور التي توصف بـ(الذهبية) إلى عصبية أخرى، أو إلى تعصب للعلوم والمذاهب والآراء.

ما هو التعصب؟

يقول القاموس النفسي:

«التعصب عبارة عن اتجاه نفسي موجب أو سالب يجعل الشخص يقف موقفاً معارضاً، أو مؤازراً لفكرة أو موضوع معين، دون أن يكون مبنياً على دليل منطقي بحيث يكون ذلك مصحوباً بشحنة انفعالية تحول بين الفرد والسلوك السليم. ويؤدي التعصب إلى عزل الأفراد والجماعات المتعارضة، وإلى إقامة الحدود الفاصلة بينهم، كما يؤدي إلى التهديد والخوف والصراع والسلوك العدواني».

التعصب بهذا التعريف النفسي ليس فقط الرفض المطلق، والمسبق، لما عند الآخرين من علوم وآراء، بل هو الرفض المطلق العدواني، أو التناحري.

إنه يتجاوز حتى ذلك الموقف الذي عبر عنه الشاعر القديم (وأظنه جاهلياً) بقوله:

نحن بما عندنا، وأنت بما
عندك راضٍ والرّأيُ مُختلف

إن هذا الموقف يترك مساحة للسلام بين اتجاهين، ولكن التعصب لا يترك مجالاً لمثل هذه المساحة أبداً.

-3-

ليس بالمواعظ الرنانة، أو الخطب البتراء، يمكن علاج التعصب، أو نفي ما لدى الآخر من آراء وعلوم نفياً قاطعاً.

إن هذا السلوك ليس فردياً حتى نستطيع حصاره وتهذيبه بسهولة. إنه سلوك جماعي، سلوك تراكم عليه التاريخ، والعادات والتقاليد، وملأ أركان الوعي واللاوعي.

ما العمل إذاً؟!

يبدأ العمل من المناهج الدراسية، من رياض الأطفال، والبدء من البرنامج الإعلامية منذ الأفلام الكرتونية، والبدء باحترام الطفل منذ الولادة، بل منذ ما قبلها، أي من المرحلة الجنينية.

فهل نحن على استعدادٍ لهذا؟

لا. فالعالم العربي كله مشغول بالصراخ والعويل بسبب الجراح التي تزداد نزفاً في جسده وفي روحه، أمّا أن يبحث عن الدواء، ليعرف ما الطريق إلى الشفاء، فهذا شيء بعيد.

لنعش إذاً على حالنا منذ القرون الأولى، ننفي علم الآخر، ومذهب الآخر، ورأي الآخر، ونسلم رؤوسنا لرياح الخيال، ونقول في رومانسية وخيلاء:

نحن ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.

بعد ذلك

قال أبو الفرج:

«كان الوزير -أطال الله بقاءه- ذاكرني منذ أيام في من قال الشعر من الإماء المماليك، وأمرني أن أجمع له ما وقع لي من أخبارهن في الدولتين الأموية والعباسية.

ولم أجد في الدولة الأموية منهن شاعرة مذكورة، ولا خاملة، لأن القوم لم يكونوا يختارون من في شعره (لين) ولا يرضون إلا بما يجري مجرى الشعر الجزل، المختار، الفصيح، وإنما شاع هذا في دولة بني هاشم (العباسيين) فذكرت منهن ما وقع إلي. . .إلخ».

هذا مدخل كتاب (الإماء الشواعر) لأبي الفرج الأصبهاني، تحقيق الدكتورين نوري القيسي وصاحبه، ونقلته هنا لأصل منه إلى ما يلي:

1. الوقوف مع المحققين على تلك الظاهرة التي نجدها شائعة في كتب القدماء، والتي تعيد سبب التأليف إلى طلب خارجي، أي إنه ليس سبباً ذاتياً نابعاً من رغبة المؤلف، بل هو طلب يقدمه أو يأمر به وجيه أو وزير فيستجيب له المؤلف، ويكون الكتاب.

هذه الظاهرة التي وقف عليها المحققان، وقالا: إنها حالة وهمية كان القدماء يستخدمونها، ولكنهما لم يقفا على سبب محدد لذلك.

إن هذه الظاهرة ليست بعيدة عن ظاهرة أخرى، وإن لم يكن لها الاتساع نفسه، هي: إقدام بعض المؤلفين الذين أبطأت عليهم الشهرة، إلى نسبة مؤلفاتهم إلى بعض الأسماء الشهيرة. وهنا يمكن أن نسأل عن السبب الذي يجيبنا الباحثين عنه: بأن ذلك ما هو إلا مجرّد الرغبة من المؤلف (المغمور) إلى وصول مؤلفه إلى أكبر عدد ممكن من القراء.

هنا نصل إلى نقطة جديدة، هي: (نكران الذات) الذي كان يتميز به القدماء «إن صحّت الروايات» فهم لا يعنيهم كثيرراً مدح أنفسهم. إن اهتمامهم -أو اهتمام بعضهم- ينصبُّ على أن تصل هذه المعلومات التي يجمعونها إلى أكبر عدد من الناس.

وإذا أضفنا إلى هذا أن بعض القصائد الرائعة كانت من نظم خلف الأحمر وأمثاله، منسوبة إلى شعراء آخرين.. عرفنا ما في هذا العمل من تضحية ونكران ذات.

2. إدراك ما وصلت إليه الحياة في العصر العباسي من ترف ماجن يحتاج تصديقه إلى خيال خرافي.

3. نشرت مجلة **العربية** عدد (101) قراءة ياسين وكّاع لهذا الكتاب، وهي قراءة تعيد ذاكرتنا إلى البيت القائل:

كأننا والماء من حولنا   قومٌ جلوسٌ حولهم ماء

4. السبب الرابع سأقوله (بعد ذلك).

لكن ما هي فائدة هذا الكلام الذي سبق كله؟ ما هي فائدة أن نعرف أن هذا المؤلف ألّف لدافع ذاتي، أو دافع موضوعي؟ ما هي فائدة أن نعرف أن هذه القصيدة لخلف الأحمر أو حماد الراوية أو هي للشنفرى؟

الفائدة كبيرة:

إن هذه الظواهر لا تزال تعيش بيننا بصورة أكثر بشاعة، فهناك مؤلفون لا يعرفون كيف ولدت مؤلفاتهم إلا وقت توقيع الشيك، وهناك شعراء لا يشق لهم غبار، ولهم دواوين لا يعرفون ما فيها.

إذاً الظاهرة قائمة.

وإذا وجدنا، أو التمسنا لها عذراً في السابق، فكيف نجد لها عذراً الآن؟.

حدَّثَنا الشماخ المروزي عن خزيمة بن خازم عن جخطة السعداني عن أبيه عن جده قال: كنا في مجلس أبي الطمحان النهشلي، فدخل علينا أعرابي، وسأل:

أيُّكُم قال هذا البيت:

حسن الحضارة مجلوب بتطرزة
وفي البداوة حسن غير مجلوب؟

فقال له أبو الطمحان:

الرواة يقولون: إنه المتنبي، ولكن الصحيح أنني أنا الذي قلته.

فقال الأعرابي: من أين أخذت جائزتك؟.

شطحات أم ماذا؟

-1-

«الاستقلال الحضاري»، قرأت هذا التعبير لأول مرة في مقال طويلة للدكتور محمد عمارة، يقول فيه: «عندما تكون الأمّة مالكة لتراث حضاري غني وعريق، وعندما تكون حضارتها من الحضارات التي تألّقت فتخطّت بعطائها الحدود القيمة لهذه الأمة -كما هو حال أمتنا العربية الإسلامية- عندما يكون هذا حال الأمة فمن الصعب، بل والمستحيل عليها أن تقف بنضالها في سبيل الاستقلال عند الاستقلال السياسي، أو حتى الاستقلال الاقتصادي، ولا بد لها أن تواصل مسعاها كي تحقق الاستقلال الحضاري. . .إلخ».

تابعت قراءة المقال وفي ذهني السؤال الآتي:

هل يستطيع الكاتب أن يحدد معالم الوصول إلى هذا الهدف الكبير «الاستقلال الحضاري»؟.

انتهى المقال، والسؤال باقٍ يراوح مكانه، بل ازداد توالد الأسئلة الفرعية من حوله:

هل يمكن في زماننا هذا، الزمان الذي تداخلت فيه الثقافات واللغات والمدن والقرى، وتشابكت فيه المصالح الاقتصادية. . هل يمكن أن تستطيع أمة من الأمم بلوغ الاستقلال الحضاري؟

ماذا يريد الكاتب أساساً من هذا التعبير، أو المفهوم، أو المصطلح. . أتراها إحدى الشطحات الصوفية؟

بقيت الأسئلة تدور بي كما دارت أزقة دمشق بسعدي يوسف.

-2-

ماذا يعني الاستقلال الحضاري؟

يعني -في ما يعنيه- أن الأمة مكتفية بذاتها روحياً ومادياً، فكرياً ووجدانياً وعقلياً. . فهل هناك أمة في وقتنا الحاضر تستطيع الوصول، وحدها، إلى هذا الهدف؟!

يقول روجيه جارودي ما مضمونه:

إن أفظع وأبشع ما صنعته الحضاره الغربية ليس هو الاستعمار، بل هو سرقة الحضارات الأخرى، ونسبة ما سرقته إليها.

هذا القول صحيح، وينطبق بنسب متفاوتة على كل الحضارات في التاريخ.

إن الحضارة بناء روحي ومادي للإنسان، كدح من أجله آلاف السنين، والجهد الإنساني جهد مشترك، أو من حق جميع البشر الاستفادة منه، والاستضاءة به، فهل هناك من يشك في هذه البدهية؟

نعم. إنه الدكتور محمد عمارة.

-3-

مع ذلك يمكن اعتبار رأي عمارة هذا أمنية رومانسية نقدّرها نوعاً من التقدير حين نقرأ ما عرضه الباحث جورج طرابيشي من أداء لبعض الكتاب في هذا الموضوع بالذات.

هل تريد أن تتميز غضباً، أو عجباً، أو ما شئت؟ إذاً اقرأ ما كتبه واحد من رعيل عمارة:

«هل من الصحيح، أو الثابت تاريخياً أن الحضارات تقتبس من بعضها، أو تتراكم فوق بعضها، أم أن لكل حضارة مساراً يمضي ضمن سياق خاص، كما لكل منها قوانينها الداخلية التي تتحكم في حركتها؟.. وبالمناسبة كثيراً ما نسمع عن أخذ أوروبا للعلوم والتقنيات عن العرب والمسلمين إبان نهضتها، وذلك كدليل على اعتبار العلوم والتقنيات مشاعاً إنسانياً، وهو كالشعلة التي تنتقل من يد إلى يد، على علاته.. إلخ».

ويستمر هذا الكاتب النحرير في بسط مقولته هذه منكراً وبعلانية صارخة أن الغرب في بدء نهضته قد استفاد من ابن سينا أو الرازي أو ابن رشد.. وصولاً إلى أن كل حضارة لابد أن تكون منغلقة على نفسها، ولا يمكن أن تتساقى حضارة مع حضارة أخرى.

هل رأيت أم أنك لا تستطيع أن ترى مثل هذا؟!

حدثنا الأحوص بن عبيد عن زريق بن الأدهم عن حماد عجرد عن أبيه عن جده قال: كنا على ضفاف نهر، فقال ابو هذيل العلاف: أي منكم يثبت لي أن هذا نهر جار؟ فتنادى أصحابنا للرد عليه، وكلما أدلى أحدهم بحجةٍ، نَقضها، فما كان من قيس بن الملوح إلا أن قام وأخذ بتلابيب أبي هذا ورماه في الماء، قائلاً له: والآن أهذا ماء؟

فأجاب: نعم والله إنه ماء.

الردحلوجي

-1-

أستعير هذا الترتيب من أحد كُتّاب **القبس** الذي كتبه إملائيّاً هكذا (الردح حلوجي) وكان من الأفضل إيحائياً كتابة الكلمتين متداخلتين.

في العدد نفسه يوم 3/ 4/ 1995 مقالة لأحد كتاب **القبس** أيضاً، ورد فيها ما يلي:

«الثالثة: يرتفع مؤشر ضغط الدم عندي حين أقرأ الغث من الشعر والنثر في الصفحات الأدبية في الصحافة المحلية. تُرى لماذا لا يكون هناك دور لرابطة الأدباء في الإشراف الفني، والتوجيه الأدبي لما ينشر في هذه الصفحات؟ ولماذا لا يكون من ضمن أهداف الرابطة الارتقاء بالتذوق الأدبي للشارع الكويتي؟».

-2-

الكاتب الأول -غفر الله له- لم يذكر (تعريفاً) للردح، بل اعتمد على ما في أذهاننا الشعبية من معانيه، وهذا غير كاف، فهو قد اعتبره صناعة (عرباوية) إذاً لابد من تتبع معانيه الماضية والمحاضرة لنكون على علم بصناعتنا الفريدة.

لهذا ذهبت إلى (المعجم الوسيط) للتعرف إلى معنى (الردح)، يقول هذا المعجم:

ردح ردحاً: ثبت وتمكن، يقال: ردح بالمكان: أقام.

ردح الرجل: أصاب حاجته.

ردح الشيء: بسطه.

ردحت المرأة رداحة: ضخم ردفها، وسمنت أوراكها.

الرادحة: مؤنث الرادح. ويقال: مائدة رادحة: عظيمة، كثيرة الخير.

كبش رداح: عظيم الإلية.

الردح: المدة الطويلة، يقال: أقام ردحاً من الدهر.

الردحي: بقال القرية.

أعتقد بعد استعراض ما ذكره القاموس لهذه المفردة التي تحولت إلى (مفهوم)، أن الذوق الشعبي المصري هو الذي جعل لها معناها الحديث وهو (الرقص) الرقص المستند إلى الذوق الجمالي القديم في رؤية ردف المرأة، وأوراكها، إذ لابد أن يكون ذلك الردف بحيث يملأ العين ضخامة واهتزازاً.

-3-

في نص الكاتب الثاني المذكور أعلاه عدة أبعاد لابد من الوقوف عليها نقدياً:

1. اعتبر الكاتب أن ارتفاع ضغط الدم عنده حين يقرأ الغث من الشعر والنثر.. صفة شخصية، أو حالة فردية يختص بها وحده، وفي

هذا ادعاء ضمني بأنه يملك رؤية نقدية صارمة بحيث تؤثر حتى على دمه.

2. كان عليه بعد هذا الادعاء الضمني الصارخ أن يضع رؤيتنا على نماذج من تلك التي تنشب أظفارها في الدم مباشرة، قدمانا هي الأخرى تريد أن تنجب مثل هذه الأظفار.

3. اعتبر رابطة الأدباء، وبصورة مطلقة، هي المسؤولة عن حماية الذوق الأدبي من التلوث وأعتقد أن هذا حكم صارم أن كل من في الرابطة له مطلق الحق في أن يجرد سيفه النقدي، ويجز به أعناق من يرى أنهم تطاولوا على ميدان الساحة الأدبية.

إن الأدب هنا، في هذه الرؤية، أصبح شيئاً محدداً، لقد تشيأ، بكل قوانينه ومنطقه الداخلي، وإذاعاته، وخروجه عن السائد، لقد أصبح أشبه بحفنة من النقود، نضع عليها حراساً، وحين تسرق ننهض لها جيشاً من المحامين.

هل الرابطة مؤهلة لمثل هذا العمل البوليسي؟ ألا يكفينا الحراس الذين يشهرون علينا سيوفهم، وينقضون من كل حدب وصوب؟!!

4. الكاتب طرح السؤال الآتي:

لماذا لا يكون من ضمن أهداف الرابطة الارتقاء بالتذوق الأدبي للشارع الكويتي؟

السؤال هذا مشروع تماماً.. ويجب توجيهه إلى كل رابطة أدبية، وعلى كل رابطة أن تدرس بعيون نقدية واسعة كل المناهج التربوية، وكل البرامج الإعلامية التي تعيق ارتفاع التذوق الأدبي العام.

-4-

ما هي العلاقة بين مفهوم «الردح» عند الكاتب الأول، و«نقد ارتفاع ضغط الدم» عند الكاتب الثاني؟

العلاقة أن مثل هذا النقد يسمى «ردحاً» فهو لا يستند في رؤيته النقدية إلى أمثلة، كما إنه يقترح العلاج لما افترضه افتراضاً، أسلوباً يتنافى والحرية الأدبية، ويتعارض مع طبيعة الأدب نفسه.

إن الساحة الأدبية الحقيقية تفرز «غربالها» النقدي والذوقي، تفرزه وفق حركة تراكمية صاعدة لا تحتاج أبداً إلى «ثلة من حرس الشرف».

هل نفهم التاريخ؟

-1-

- هل قرأت رواية (سمرقند) لأمين معلوف؟
- نعم قرأتها.
- ما الذي خرجت به منها؟
- خرجت بفهم أعمق للتاريخ.
- لماذا؟
- لأننا تعودنا أن نقرأ التاريخ مزقاً وأشلاء، كل حادثة وحدها. أما في الرواية فنقرؤه كلاًّ واحداً، حيث ترتبط الأسباب والمسببات.
- إذاً في رأيك نحن لا نفهم التاريخ؟
- نعم، لأن كلامنا يقتطع منه جزءاً، أو بتعبير أكثر دقة (يأخذ) منه جزءاً ويقول: هذا هو التاريخ.

التاريخ هو حركة الحياة، جدل الإنسان مع الطبيعة ومع نفسه ومع الآخر، طموح وفشل، أحلام وحقائق، وحين نقرؤه جزءاً جزءاً كما هو حادث، فنحن بعيدون عن فهمه.

خذ مثلاً من يدعون الأدب، تجد أن التاريخ في نظرهم مجرد دواوين شعرية، أو نصوص لهذا الكاتب أو ذاك.

وأنت حين تذهب إلى الميدان الفلسفي سترى أن التاريخ مجرد

أهرام من تصورات، ولا شيء غير ذلك. . دع عينيك تخترقان أي فئة فكرية أو وجدانية، وسوف تقتنع بأن كل (فرقة) تعتبر أن التاريخ هو الزاوية الضيقة التي تنظر منها وحسب.

إن من يقرأ بعمق تاريخ الفرق الإسلامية، و(الفرق بين الفرق) يصاب بالذعر لأن كل فرقة ترى أنها هي الحق، وأنها كل حركة التاريخ.

-2-

منذ أربعة عقود تقريباً كتبت نازك الملائكة عن (التجزيئية في المجتمع العربي) وهي كتابة ناضجة عن التجزيئية في النظر إلى جميع الظواهر الاجتماعية والنفسية في الرؤية العربية.

-3-

قليل هم الذين تركوا دوياً في الساحة الفكرية، والنقدية في جيلنا الحاضر، غير أنهم لو عدوا فلا شك في أن أدونيس واحد منهم. ونحن نقف معه هنا لا كشاعر، ولا كناقد بشكل عام، بل لأنه قرأ التراث قراءة لا يمكن أن توصف إلا أنها مثيرة للجدل، وسواء اتفقنا معه أم اختلفنا فإن آراءه ستبقى طويلاً مجالاً لتعدد الرؤية.

يقول أدونيس:

«في تقديري أنه لا يصح النظر في قضايا التراث إلا في منظور الصراعات الثقافية والاجتماعية التي شكلت التاريخ العربي. وفي هذا المنظور لا يصح أن نقول: إن هناك تراثاً واحداً، وإنما نتاج ثقافي

معين يرتبط بنظام معين، في مرحلة تاريخية معينة، وعلى هذا فإن ما نسميه تراثاً ليس إلا مجموعة من النتاجات الثقافية التاريخية التي تتباين حتى درجة التناقض. لذلك لا يصح البحث في التراث كأصل أو جوهر، أو (كل) وإنما ينبغي البحث في نتاج ثقافي محدد في مرحلة محددة» (أدونيس – صدمة الحداثة، ص ص 8، 22).

هذه الفقرة من كتاب (صدمة الحداثة) وصفها الأستاذ نصر أبو زيد في بحث من أكثر البحوث عمقاً وموضوعية بأنها «نظرة ديناميكية للتراث». وأنا أعتقد أنها: نظرة تجزيئية قاصرة، لأنها حاولت سحب مقاييس الحاضر على الماضي (أولاً) وهو ليس موقف إسقاط الماضي على الحاضر، و(ثانياً) هي جعلت الثابت والمتحول ظاهرتين منفصلتين عن بعضهما.

لقد استنفر أدونيس كل قدراته البلاغية والذهنية للبرهنة على ذلك، ولكنه وقع في ما لابد أن يقع فيه. وقع في أنه جعل التراث خطين متوازيين لا يلتقيان مهما امتدا. لقد وقع في ما يمكن تسميته «التوازوية» وهي نظرة عاجزة تماماً عن رؤية «جينات» المتحول في الثابت، وقسمات الثابت في المتحول.

إن التراث ليس مجموعة من الربوات، ينظر بعضها إلى بعض، دون أن تجرؤ إحداها على التداخل مع مقابلتها، بل هو مجموعة من «الموجات» في كل الزمان. إن لقاءهما معاً هو الذي يكون البنية العميقة للأمة، ويلد التكوين النفسي المشترك.

إن فقرة أدونيس هذه ليست نكراناً لتداخل التراث، وتأثير بعضه في بعض، بل هي رفض لكل المؤثرات التي أفضت به إلى هذه الصيرورة دون تلك. لقد أصبح التراث على يد هذه الفقرة نتاجاً ثقافياً

مجرداً عن أي تأثير روحي اجتماعي، لأنها جعلت التراث الروحي وحده، والعاطفي وحده، فأصبح التراث مجموعة من الجزر كما عبر أحد المفكرين.

-4-

لابد من فهم آخر للتاريخ، فهمٌ ينبثق من قراءة ثانية للتاريخ، قراءة تعتبره كلّاً واحداً، ظواهر بعضها يتولد من بعض، ويأخذ بأعناق بعض، أما فهمنا الجاهز والحاضر للتاريخ فهو فهم قاصر ومشوّه يقودنا إلى الظلام أكثر فأكثر.

المستقبل السالف

-1-

«يميل العرب إلى خداع أنفسهم، وخداع غيرهم، وهم يقومون بذلك عن غير عمد، فهم يميلون دائماً إلى التحدث عن أمجاد الأجداد.. عن صلاح الدين.. عن معارك حطين واليرموك.. وبينما يفعلون ذلك فإننا نبتسم، لأنهم يرون أنفسهم في مرآة أمجاد الماضي، أما نحن فنراهم في مرآة الحاضر. ليتهم يسألون أنفسهم: لماذا يتحدثون دائماً عن عظماء ماضيهم، ولا يجدون في حاضرهم أحداً من العظماء يتحدثون عنه!!» موشي دايان.

هذا الكلام الجارح لواحد من ألدّ أعداء العرب.. كلام فيه الكثير من الصحة، بل إن مضمونه كرر، وأطنب من قبل موشي دايان، ومن بعده، وبالعبارات نفسها الجارحة من عرب مخلصين لأمتهم أشد الإخلاص.

فالمتنبي حين قال: يا أمة ضحكت من جهلها الأمم..

وحين قال: ولا يفلح عربٌ ملوكهم عجم..

وحين قال:

إذا كان بعض الناس سيفاً لدولة

ففي الناس بوقات لها وطبول..

حين قال هذا كله لم يكن منطلقاً من روح عدائية أو شعوبية، بل من صدق مع الذات، واحتراق في التجربة.

وعبدالله العروي عندما يصف المستقبل العربي بـ«المستقبل السالف» لم يكن منطلقاً من فراغ قومي، أو عاطفة ساخرة، بل من حب لم يجد تعبيراً عن نفسه إلا بهذه الطريقة المأساوية.

أما حين نقف على شعرائنا منذ بدء النهضة حتى الآن. . فنحن نقف وسط مناحة رثائية لحالة التردي التي نحن في هاويتها، وغضباً منها.

-2-

لماذا كل هذا؟

لأننا في «زمن يتقدم فيه الجواب وتنهزم الأسئلة»، هكذا يقول أحد الشعراء.

وإن تنهزم الأسئلة في عصر من العصور، أو مجتمع من المجتمعات (كما هي حالنا في كل العصور) بمعنى مصادرتها، أو قمعها، أو عدم الالتفات إليها. . أن يكون هذا فمعناه الرافل بالفصاحة أن المجتمع أصبح راكداً ركود الماء في حوض ينتظر أن يأسن، وأن يجف.

سؤال الإنسان لنفسه عن نفسه، وعن الكون من حوله، وعن مجتمعه بالذات هو محور توالد الأجوبة، وبلورتها، ونضجها. . أما الإجابة الجاهزة سلفاً عن كل شيء فهي الهاوية.

الشاعر هذا متألم من عصره، من مجتمعه فذرف حزنه في هذه الكلمات القليلة الجارحة الدلالة.

-3-

ونزداد حزناً عندما نسمع الشاعر نفسه يقول:

«من سيفهم
أني أعيش في جناحي يمامة
وأطير في فخ؟!».

إن العيش في جناحي يمامة يعني الطمأنينة والسلام، يعني الهدوء النفسي الكامل، لا منغصات، ولا إحباطات ولا خوف من أي نوع.. ولكن ماذا يعني الطيران في فخ؟

يعني الحزن والإحباط والهزيمة، يعني غياب الحرية التي بدونها يفقد حتى الطيران معناه الرحب، يعني غياب الإرادة وإذا غابت الإرادة عن إنسان، أو عن مجتمع.. فقد غابت عنه الشمس، وأصبح للفضاء نفسه جدران عالية.

كلام الشاعر هذا يعبر عن حالتين متناقضتين توحدتا معاً، لا في نفسه وتجربته فحسب، بل في نفوسنا وفي تاريخنا كله.

هل تشعر أنك تطير، أو تجلس، أو تفكر في فخ؟

إن كثيراً من الناس يفكر في فخ، بل في فخاخ كثيرة وهو لا يدري.

-4-

حدثنا وضاح بن مزاحم عن الأور بن أذينة عن الشماخ الأزدي عن أبيه عن جده قال: سألت أبا تمام: ما معنى قولك:

«وأصرف وجهي عن بلادٍ غدا بها
لساني معقولاً وقلبي مقفلا

وجــد بــهــا قــوم ســواي فــصــادفــوا

بـهـا الـصـبـح أعـشـى والـزمـان مـغـفـلا»؟!

فالتفت إلي مغضباً وقال:

لم لا تفهم ما يقال!!

دخول الذات في الذات

-1-

في كتابه (المثقفون والبحث عن مسار) الذي تصل مضامينه إلى القارئ عبر إنشاء حماسي واضح. . يطرح الدكتور أسامة عبدالرحمن مسألة (اغتراب) المثقف.

هو لم يطرح المسألة بمعناها الفلسفي، بل طرحها وفق ثنائية «التراث والمعاصرة»، إذ يقول:

«إن نسبة كبيرة من المثقفين ربما تعاني من التيه والضياع والاغتراب، فهي لا تستطيع التوفيق بين كون التراث مركزاً أساسياً للهوية الثقافية وكون منطلقات الحضارة الجديدة تبدو في كثير من الأحيان مناقضة للتراث. . إلخ».

هذه «اللاقدرة» على الاستفادة من التراث وتجاوزه، أو حضارة الآخر ومفاهيمه الثقافية في الوقت الراهن هي التي يعيد إليها الكاتب بحماس ضياع المثقف واغترابه.

إنها مسألة شائكة، وقد تناولها قبل الدكتور أسامة، ومن بعده، مفكرون كثيرون على امتداد اللغة العربية.

يُعرّف الاغتراب فلسفياً بأنه:

«أن يفقد الإنسان حريته، واستقلاله الذاتي بتأثير الأسباب الاقتصادية والاجتماعية، ويصبح ملكاً لغيره، أو عبداً للأشياء المادية».

الاغتراب بهذا المعنى الفلسفي ليس قصوراً ذاتياً بل هو نتيجة عوائق محددة، أما طرحه وفق ثنائية التراث والمعاصرة فهو عجز، ولا قدرة، أي تحوله إلى قصور ذاتي، وهذا خلاف الواقع.

-2-

«التأدلج» يعني في ألسنتنا، وعلى أقلامنا، «التحزب» أو «التأطيف» إن صح نحت هذه الكلمة من كلمة «طائفة»، ولذا لما تم هذا الربط -ولا أعرف كيف تم- راح المثقف شيئاً فشيئاً.. يتحلل من الوفاء للمستقبل، مستقبله هو، ومستقبل مجتمعه، أي راح يتحلل من الهدف المشترك.

إنها حجة «فاقع لونها»، تقول:

أنا مبدّه فأنا إذن خارج التاريخ، خارج المجتمع، كما أنني بصورة أكيدة خارج اللغة.

هذه الحجة هي أول الهروب وآخره.

الحزبية تقتل الإبداع، هذا أكيد.

التأطيف يقتل الموضوعية. هذا أكيد. إذاً علي أن أكون وحدي، مبدعاً فقط.

هل المقدمة تؤدي إلى هذه النتيجة؟!

بمعنى أن المقدمة صحيحة، فهل النتيجة صحيحة؟ هل حين يكون الإبداع نقيضاً للتحزب والتأطيف.. هل معنى هذا أن على

المبدع أن يعود إلى ذاته، ويقفل عليه أبواب مشاعره وتصوراته وتطلعاته؟!

لا. . أبداً. . وهذا هو المأزق. النفق الذي وقع فيه مثقفونا.

السير نحو هدف إنساني أو اجتماعي ليس معناه التحزب، ولا التأطيف، ولا حتى الالتزام بوسيلة أو بأسلوب محدد.

هذا السير معناه فقط أن تكون روتين الإبداعية، لغتك، إرادتك الثقافية. . متجهة نحو هدف اجتماعي.

لا يمكن لأي مثقف أن يسير من دون مصباح، فهل من الضروري أن نسمي هذا المصباح، أدلجةً، أو تأطيفاً؟!

-3-

الهدف المشترك:

حين تنصب إرادة فئة ما نحو هدف مشترك، فهذا يعني أن هناك قناعة واحدة، أو متقاربة الملامح والتجذرات في نفوسهم جميعاً.

هنا يصبح الهدف هدفاً جمعياً. وأول ما يتطلبه الهدف الجمعي هو: الخروج من الذات إلى الآخر، فالآخر، أي إلى النهر المجتمع الكبير.

هل تملك الفئة المثقفة هذا؟

ما كنا نقرأه في الخمسينيات والستينيات من أعمال إبداعية تلمس فيه لمساً محاولة «الأنا» الأخذ بيد «نحن» إلى هدف مشترك، هدف لا يمكن إلا أن يوصف بالتوق إلى الأفضل، محاولة غرس الأشجار (بوادٍ غير ذي زرع).

لكن ماذا رأينا بعد هذا؟

بدأت الأنا تضمر، تنهزم، حتى أصبحت تلك الأنا التي نعرفها في ساحة الإبداع، لا تختلف عن تلك التي نراها في ساحة التجارة. وكل ذلك بحجة التعبير عن الذات.

وأصبحت الأعمال الإبداعية في أغلبها، لا تعكس إلا دخول الذات في الذات أكثر.. فأكثر.. أما هذا العالم الخارجي، هذا الواقع، هؤلاء الناس.. كل هذا لم يعد موجوداً إلا على صورة تأوهات ثقافية وانتقامية.

فصل المثقف عن «نحن» لم يتم بإرادته قطعاً - وأقصد بالمثقف هنا المبدع، لا كل من ملأ كفيه بحفنة من مفردات القاموس- ولكن:

هل قاوم؟

وما درجة مقاومته؟ لمن سلب إمكان أن تنقسم ذاته «في ذواتٍ كثيرة»؟

لستُ أدري.

بعد غد

أحياناً حين تشرب الماء تود أن تبطئ، تود ألا تصل إلى نهاية الماء، أو ما قد عبر عنه تعبيراً سيئاً «الصبابة».

الصبابة هذه أعتقد أنك تشمئز منها، وأنا أمد يدي إلى يدك، فنحن مشتركان في النفور منها حتى القشعريرة إلا أن أتذكر تلك الصبابة ذات اللهب الساكنة في قصائد الشعراء، تلك أتهلل لها بشراً. فكل شيء حي من الماء.

ماذا تشتهي؟

أشتهي كأس ماءٍ بارد.

هذا ما قاله الوزير في مسرحية (سوق المناخ)، نعم هو يشتهي كأس ماء بارداً ويقسم على ذلك.

البقايا عون عليك مع الموت كما ساعد الذوابل طول.

هذا بيت هارب من العصر العباسي، قرأه عليّ نصف عاقل منذ 27 عاماً، ولم أصل إلى فهمه إلا في هذه اللحظة.

جميل هو اللافهم.

أعني «لا فهم» الجمال، الجمال الشعري الذي يأخذك من يدك، ويمشي بك في حلم، أو حتى في كابوس، وجميل أن تصاب

بالصمم، وأنت ترى شفاهاً تتحرك، تقذف الكلمات، وأنت الذي تضع لحركتها معنى، أو تتخيله على الأقل.

أعترف أن تلك رغبة طفلية جامحة، ولكن ما الذي يمنعك ويمنعني ويمنعها.. من أن نعود أطفالاً ولو للحظة واحدة؟!

إنه استفهام غبي من دون شك.

الذي يمنعنا -يا ابن الكرام- هو أننا لا نستطيع نفض ما في ذاكرتنا.

قل لي: هل تستطيع أن تترك ذاكرتك في عرض البحر؟ إن أجبت بالتي يسمونها «نعم» فأنت بلا ريب طفل شبّ عن الطوق.

والذاكرة -يا سيدي- مخزنٌ واسعٌ رهيبٌ ومُظلمٌ، مخزن شاهق الجدران، لا تستطيع معاول النسيان أن تثقبها. إنها مَصبغةٌ ضخمة تترك ألوانها في إرادتنا، وفي وعينا، فإذا تمردنا، أو قاومنا، تركتها في اللاوعي.

الذاكرة هذه هي صديقنا الأوّل، وعدوّنا الأول، وعلينا أن نعرضها لضوء الشمس دائماً حتى لا تأسن.

ما لي ولهذا!! لقد نسيت بقايا الماء.

البقايا هذه مصيبة لم يستطردها الجاحظ، ولم يعاملها ابن خلدون، ولم يحترق بها أدونيس، ولم يخطر بريقها على خيال الشنفرى، إنها شيء آخر، نصفه في الذاكرة، ونصفه الآخر في اللامكان.

تُرى: أي الجزئين هو الأهم؟!

كلاهما مهم؛ الذي في الذاكرة ينسكب فيك صعداً، والذي في

اللامكان يولد فيك حنين الفصيل إلى أمه، ويبقى يومئ إليك بأن تجيء إليه.

لكن كيف تسير إليه ضارباً أكباد الإبل اليابانية وهو في اللامكان؟

هذه هي العذوبة كلها، لأن السير إلى العثور على شيء في اللامكان يهبك الأمل الناضج بأن كل مكان في جميع الجهات سينشق عنه فجأة، وهنا ينسرح أمامك حقل من الاحتمالات تقطف فيه ما تشاء من دون أن ينضب.

حدثنا كعب بن سعيد الغنوي عن صحار بن عياش العبدي عن صفوان بن ياسر عن أبيه عن جده، قال:

سمعت أبا (رئمان) وهو يزيد بن مجاشع الحميري، وكنّي بذلك لأن في قلبه مغارة كبيرة أشبه شيء بمغارة جعيتا سمعته يقول، بعد أن شرب كأس ماءٍ بارد:

هـذي الـمـكـارم لا قـعـبـان مـن لـبـن
شـيـبـاً بـمـاء فـعـادا بـعـد أبـوالا

فقلت له:

يا أبا رئمان: ما معنى «لبن» في قول شاعرنا هذا؟

فضحك طويلاً وقال: سأشرحه لك «بعد غد».

أُمّةٌ بلا أحلام

-1-

«لو كان واقعنا شخصاً لرفض أن يتمرأى في الكلمات التي نقولها عنه».

كلمة أدونيس هذه تلخّص البؤس العربي كله، لا أفقياً وحسب، بل وعمودياً كذلك.

العربي لا ينتزع الأفكار من الواقع، ثم يفحصها في ضوءٍ منهجي أو معرفي محدد، لا.. العربي يحشو الأفكار من رأسه على الواقع، وعلى هذا الواقع أن يكون متكيّفاً مع هذه الأفكار وبذا تضيع الأفكار ويضيع قبلها الواقع.

الحاضر العربي الذي يغص تناقضاً وإحباطاً وتقهقراً، لا ندرسه كما هو، لا نقرأ ما فيه في ضوء معطياته وشروطه، بل نهيل عليه الأفكار المجردة السريعة وذات الحسب والنسب، ونقف عليه كما وقف الشاعر الجاهلي على طلله.

الفرق أن الشاعر الجاهلي كان يصف الطلل كما يراه، كما هو شاخصٌ أمامه فيشبهه بالحروف الممحوّة، أو الوشم الدارس، أما نحن فنضفي على واقعنا الطللي صفات القصور الباذخة ومن دون حياء.

-2-

ما هو الواقع؟

- يُجيبُ فيشر بما مضمونه:

الواقع هو محصلة العلاقات المتشابكة بين الذات والموضوع، لا الماضية وحسب، بل المستقبلية كذلك.

والواقع لا ينحصر في الأشياء الخارجية، بل يشمل التجارب الذاتية، والأحلام، والمواطن والتنبؤات.

والواقع لا ينحصر في العالم الخارجي البحت، المستقل عن الوعي الإنساني، فالذي يوجد مستقلاً هو المادة لا الواقع.

الواقع إذاً بحسب رؤية فيشر هذه، ليس فقط مجرى الحياة اليومية بكل تعقيداته وتناحراته، بل هو ما يشمله ويشمل عالم القيم، وعالم الأحلام.

قبل عشرين عاماً كانت الأمة متخمة بالأحلام الفساح، الأحلام الخضراء.. فهل بقي من هذه الأحلام شيء الآن؟!! وهل في إمكان مخاض الحياة اليومي الحاضر أن يلدَ حُلماً ولو كان صغيراً؟!

ماذا يمكن أن يُقال في أُمّة بلا أحلام؟!!

-3-

لماذا لا يُقرأ الواقع قراءة صحيحة؟

لماذا لا ننتزع الأفكار من الواقع، بل أن ننتزع الواقع من الأفكار، أو نتخيّل ذلك؟

وقبل هذا:

هل قُرئَ الواقع الماضي قراءة صائبة؟ وماذا جرى لقارئيه؟

على امتداد الصراع الفكري في تاريخنا لا نكاد نعثر على شخص قرأ الواقع، وعبّر عنه تعبيراً صادقاً في أي حقل من الحقول من دون أن يتعرض للموت، أو يتعرض إنتاجه الفكري للحرق.

نحن أمة لسنا وحدنا في التاريخ، تاريخ القهر والاضطهاد، فكثير من الأمم حدث ويحدث لها وفيها مثل هذا، ولكن الذي يميزنا عن غيرنا من الأمم هو الاستمرار.

منذ أكثر من ألف عام وهذه الحال قائمة في ساحتنا الفكرية. يجب أن تقرأ الواقع كما هو في نفوس الناس وتصوراتهم، أي كما يشتهون، لا كما هو في نفسه، فإن قرأته وفق أبجديّته هو فلك الويل من قبل ومن بعد.

-4-

إن فهم الواقع له شروطه، وتفسيره له شروطه، وتصحيحه أو تجاوزه له شروطه.. وقليل من الأقلام التي تناولت بحث الواقع من وقف على هذه الشروط.

الواقع لا يتحرك وفق الرغبات، هذا أول شرط من شروط فهمه.

وهو لا يتحرك في اتجاهٍ واحد.

وهذا ثانيهما.

أما ثالثها فهو:

أن الواقع له منابعه الكثيرة، وأهم نبع يحدد مساره وقوّة اندفاعه هو الاقتصاد.

نعم، الاقتصاد، المال، هذا الذي صبّ الشعراء والفلاسفة والوعاظ جام غضبهم عليه.

نسيها المنذر

-1-

سلامة: أنا والله أحبك.

القس: وأنا والله أحبك.

سلامة: وأحب أن أضع فمي على فمك.

القس: وأنا والله أحب ذلك.

سلامة: فما يمنعك والموضع خال؟!

القس: يمنعني قوله تعالى ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ وأنا أكره أن تؤول خلة ما بيني وبينك إلى العداوة.

لم أذكر هذه القصة التاريخية لأكون واعظاً، أو ذارفاً لدموع التماسيح، ذكرتها فقط لأجسّد الفرق بين النظرية والتطبيق.

هناك آلافٌ تمتلئ رؤوسهم بأفكار مضيئة، وقيم نبيلة، ولكن إذا زحف الواقع، وأزف التطبيق طارت تلك الأفكار، وانهزمت تلك القيم.

كم نقرأ ونسمع ونرى أناساً يلهجون دائماً بالشرف والكرامة وحب الوطن، والتضحية من أجل الآخرين، ولكنهم حين يقفون وجهاً لوجه أمام التجربة يسقطون في الهاوية!!

سلامة كانت مطربة وجميلة وتحب القس، وهو يحبها فعلاً إلى حد أنه أصبح شاعراً غزلياً، ولكنه حين خلا معها لم يقم بأي فعل مناف للأخلاق، كان إيمانه بالقيم أكبر من حبه.

تُرى، لو كانت ليلى علوي مع عشرة قساوسة، فكم قسّاً سيصمد؟!.

-2-

وما دُمنا في حضرة الغناء، فلنستمع إلى ابن خلدون الذي يقول:

«وإذا ذكرنا الغناء فاعلم أنه يحدث في العمران، إذ توافر وتجاوز حد الضروري إلى الحاجي، ثم إلى الكمالي، وتفننوا فيه، فتحدث هذه الصناعة، لأنه لا يستدعيها إلا من فرغ من جميع حاجته الضرورية، والمهمة من المعاش والمنزل وغيره.. فلا يطلبها إلا الفارغون عن سائر أحوالهم، تفنناً في مذاهب الملذوذات».

-3-

إن تطور الحياة والسير قدماً في اكتشاف مجاهل الإنسان، لا الجغرافيا فقط، جعلت كلام ابن خلدون هذا لا يعبر إلا عن نصف الحقيقة.

كيف؟.. إن الحاجات التي وصفها ابن خلدون بالضرورية، تُرى: هل لها حجم واحد؟ أو كيفية واحدة؟ وهل الحاجات الضرورية لا تختلف بحسب الزمان والمكان؟ تماماً مثل اختلافها حسب الأشخاص داخل المجتمع، وحسب المجتمعات داخل الإطار الإنساني العام؟

إن ابن خلدون لم يكن في وسعه الشمول الذي تطرح به قضايا الإنسان في وقتنا الحاضر، والتي نسمع التعبير عنها في الصيغ الآتية:

الأمن الغذائي، الأمن الثقافي، الأمن العسكري، وأضيف: الأمن النفسي.

نعم «الأمن النفسي»، إذ لم يعد كافياً للإنسان في وقتنا الحاضر أن يأكل خبزاً، أو يسكن، أو يلبس. . لا . . بل لابد من اطمئنانه على كل هذا. . وعلى كرامته، وعلى حقه في أن يعيش حرّاً من كل قيد يعيق ممارسته الإنسانية السوية المسؤولة، أي على كل شيء يختصره تعبير «الأمن النفسي».

-4-

حدثنا الشماخ بن الأزور عن واصل بن عيينه عن حزام التغلبي عن سامي الفليح عن أبيه عن جده، قال:

كنت في سوق واقف إذ جاء شيخ طاعن في السن، يسبق بهاؤه خطاه، فاجتمع الناس من حوله، وألحّوا عليه في سماع شيء من عقله، أو نقله. عندها تنحنح وقال: أيها الناس: اسمعوا وعوا، لقد حدثني المنذر بن ماء الأرض عن المنذر بن ماء السماء عن ابن منظور أنه رأى حكيماً في سوقكم هذه، قال له: احفظ عني ثلاث خصال لن تضل ما إن حفظتها أبداً:

الأولى نسيها المنذر، والثانية نسيها ابن منظور، والثالثة نسيتها أنا!.

لقد كذبت

-1-

بعد أن فرغ زياد من خطبته البتراء قام إليه عبدالله بن الأهتم، فقال: اشهد أيها الأمير لقد أوتيت الحكمة وفصل الخطاب. فقال له زياد: لقد كذبت، ذاك نبي الله داود. قال: فقام الأحنف بن قيس وقال: إنما الثناء بعد البلاء، والحمد بعد العطاء، وإنا لن نثني حتى نبتلي، فقال له زياد: صدقت.

وقام أبو بلال مرداس بن أمية، وهو يهمس، ويقول: أنبأنا الله بغير ما قلت؛ قال الله ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ * أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ * وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ وأنت تزعم أنك تأخذ البريء بالسقيم، والمطيع بالعاصي، والمقبل بالمدبر.

فسمعها زياد، فقال: إنا لا نبلغ ما نريد فيك، وفي أصحابك حتى نخوض إليكم الباطل خوضاً.

(**البيان والتبيين** 2/ 31).

هذه ثلاثة مواقف يمكن وصفها بلغتنا الحاضرة باليمين والوسط واليسار، أي إن مثل هذه المواقف ليست من ولادة زمن واحد، ولا مكان واحد، ولست معنيّاً هنا بالوقوف على أسبابها الفلسفية والاجتماعية، بل أنا مأخوذ بحالة صغيرة واحدة من كل هذه

المواقف، هي حالة: ابن الأهتم هذا، حين قال له زياد: لقد كذبت.

تُرى، ماذا فعل بعد ذلك؟!

هل تصبب خجلاً؟ هل اشتعل غيظاً وراح ينشد:

إذا كــانــت الــمــنــيــة حــتــمــاً

فــمــن الــعــجــز أن تــعــيــش جــبــانــاً؟

هل توارى وأقسم أن يجتث من لسانه وقلبه ذلك الدغل الأسود المسمى «نفاقاً»؟ أم أنه لحقارته «بلعها وتوكل على الله»؟

أظن أنه بلعها هنيئاً مريئاً. لماذا؟

لأنه حين قالها، كان يعرف أنّه يكذب.

-2-

أحد رواد أدبنا الكبار تعرض لهذه المواقف حين يقفها الشعراء، فقد وقف على قول أحد الشعراء:

وعــلــى عــدوك يــا ابــن عــم مــحــمــد

رصــدان ضــوء الــصــبــح والأظــلام

فــإذا تــنــبــه رعــتــه وإذا غــفــا

ســلــت عــلــيــه ســيــوفــك الأحــلام

فقال ما مضمونه:

الرشيد كان يعلم أن الشاعر يكذب عليه، والشاعر يعلم أنه يكذب على الرشيد، إن كلاًّ منهما كان يستغفل الآخر، والمجتمع نفسه كان يعرف هذه اللعبة كلها، ويستمر في سماع هذا الشعر.

ابن الأهتم هذا لا نلتقي به وجهاً لوجه في الكتب وحدها، بل فيها وفي الشارع والنادي والراديو والتلفزيون وعربسات و، و.. الأمر

الذي أراحنا من تعداده من قال:

الـنـاس مـن يـلـق خـيـراً قـائـلـون لـه
مـا يـشـتـهـي ولأم الـمـخـفـق الـهـبـل

-3-

غير أن المتنبي يطرح المسألة طرحاً آخر.

المتنبي حين قال:

وما كان شعري مدحاً له   ولكنه كان هجو الورى

حين قال هذا أخرج المسألة من نطاقها الفردي إلى نطاقها الاجتماعي، جعل المسألة كلها مسؤولية الجماعة لا مسؤولية الفرد. يمكن إذاً أن ننظر إلى الشعراء السابقين بهذه النظرة التبريرية وهي أن المجتمع سدّ عليهم طرق العيش بصورة شريفة، فراحوا واقفين على الأبواب العالية، كلٌّ يعرض بضاعته حتى لنرى كثيراً ونحن نقرأ كتب التراث هذه العبارة المقيتة:

«انظر من بالباب من الشعراء».

هذا في الماضي، ونقولها على مضض، ولكن ماذا نقول لعشرات المنافقين في الحاضر؟

هل نلتمس لهم عذراً؟

لا، أبداً. فأبواب العيش في الحاضر مفتوحة لكل من أراد إليها سبيلاً، ومرّة أخرى نعود إلى المتنبي لنستمع إليه يقول:

ذل مـن يـغـبـط الـذلـيـل بـعـيـش
رب عـيـش أخـف مـنـه الـحـمـام.

عسليكم

-1-

«قيل لطفيلي: كم اثنين في اثنين؟

فقال: أربعة أرغفة.

وقال الغلاسي القصاص: كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر ثلاثمائة وستين درهماً.

ونظر زاهد إلى فاكهة في السوق، فلما لم يجد ما يبتاعها به، عزى نفسه قائلاً: يا فاكهة موعدي وإياك الجنة.

ودخل رجل على آخر يأكل اترجه بالعسل، فأراد أن يقول «السلام عليكم» فقال: عسليكم».

هذا الكلام وأكثر منه عُرياً، تجده في (البيان والتبيين) للجاحظ، وقد عدت إليه بعد سنين طويلة لألمس بيدي كلتيهما الفرق بين حالتين:

الأولى: حين قرأته أول مره، حيث دخلت في موجة من الضحك الصاخب دارت بي عدة أيام حتى ضجّت كبدي وراحت تستغيث استغاثة من يغرق.

الثاني: إني فرغت توّاً من قراءة كتاب كامل عن الطرائف في

مجتمع الأندلس، أي عن نكات ومضحكات من كل لون، ومن أول الكتاب إلى آخره لم تطرف لي شفة واحدة، حتى لكأني أصبحت تمثالاً.

لماذا يا ترى؟

أعرف أنك على أهبة التطوع للإجابة، سوف تجرد خيالك من غمده، وتشرع في سرد الأسباب:

ستقول إنه «تغير ذا الزمن المنكر»، كما قال جميل بثينة، أو تردد ما قال عمنا:

لم يترك الدهر من قلبي ولا كبدي

شيئاً تيممه عيد ولا جيد.

ولكني أقول لك، وأقسم على ذلك، بأني لا أشكو عيناً، ولا جيداً، ولم تهجرني أي بثينة يوماً ما، حتى يصبح الزمن منكراً. لا شيء من هذا على الإطلاق.

فأين إذاً ذهب الضحك؟

أكرر: أين ذهب الضحك؟

هل الضحك حالة فردية محضة، أم أن لها جانباً اجتماعياً؟

حين نعرف أن 90% من النكات العربية ذات جذر جنسي، هل يمكن أن نجرّد الضحك من جانبه الاجتماعي؟

هل هناك ما يدخل في تمييز المجتمعات أكثر من طريقة الفرح أو الضحك: مِمَّ؟ وعلامَ؟ ومتى ولماذا؟

يمكن أن يكون هناك ما يميزها، بل هناك بكل تأكيد، ولكن يبقى الضحك هو الإيماءة الأكثر تصويباً إلى أعمق ما في المجتمع من المنحنيات التي يلتقي فيها الفردي والاجتماعي وجهاً لوجه.

-2-

حين تسرح نظرك في كتب التراث أدباً وتاريخاً، تلتقي بالعبارة الآتية: «فضحك وعفا عنه».

الضحك هنا لم يعد كما قال عنه القاموس: «انبساط في بعض عضلات الوجه مصحوباً بزفير متقطع وصوت مسموع بسبب تعجب أو سرور شديد».

ولم يعد ما قال عنه برغسون: «الضحك دواء الغرور، وإذا كان الغرور داءاً اجتماعياً، فإن للضحك الذي هو دواؤه وظيفة اجتماعية أيضاً».

الضحك هنا تحت ضوء هذه العبارة «فضحك وعفا عنه» أصبح قانوناً، بكل ما في القوانين من سطوة، وحفز على الاقتناع.

إن أيّاً من الأدباء والمؤرخين لم يناقش حادثة واحدة من تلك الحوادث، لم يطرح السؤال: لماذا عفا عنه؟ وكأن الضحك نفسه أصبح سبباً علمياً قانونياً لأي تصرّف مهما كان متصفاً بالعشوائية.

-3-

حدثنا وضاح بن ميمون عن الأزرق بن أذينة عن أبيه عن جده، قال:

روى ابن سلافة عن الأعمش الغرناطي: إن الضحك ثلاثة أبواب:

1- ضحك هو مجرد ميزة للإنسان عن الحيوان، ولذا قيل: الإنسان حيوان ضاحك.

2- الضحك المقلوب، وهو الذي قيل فيه: ضحكٌ كالبكاء.

3- الضحك لا لشيء مرئي، وهذا لا يستطيعه إلا أحد ثلاثة: طفل، أو متطافل، أو مصاب بشيء لا يعرفه إلا رجل لن أذكر لكم اسمه.

لقطات موجهة

-1-

هل حدقت مرة في التلفزيون، ورأيت صورتين لإنسان ما، يفصل بينهما أربعون عاماً، أو حتى عشرون؟ وهل راقبت أحاسيسك وأنت تنظر إلى هاتين الصورتين؟

ماذا قالت لك تلك الأحاسيس؟

هل اكتفت بوصف «الزمن» بالشراسة والقسوة وانعدام الضمير؟! أم هل كفاها أن تفتح خزائن الذاكرة لتقرأ ما قيل في الزمن من حكم وأمثال وأشعار؟!

صورتان:

صورة قد «جرى في عودها الماء» كما قال أبو نواس، وضمّت «ذهباً وعطراً» كما قال بشار، وصورة أخرى أقامت بها الغصون مناحة طللية سوداء.. فماذا تريد أحاسيسك أن تبلغ من القول، أو حتى من الصراخ؟!

بالأمس على التلفزيون رأيت «صباح» -هكذا لن أجري عليها قواعد سيبويه- رأيتها منذ أن عذبتنا حين كنا مراهقين و«أوصلتنا إلى نص البير وقطعت الحبل فينا» إلى الآن، وهي مثل قصيدة هربت جميع معانيها منها وأصبحت «كومة» من الألفاظ.

إن جميع المشانق في شوق إلى رقبة الزمن ولكن كيف الإمساك به؟!

-2-

يبدو أن محاولة «شنق الزمان» قهره، وشله عن اختراق الحياة وتدميرها.. كان أمنية بشرية، عبَّر عنها كل مجتمع إنساني بطريقته الخاصة:

لقد نظر الإغريقيون الذين يسميهم هيغل بـ«سعداء التاريخ» إلى الزمان نظرة حاقدة، «.. فهو يعد عدواً للبشر، لأنه تدهور وانحدار، ولذا فإنه «يبخس قيمة العالم» كما قال هوراس الذي عبر بذلك عن ميل إغريقي إلى نسبة المثالية إلى الثبات، واعتباره أسمى قيمة من التغير»، وهذا النظرة حاولت التعبير عن نفسها في أكثر من شكل إبداعي عندهم.

نحن -العرب- لا نقل عداءً للزمن عن أي أمّة عريقة في هذا المجال.. فمنذ الشاعر:

ما أطيب العيش لو أن الفتى حجرٌ
تنبو الحوادث عنه وهو ملموم

وحتى الآن، وإلى غد.. وحقدنا على الزمن يتخذ أشكالاً عديدة.

إن ألف ليلة وليلة تعبير صريح -لا ضمني- عن محاولة قهر الزمن، أو مناصبته العداء على الأقل. ولكن حقدنا على الزمن لن يتحول إلى صراع إيجابي (ديالكتيك) لقد بقي في نطاق الأماني التي

تقدح شرراً نظرياً أو حلمياً، ولذلك نجد الزمن منتصراً على طول الخط.

إذاً، بالنسبة إلينا، ليس هناك أفضل من الحل الذي قدمته الحضارة الهندية لقهر الزمن، وهو ما سموه: «تكرار الميلاد».

فهل تود أن يتكرر ميلادك؟

-3-

يقول أحد الفلاسفة: «إن الشعور بالوجود لا يكون قوياً عن طريق الفكر المجرّد، لأن الفكر المجرّد انتزاع للنفس من تيار الوجود الحي، وانعزال في مملكة أخرى تذهب منها الحياة المتوترة الحادة، ولا يسودها فعل وحركة، بل صيغ خارجية عن الوجود لا تنبض بدمه، إنما يبلغ الشعور بالوجود أعلى درجة في حالة الفعل الباطن الذي أنشب أظفاره في الحياة المضطربة. . . إلخ».

فهل نملك نحن -العرب- مثل هذا الفعل؟

-4-

أخبرنا الحرمي، قال حدثنا الزبير، قال حدثنا أبي عن يعقوب السبيعي، قال:

دخلت بثينة على عبدالملك بن مروان، فرأى امرأة «قد عاث بها الزمن»، فقال لها: ما الذي رأى فيك جميل؟. فأدركت ما يعنيه، وقالت: «رأى فيَّ الذي رأى فيك الناس حين استخلفوك». فضحك عبدالملك حتى بدت له سن سوداء كان يسترها.

لا.. لن نتعب

-1-

على هذه الصفحة في 15/ 6/ 1995 وتحت عنوان (متى نتعب من الأحصنة والسيوف؟) كتب الدكتور هاني الراهب ما يلي:

«ماذا نقول لهذا العقل الذي لا يجيد شيئاً قدر إجادته لاجترار معانيه وصوره ومشاعره وعلاقاته؟ ألهذا يا ترى كان الجمل هو حيواننا القومي؟ إن آخر ما كتبه محمود درويش مثلاً وهو بين أفضل خمسة شعراء في الوطن العربي، كان عنوانه: لماذا تركت الحصان وحيداً.

ألم نتعب من الحصان؟ ماذا يُضيف محمود درويش على امرئ القيس؟

هل نصدق أن ستة عشر قرناً تفصل بين الشاعرين الكبيرين لم تراكم في واعيتنا الثقافية لغة للشعر، إلا تلك التي تجتر صور الحصان والسيف ولوعة العشق؟!».

رجم «العقل العربي» بأنه اجتراري، ولا يسير إلا بالقياس والتشبيه، ولا يبدع إلا على مثال سابق، وأنه «منذ عصر التدوين» يُعيد إنتاج ذاته، ويدور في حلقة مفرغة. هذه الدعاوى أو أمثالها قيلت قبل هاني الراهب، قيلت بأدلة وبراهين يستند إليها قائلوها، لا بشكل إنشائي كما فعل الراهب.

غير أن الشعر بالذات من بين النشاطات الوجدانية لم يرد في تقويم أي كاتب من الكتاب الذين رجموا العقل العربي قبل هاني الراهب.

لماذا؟

لأنه يدخل في دائرة النشاط الوجداني لا العقلي، ولأنه السياق الوحيد الذي نلمس فيه التطور الإبداعي من عصر إلى آخر، ما عدا عصور الانحطاط.

عندما يقول هاني الراهب: «ماذا يُضيف محمود درويش إلى امرئ القيس؟» لا يضعنا أمام استفهام إنكاري عابر، بل يضعنا أمام ضرورة إعادة النظر في كل تاريخنا الأدبي، والشعري منه بوجه خاص.

لماذا؟

لأنه بنى حكمه على ذكر مفردة واحدة هي «الحصان» فما دام محمود درويش ذكر الحصان فمعنى هذا أنه لا فرق بينه وبين امرئ القيس!!.

وقياساً كما هي عادة العقل العربي، فإن المتنبي ذكر الحصان، فلا فرق إذاً بينه وبين امرئ القيس، وإن أبا تمام والبحتري وقافلتهما قد ذكروا الحصان، وإذن لا فرق بينهم وبين امرئ القيس.. وهكذا.

-2-

لقد سخر النقد من أبي نواس حين قال:

قل لمن يبكي على رسم درس

واقفاً ما ضرّ لو كان جلس؟

وحين قال:

صــفــة الــطــلــول بــلاغــة الــقــدم

فــاجــعــل صــفــاتــك لابــنــة الــكــرم

سخر منه لأنه عبّرَ بذلك عن نزعة شعوبية -فأبوه حسب (بروكلمان) عربي وأمه فارسية- بل سخر منه لأنه لم يفهم أن الطلل في الشعر العربي قبله أصبح رمزاً:

أي إن الطلل لم يبق شيئاً واقعياً متشخصاً كما هو خارج الشعر، بل أصبح شيئاً آخر، أصبح فضاءً شعرياً، أو مكاناً وجدانياً، مكاناً حاضناً لعلاقات اجتماعية حارة، وذكريات تملأ الذاكرة.

الطلل الواقعي القاموسي مات، وحلّ محلّه قصر ذهني وجداني شعري يموج بالصور اسمه الطلل.

إن المفردة حين تتحول إلى رمز شعري، أو تدخل إلى الحقل الشعري، لا تبقى كما هي، إن الليل، هذا الذي نعرفه حين دخل شعر النابغة أصبح «بطيء الكواكب» وحين دخل شعر امرئ القيس أصبح «موجاً» لم يبق كما هو دقائق وثوانٍ.

وهكذا هو الحصان حين دخل شعر محمود درويش لم يبق هو ذاك المكرّ المفرّ المقبل المدبر معاً.. ذا القوائم الأربع الذي «أضر بجسمه طول الجمام»، لا، بل لقد أصبح شيئاً آخر، أصبح رمزاً يعني القوة والمجد والإصرار وكل ما يستطيع خيالك الوصول إليه من المعاني المضيئة.

-3-

في مقال الدكتور الراهب أكثر من نقطة تستدعي الوقوف عندها

طويلاً، ولكن أشدها هولاً هي الجرأة الإنشائية غير المبررة على محو الفرق بين درويش وامرئ القيس، لأنه فقط عنون ديوانه بـ (لماذا تركت الحصان وحيداً؟).

حدثنا أبو عبدالله الزوزني عن سهيل المخظومي عن الهيثم بن عدي قال: قلت لحماد الراوية يوماً: ألق عليّ ما شئت من الشعر أفسّره لك، فضحك وقال: ما معنى قول ابن مزاحم الثمالي:

تخوّف السير منها تامكاً قرداً

كما تخوف عود النبعة السفن؟

فلم أدر ما أقول.

لا تقرأ ص 97

-1-

هذا ما قرأته على أول صفحة من كتاب في مكتبة عامة، وكان أحد القرّاء (الأفذاذ) قد كتب ذلك، مقدماً نصيحةً ثمينة -حسب رأيه- لمن يقرأ الكتاب من بعده.

رأساً ذهبت إلى ص97، وإذا بها قصيدة غزلية جميلة من القرن الرابع الهجري، قصيدة تشبه حديقة صغيرة مليئة بالعصافير.

هنا خطرت الأسئلة الآتية:

لماذا تطوّع القارئ الهمام وقدم نصيحته تلك؟!

هل كان يعرف أن لدى كل إنسان شيئاً يسمونه: الفضول، أو حب المعرفة، وأن «الإنسان حريص على ما مُنع»؟!

لماذا هذا السلوك في النظر إلى الحياة وإلى وجوه الجمال فيها؟

هل كان يعتقد أن الغزل حرام؟

«قل من حرم زينة الله التي أخرجها لعباده»

والزينة ليست فقط في شكل الأشياء، وتناسق أجزائها، بل هي كذلك في مضامينها، في ذلك الذي لا تراه إلا العيون الداخلية للإنسان.

-2-

عن أيوب بن سيار عن عمر الركاء، قال:

«بينما ابن عباس في المسجد الحرام، وعنده نافع بن الأزرق وناس من الخوارج يسألونه.. إذ أقبل عمر بن أبي ربيعة -في ثوبين مصبوغين موردين- حتى دخل وجلس، فأقبل عليه ابن عباس، فقال: أنشدنا، فأنشده:

أمـن آل نـعـم أنـت غـاد فـمـبـكـر
غـداة غـد أم رائـح فـمـهـجـر

حتى أتى على آخرها. فأقبل عليه نافع بن الأزرق وقال: الله يا ابن عباس، إنا نضرب إليك أكباد الإبل من أقاصي البلاد، نسألك عن الحلال والحرام.. فتتثاقل عنا، ويأتيك غلام مترف من مترفي قريش وينشدك:

رأت رجـلاً أمـا إذا الـشـمـس عـارضـت
فـيـخـزى وأمـا بـالـعـشـي فـيـخـسـر

فقال: ليس هكذا قال.

قال: فكيف قال؟

قال:

رأت رجـلاً أمـا إذا الـشـمـس عـارضـت
فـيـضـحـي وأمـا بـالـعـشـي فـيـخـصـر

قال: ما أراك إلا قد حفظت البيت؟

قال: أجل، وإن شئت أن أنشدك القصيدة أنشدتك إياها».

-3-

عن عبدالجبار بن سعيد عن أبيه قال:

«دخلت مسجد رسول الله مع نوفل بن مساحق وإنه لمعتمد على يدي إذ مررنا بسعيد بن المسيب في مجلسه وحوله جلساؤه، فسلمنا عليه، فرد علينا، ثم قال لنوفل: يا أبا سعيد: من أشعر، صاحبنا أم صاحبكم؟

يُريد عبدالله بن قيس، أو عمرو بن ربيعة.

فقال نوفل: حين يقولان ماذا يا أبا محمد؟

قال: حين يقول صاحبنا:

يـزدن بـنـا قـربـاً فـيـزداد شـوقـنـا
إذا زاد طـول الـعـهـد والـبـعـد يـنـقـص

ويقول صاحبك ما شئت.

فقال له نوفل: صاحبكم أشعر في الغزل، وصاحبنا أكثر أفانين شعر.

فقال سعيد من المسيّب: صدقت.

فلما انقضى ما بينهما من قول الشعر، جعل سعيد يستغفر الله.

فلما انصرفنا قلت لنوفل: أتراه استغفر من إنشاد الشعر؟ فقال: كلا، ولكن أحسب ذلك للفخر بصاحبه».

-4-

قال عبدالله بن عمر العمري:

«خرجتُ حاجّاً، فرأيت امرأةً تتكلّم بكلامٍ أرفَثَت فيه، فأدنيت ناقتي منها ثم قلت لها: يا أمة الله ألست بحاجةٍ؟ أما تخافين

الله. .؟. فأسفرت عن وجهٍ يُبهر الشمس حُسناً وقالت: تأمّل يا عم فإنني من عنى العرجي بقوله:

من اللاء لم يحججن يبغين حسبة
ولكن ليقتلن البريء المغفلا.

قال: فقلت لها: إني أسأل الله ألاّ يعذب هذا الوجه في النار.

قال: وبلغ ذلك سعيد من المسيّب، فقال: أما والله لو كان من بعض ثقلاء العراق لقال لها: اغربي قبحك الله.

-5-

عن الأصمعي قال:

«كان لأبي حنيفة جارٌ يُغنّي، فكان إذا انصرف وقد سكر، يغني في غرفته، ويسمع أبو حنيفة غناءه، وكان كثيراً ما يُغنّي:

أضــاعــونــي وأيُّ فــتــىً أضــاعــوا
لــيــوم كــريــهــةٍ وســداد ثــغــر

فلقيه العسس ليلة فحبسوه، ففقد أبو حنيفة صوته تلك الليلة، فسأل عنه من غد فأخبر، فركب إلى عيسى بن موسى، وقال له: إن لي جاراً أخذه عسس البارحة، وما علمت منه إلا خيراً، فأمر عيسى بإطلاق سراح من حبسوا تلك الليلة.

فلما خرج الفتى سأله أبو حنيفة: هل أضعناك؟

قال: لا والله ولكن أحسنت وتكرّمت . .إلخ».

من أبعاد المواجهة

«لم نكبر حيث كبر أجدادنا
لم يكبروا هم حيث كبر أجدادهم
لسنا ننتمي لأي مكان
يمكننا أن ننتمي بسهولة لأي مكان
يطلب منا
إنا نعبر أصقاع الأرض
ونحب من أجل الحب
نغتصب فقط حتى نتذكر
نستمتع بالاستحواذ
نهدم القرى في الأساس
نكره اسم الفلاحين».

أمامي الآن عدد من مجلة **إبداع** القاهرية، وهو عدد مخصص للأدب الإسرائيلي تحت عنوان (ثقافة إسرائيل - دعاوى التطبيع وأبعاد المواجهة).

إنه عدد يدل على مبادرة رائدة تقوم بها تلك المجلة، والمشرفون عليها، وهم من الروّاد كذلك.

إن الاطلاع على الثقافة الإسرائيلية بكل أبعادها ضرورة تُحَتّمها

طبيعة المواجهة بين الأمّة العربية، وعلى رأسها طليعتها المثقفة، وإسرائيل.

الشاعر أحمد عبدالمعطي حجازي في بداية العدد تحت عنوان (ثقافة أمّة.. أم ثقافة أفراد؟) طرح السؤال الآتي: إذا كان الإنسان يكون في أحسن الفروض جماعات تسعى لأن تكون أمّة، فهل تتوفر في الأعمال الثقافية التي ينتجونها الشروط التي تجعل من هذه الأعمال ثقافة قومية؟.

إن قارئ العدد وهو بالضرورة لا يكفي لإصدار أي حكم من الأحكام يمكن أن يكون منطلقاً للإجابة عن تساؤل حجازي. أقول: إن قارئ العدد يعثر في قصائده على سمات مشتركة تلمّس بعضها الأستاذ رشاد عبدالله الشامي في بحثه «خطوط عريضة لاتجاهات الأدب العبري المعاصر في إسرائيل» ومن أهم هذه السمات:

انظر إلى الحرب:

«باعتبارها الخلاص من كل المشاكل التي تواجه المجتمع الإسرائيلي، والوسيلة الوحيدة لصهر الجميع في أتون النيران، وبث الإحساس بالانتماء بعد تعرض الفرد لحالة من الضياع...إلخ».

هنا أقف على هذه السمة التي لم ألمسها شخصياً في كل القصائد التي قرأت، والتي ضمها العدد، أقف لأتساءل: كيف يمكن التفكير، مجرّد التفكير، في التطبيع الثقافي مع جماعة ترى أن الحرب هي كل مقوماتها الأساسية؟!

ومع ذلك فقارئ تلك القصائد يخرج وقد اتضح له فرق هائل بين شعرنا وشعرهم.

شعرهم ليس فيه خطابة، لا عنتريات فيه، وحين يعبر عن الحس الجماعي يُعبّر عنه بشكل واقعي.

مثلاً:

القصيدة التي بدأنا بها هذه المقالة وهي بعنوان (مواطنو العالم) للشاعر يتسحاق ليثور، ليست أقل مضموناً من (عابرون في كلام عابر) لمحمود درويش. ومع ذلك فالذي قالها مستوطن إسرائيلي.

يعتقد بعض كتابنا أن الكتاب والشعراء اليهود محاطون بسور نفسي يفصلهم عن العالم، منشؤه الاعتقاد أنهم شعب الله المختار، وبذلك فأدبهم لابد أن يكون ضد الإنسان بصورة دائمة، ويقول:

«الكاتب اليهودي البارز في التاريخ الحديث هو: فرانز كافكا، وهو يمثّل المأساة المتجسدة في فراغ العالم وفوضاه، وعدم عدالته أكثر من أي شيء آخر، وهو كاتب رائع، وقد يشترك مع آخرين من غير اليهود في تلك الرسالة المدمرة، بحيث لا يمكن إرجاع أفكاره إلى يهوديته بشكل قطعي، ولكن في كل الأدب الحديث لا يوجد هذا الحجم الهائل من الكآبة واليأس، حتى صموئيل بيكت لم يصل إلى هذه الدرجة» (أحمد عباس صالح-**الشرق الأوسط** 29/ 7/ 1994).

ما الّذي تُريد الوصول إليه؟

يقول المثل القديم: إنك لا تجني من الشوك العنب.

إن شعباً يقوم بناؤه النفسي والوجداني على أنه في مرتبة أعلى من سائر البشر، ويتخذ من الحرب سياجاً دائماً للبقاء، هذا الشعب أو التجمع بالأحرى، لا يمكن أن يتدفق أدباً إنسانياً.

ولكن يبقى لمجلة **إبداع** موقفها الرائد. تحيّة لـ **إبداع** وللأصدقاء الأعزاء القائمين عليها.

كلمة كلب لا تنبح!

-1-

«يا ضناية». هل فكرت ملياً في وقع هذه الكلمة عليك حين تنطقها أم مصرية بلوعةٍ أو بغير لوعة؟

هل يصل فيك تأثيرها إلى حد أن تتمنى أن تعود طفلاً رضيعاً «إذا بكيت قبلتك أربعاً» كما يقول الشاعر الجاهلي؟

يا ولدي

يا بني

يا من ولدته

يا من تحدر من صلبي

يا من اشتركنا معاً أنا وأمه في تشريفه للدنيا

يا كبدي

يا بضعة مني

كل هذه النداءات ومثلها معها، تقف صاغرة أمام عذوبة وجمال ودفء «يا ضناية».

يعتقد بعض اللغويين أن هناك ارتباطاً غير اعتباطي بين الكلمة ومعناها. هناك علاقة سرية غامضة تربط بين اللفظ ومعناه.

أنا شخصياً لا أؤمن بهذا. إني مع ذلك الذي يقول: «إن كلمة كلب لا تنبح» ولكني أمام كلمة مثل «يا ضناية» أنسى ما أعتقده، أتيقن لا إرادياً أن بين المفردة ومعناها علاقة سرية غير اعتباطية على الإطلاق.

المفردة اللغوية لا يظهر وقعها الجمالي إلا حين تدخل في سياق، أو في جملة على الأقل.

هذا ما تعلمناه وخبرناه، وسرنا عليه.. ولكن في اللهجة المصرية وحدها تحمل بعض المفردات قوّة الجماعة. إنها تأتي وكأنها في سياق خاص تحسه ولا تراه.

هل إعجابي باللهجة المصرية يدفعني إلى هذا القول المتطرف؟! لا أدري، ولكن من يُرد التأكد من ذلك فعليه فقط أن يترُك سمعه قليلاً في نيل اللهجة المصرية.

-2-

«خمسة وخميسة في عين الشمس
من نهدها الينبوع ليه أشربك باللمس
واعطش
واموت م الجوع؟»

هذه لقطة من (براويز الأنثى) وهو ديوان باللهجة المصرية للشاعر ماجد يوسف.

اللهجة المصرية وحدها تغريك بأن تفتح أبواب سمعك كلها، فكيف بها وقد أهديت شعراً، وعلى لسان ماجد يوسف بالذات!!

يقول ناشر الديوان:

«مع ماجد يوسف نشهد انبثاق شعرية بصرية، تحيل العالم بخيالها الحركي إلى شجرة صور، ونستعير في واحدة من أكثر تجسداتها كثافة بناء الحلم، حيث تفعل الصور فعل المرايا المحطمة».

عاش هذا الشاعر معنا مدة قصيرة من الزمن، ولكنه عرف الساحة الثقافية والفكرية لدينا شبراً شبراً، بودّ من ينتمي إليها، وهذه ظاهرة من النادر أن نراها عند من يأتون إلينا ثم يرحلون. وهذا بالطبع دليل على أصالة هذا الشاعر، وانتمائه الإنساني، ذلك الانتماء الحارق المتفاعل الذي نلمسه في هذه الصورة:

«قادر تقوم من كبوتك
يا ليل حصان
من اللي صان لك قوتك
غير التاريخ، والقمح
وحقول الفزع!!».

مسيرة التعليل

- كيف قوي الوهم على أن ينقش في نفس الإنسان أوحش صورة، وأنعت شكل، وأصبح تخطيط، ولم يقو على أن يصور أحسن صوره، وألطف شكل، وأملح تخطيط؟

- إن الحُسن هو صورة تابعة لاعتدال المزاج، وصحّت مناسبات الأعضاء بعضها إلى بعض، في الشكل واللون وسائر الهيئات. وهذه حال لا يتفق اجتماع جميع أجزائها على الصحة، ولذلك لا تقوى الطبيعة نفسها على اتخاذها في الهيولى على الكمال، لأن الأسباب لا تساعد عليها. فإذا كانت الطبيعة لا تستطيع، فالوهم أعجز.

هذه فقرة من كتاب (الهوامل والشوامل) وهو من أكثر الكتب القديمة إمتاعاً، وأوضحها برهنة على الفرق الهائل بين (تعليل) الأشياء قديماً وحديثاً.

الهوامل «= الإبل السائمة» والشوامل «= الحيوانات التي تساعد على جمع تلك الإبل» والمقصود بها في الكتاب هو: الأسئلة التي يوجهها أبو حيان التوحيدي، ويشبهها بالهوامل، والأجوبة التي يجيبها (مسكويه) ويشبهها بالشوامل، وهو تعبير جميل عن جموح الأسئلة وعن قدرة الإجابة على الإحاطة بها.

لقد نقلت هذه الفقرة عامداً لا لأشك في صحة السؤال وحسب،

بل لأوضح ما في الإجابة من ضباب كثيف، فالهيولى «= المادة الأوليّة لأي شيء» تُعتبر مقولة فلسفية، معناها: «قوّة محضة» أي: ليس لها أي وجود إلا بـ«الصورة» وعلى هذا يصبح جواب مسكويه ضرباً واضحاً من الوهم.

هذا أولاً، وثانياً:

قصدت إلى إيضاح ما يدور في أذهان الناس آنذاك، وما بذلوه من جهد في التعرف إلى الظواهر الطبيعية والإنسانية، وأن هذا الجهد الضخم قد ذهب أكثره هدراً لأنه أوصل إلى مجرد تصورات ذهنية غائمة.

اقرأ -مثلاً- جواب مسكويه عن سؤال التوحيدي: «لماذا نرى البرق قبل أن نسمع الرعد؟» ترى عجباً!.

التوحيدي ومسكويه من أكثر الناس استيعاباً لثقافة عصرهما كلها. ومع ذلك نجد هذا التخبط الرهيب في تعليل الأشياء عندهما، فما بالك بالمجتمع الذي كانا يعيشان فيه بصورة عامة؟!!.

لكن تلك الأفكار التي نجدها في الكتاب والتي كانت بلا شك خلاصة جهد الفكر آنذاك في اقتحام أسرار الطبيعة، ومحاولة تعليلها، والتي أوصلتنا علميّة عصرنا إلى معرفة ما فيها من أخطاء، هذه الأفكار هل انتهت الآن؟!

لا، لم تنته.

أوغست كونت (1798-1857) الفيلسوف وعالم الاجتماع الفرنسي يعطينا رأياً لتطور الذهن البشري في (مسيرة التعليل) في ما يسميه «قانون الأطوار الثلاثة» ومفادها:

1- الطور اللاهوتي:

وهو بداية التفكير الإنساني، وفيه يعلّل الإنسان كل الظواهر بأسباب خارقة للطبيعة، وأن هناك عللاً خفية هي التي تحدث تلك الظواهر مثل ظاهرة الموت والحياة، ونمو الأشجار. . ويُسمّي تلك القوى بـ(الآلهة).

2- الطور الميتافيزيقي:

وهو الطور الذي يفتش فيه الإنسان عن العلل الأولى للظواهر الكونية، ويصل إلى أن هناك قوى غير مدركة قادرة بنفسها على إحداث تلك الظواهر.

3- الطور الوضعي:

وهو الطور الذي يكتفي فيه الإنسان بالمعرفة النسبية لعلل الظواهر، وعلاقاتها ببعضها مثل الوصول إلى قانون الجاذبية.

ويمكن تلخيص هذه المراحل بانتقال الإنسان في التعليل من المرحلة (الأسطورية) إلى مرحلة (السببية).

أعود لتكرار السؤال:

هل قطعنا نحن تلك المراحل حتى الآن؟

وأكرر الإجابة: لا، لم نقطعها.

يقول الدكتور زكي نجيب محمود مع الاختصار:

«أقيمت ندوة ثقافية كان أحد المسهمين فيها عميد لإحدى كليات العلوم. وكان السؤال المطروح: ماذا ترى في هذه الوثبة العلمية التي أوصلت الإنسان إلى القمر؟

قال عميد كلية العلوم: أعوذ بالله من هذا الشطط الذي قد يؤدي بالكون إلى الدمار. ثم تساءل قائلاً: ألا يجوز أن يهبط الصاروخ على

القمر بدفعة قوية، فإذا القمر ينحرف عن مداره فتكون الطامة على البشر!!

ويُضيف:

سئل قطب من أقطاب الطب في الأمة العربية: ما رأيك في زرع القلوب في أبدانٍ غير أبدانها؟

فاستعاذ بالله هو الآخر من شر ما سمع، مؤكداً أنها محاولات مجنونة لن تؤدي إلى شيء» (زكي نجيب محمود، **ثقافتنا في مواجهة العصر**، ص70).

مسيرة التعليل لن تنتظرنا بالطبع، إنها مسرعة، فمتى نلحق بها؟ لستُ أدري!.

... أو ليلى من الخشب

-1-

كــل يــغــنــي عــلــى لــيــلاه مــتــخــذاً

ليلى من الناس أو ليلى من الخشب.

نحن نقابل الذي يغني على ليلاه، وهي من البشر، بعاطفة حانية، نُصغي إلى غنائه بنشوة ورحابة، ونقول له ما قال أبو نواس لدعبل حين أنشد شعراً: «أحسنتَ ملء فيك، وملء أسماعنا».

لكن ماذا نصنع، أو نقول، لمن يغني على ليلاه، وهي من الخشب؟! هل نقول له: من أي غابة أتيت بهذا الخشب الأنثوي الصقيل؟! أم نقول له: ثكلتك أمك؟!

تُرى: أنت هل عندك ليلى من الخشب أم من الناس؟! وهل تغني عليها أم لها؟!

-2-

وإذا كان هناك هذا التقسيم لليلى، فلماذا لا يكون هناك تقسيم لقيس، فيصبح عندنا قيس من الناس، وقيس من الخشب، قيس من الطين، وقيس من ماء المطر؟! وأعتقد أنه موجود..

كيف؟

حين تريد الكلام معه عليك أن تضع على فمك ابتسامة بيضاء، وتغض من طرفك قليلاً، ولا بأس أن ترش على هيئتك تواضعاً طاهراً وباطناً. ولا تنتظر منه أن يكلمك سريعاً، فهو سيغرس عينيه في الأفق البعيد، وينادي ذاكرته، ثم يتفضل على اللغة أن يأخذ منها بضع كلمات (فاقعة) يوجهها إليك بسكينة ووقار. إنه المثقف في هذه الأيام. إنه قيس المفاهيم والنظريات.

إن مثقفاً عالماً مثل الجاحظ كان يجلس في السوق مع الحمارين والحمالين والبرصان، ولكن مثقفنا في الوقت الحاضر يرى في دخول السوق عاراً، ويرى في محادثة (الدهماء) -كما يُسمى عباد الله الآخرين- إهانة كبيرة، إنه قد صيغ من لؤلؤ كما صيغ قيس من القمر، وعليه ألا يكلم غير اللؤلؤ.

إن مثقفنا الآن يلعن جد إيليا أبي ماضي، لأنه قال:

يا أخي لا تمل بوجهك عني

ما أنا فحمة ولا أنت فرقد.

-3-

«هل أنت واقعي؟ هل أنت مستعد لأن تصبح واقعياً؟ في حالة الإجابة بالإيجاب سوف يعتنون بأمرك، وسوف يتكرم المستقبل بالابتسام لك، وأيّاً كان ما تفعل، وفي أيّ روح تفعله.. سوف يبقى لك وجه احتياطي، بوابة يمكن اجتيازها لإنزال كلمات بارعة، أو بطولية للنجاة في حالة التعرض للغرق». (جورج حنين، مجلة **القاهرة**، 95).

هناك من المثقفين من له دائماً وجهٌ احتياطي، يعرضه في وقت الانفلات من القيم، مصبوغاً بالواقعية، مغسولاً ومعطراً بالجمل المفيدة ذات الرنين الصاخب. الوجه الاحتياطي هذا موجود في كل زمان ومكان، ولكنه في الوقت الحاضر أخذ يلبس أصباغاً وأقنعةً عديدة، أحدها، وأكثرها غدراً قناع «الواقعية».

الواقعية هنا أصبحت تبريراً للكذب والتهريج، أصبحت سُلّماً مرمرياً جميلاً يقود في النهاية إلى: «اللاواقعية» ولكن في خسة وغدر. جورج حنين قال هذا الكلام عام 1944 تُرى: ماذا سيقول الآن في قيسنا المثقف الذي يرفل بالواقعية؟!

-4-

منذ زمنٍ وأنا أُكثر الكتابة عن «المثقف» ما هو تعريفه؟ ما هي مهمته؟ كيف يفترض أن يكون عليه سلوكه الأخلاقي؟ كيف وكيف..؟ الموضوع يؤرقني فعلاً. وأعتقد أنه يؤرق كثيرين غيري. لماذا؟

لأن المثقف مثل أي شيء في ظل «النظام العالمي الجديد»، دخل في متاهة «اللاتحديد» وتخلى عن أن يكون «ضميراً».

المثقف في هذه الأيام راح يبحث عن المبررات، مبررات شتى، ومن كل الاتجاهات النظرية ليجعل منها جسراً يوصله إلى ما يريد، لا ما يجب عليه. وأخذ يحتضن اللغة، لا ليجعلها سلّماً واصلاً بينه وبين الآخرين، ليجعلها «علاقة» ذات حرارة إنسانية، بل ليجعل منها سوراً يحمي ذاته من سطوة ذاكرته، تلك الذاكرة التي تختزن صفّاً طويلاً من المسلّمات، أولها نكران الذات.

-5-

هموم المثقفين:

(هموم المثقفين) عنوان كتاب للدكتور زكي نجيب محمود. عدّد فيه بأسلوبه الفلسفي الأدبي الهادئ بعض الهموم التي كانت تؤرقه. يقول عن بعض هذه الهموم: «إني أتهم حياتنا الفكرية الراهنة بكثير من الزيف.. والزيف الذي أعنيه هو: أننا نستحل لأنفسنا أن نتحدث -وفي حماس شديد الاشتعال- عما لا نعرفه مباشرة.. ولا يقتصر هذا الزيف الفكري فينا على أمور توافه، بل إنه يتناول أضخم المسائل الحضارية التي يترتب على رأينا فيها توجيه الحياة كلها في هذا الاتجاه أو ذاك..إلخ». هل ما يقوله هذا المفكر غريب؟ لا، ليس غريباً، إنه واقع. ضع في ذهنك أن ترصد هؤلاء الذين يتكلمون، في أمور الفكر، وشؤون العقل، فستجد أن أكثرهم لا علاقة له بما يقول. أن يقول الإنسان ما لا يفقه، ذلك لا يكون خطراً عليه. الخطر على سامعيه، لأنه يغرس فيهم «وعياً زائفاً» يصعب علاجه.

التعريف الغامض

-1-

من هو الإنسان؟

لا أحد يُطرح عليه هذا السؤال فلا يهرول إلى الإجابة فوراً عليه، ذلك لأنه سؤال طرحته كل العصور، ثم أجابت عليه، ولابد أن يكون في كل ذاكرة صدى (تليد) من تلك الأجوبة.

الإنسان حيوان ضاحك، أو هو الذي يتذكر، أو هو الذي يتخيل، أو هو القارة التي لم تكتشف. . .إلخ.

تلك شرذمة من تعريفات الإنسان، ولكننا حين نذهب إلى أكثرها تجذراً في التاريخ وهو «الإنسان حيوان ناطق» ثم نقف لنسأل: كيف أصبح الإنسان ناطقاً؟

تُرى بماذا سوف نجيب؟

هنا ستتعدد الاجابات: فهذا سيقول: إنها الفطرة. وذاك سيقول: الإلهام. وذاك سيقول: الحاجة. فماذا سنختار من هذه الأجوبة؟.

وهنا سيتقدم سؤال آخر:

هل يمكن وجود إنسان من دون مجتمع؟

لقد أجاب ابن طفيل عن ذلك جواباً خيالياً -مهما كان الجذر

الناسني الذي انطلق منه- أما أنا وأنت والثالثة، أي الذي لا علاقة لهم بالخيال، أو الناسنة، فنجزم أن الإنسان لا يمكن وجوده كإنسان خارج المجتمع.

وعليه:

فإن اللغة ظاهرة اجتماعية، أي إن النطق نفسه ظاهرة اجتماعية، ولدتها الحاجة إلى (المعاش) كما يقول ابن خلدون.

الإنسان إذاً كائن اجتماعي.

-2-

من هنا جاءت المطالبة بحريته.

فهو لكي يبادر، لكي يفجّر أعمق ما لديه من ينابيع.. يجب أن يكون حُرّاً، لأن حريته هي الوحيدة التي تجعل لعمله مفهوماً إنسانياً.

ومن هنا -كذلك- جاءت المطالبة بتكبيل حريته، إذ كيف يمكن أن تتدفق الحياة نحو الأفضل إذا كان لكل فرد مطلق الحرية في أن يحفر لها مجرى على هواه؟

إن في هذا نكراناً لأن يكون الإنسان ذا شرور، وذا نزعات عدوانية فردية لابد من لجمها.

الذين درسوا السلوك البشري بدقة علمية يعرفون أن الإنسان أكثر ميلاً إلى الصفات الدنيئة الهابطة منه إلى الصفات العالية النبيلة.

الصفات النبيلة تحتاج إلى كفاح نفسي دائم، أما الصفات السوداء فلا تحتاج إلى جهد، إنها تنساب وحدها دون دفع، وتنبت فيها المخالب والأظفار والنزعات العدوانية دون بذل أي رعاية.

يقول المثل:

«اربط الحمار مع الفرس، فإن لم يتعلم من جريه، تعلم من خلقه».

إن هذا مثل غير صحيح؛ عندما نربط حصاناً إلى جانب حمار، فإن البداهة تقول: إن صفات الحمار ستغزو بصورة عفوية نفسية الحصان، فيتحول بعد فترة قصيرة إلى حمار، أو (متحمر) لأن هذا هو سياق الأشياء.

-3-

حدثنا يزيد بن أبان عن أبي سعيد الأنباري عن أبيه قال:

كُنّا جلوساً عند أبي خلدون، فدخل علينا الجاحظ فقمنا له تبجيلاً، وبعد أن استقر به المجلس تقدم إليه غياث بن مطيع قائلاً:

يا أبا عثمان: ما رأيك في أبي يوسف الكندي؟.

فتبسم وقال: لقد ذكرته في كتاب (البخلاء) ويعلم الله أنني لا أُنكر عليه فضلاً، ولم أزيّف واقعاً. ولقد أساء إلي من قال:

وصاغ منه أبو عثمان مهزلة
لها على شفة الأيام ترديد.

فقال له غياث: لم أسألك عن هذا، إنما أسالك عن مقالة نسبت إليه وهي قوله: (في الإنسان قولان).

فأجاب الجاحظ: نعم، في زماننا هذا، في الإنسان قولان!.

الحريق الأنيق

-1-

«اللغة لم تكن قط محايدة والكلمة الواحدة قد تستخدم في مجال يحمل كل معاني الجديّة، وأحياناً تصبح من كثرة استخدامها في غير موضعها تحمل لدى الناس كل معاني السخرية.

والكلمة في مجال قد يكون لها وزن الذهب، وقد يكون لها وزن الريشة.

ولعل سخاء اللغة العربية هو الذي دفعنا نحن العرب إلى الانفاق في هذه اللغة بإسرافٍ شديد؛ فالكلمة الواحدة لها عشرات المترادفات، وإذا ألقينا كلمة في أتون الأحداث، واحترقت من فرط تكرارها، دون معنى مقصود، فاللغة تسعفنا بعشرات المترادفات، فنحن لا نخشى عجزاً ما في هذا النوع من العملة».

هذا ما قاله أحمد بهاء الدين في كتابه (شرعية السلطة في العالم العربي-ص84) حين ناقش معنى كلمات: «الموضوعية، العقلانية، الواقعية».

ليس جديداً هذا الكلام في إطاره العام، ذلك لأن الحديث عن اللغة ذو إغراء جارف، وقد تناولته الأقلام، ولا تزال. لكن الجديد

فيه هو تلك الزاوية الصغيرة التي تناول فيها كيفية «احتراق» الكلمات في اللغة العربية، لا بفعل التطور الاجتماعي، ولا بفعل الإضافات الإبداعية، بل بفعل سوء الاستعمال وحده.

أحد الذين يملكون ناصية الإنشاء الرشيق تعرَّضَ لهذه المقولة قبل أحمد بهاء الدين. إن له فيها كتاباً ضخماً يصوّر فيه احتراق اللغة، لا بعض كلماتها وحسب، الأمر الذي لا يمكن تخيله، إلا على صعيد الإنشاء ذي الحماسة المشهورة، فهو يقول -مثلاً- عن المتنبي:

«كان تأكيداً رهيباً لبعد الحضيض الذي يمكن أن تهبط إليه كرامة الإنسان وحياؤه وتهذيبه. .إلخ» (العرب ظاهرة صوتية، ص533).

دعنا الآن من كل هذا. . لنضيق مجال الحديث ونحدق فقط في ما يلي:

في قانون حمورابي كانت كلمة «كاذب» تُعد عقاباً، تماماً مثل الإعدام في زماننا هذا.

كيف إذاً تغيّرت مواقف الناس؟ هل صدفة أن صار كل «شيء» لا كل فرد وحسب، أصبح أو صار يكذب؟

نعم، أقول كل «شيء» لا كل فرد، لأن الإنسان لم يكفه أن يكون كاذباً على غيره، وعلى نفسه، بل تمادى، وتوغل إلى أن جعل الأشياء نفسها تكذب.

هذه الدعايات المنحدرة انحدار السيل من الإذاعات المسموعة والمرئية. . أليست هي الأداة التي تُحيل الأشياء إلى أشياء مفعمة بالكذب؟! وهذه الإعلانات في الصحف، أليست هي الدرس الأول في تلقين الكذب؟! وهذا الرضا المطلق عن كل هذا، أليس اعترافاً بأن الكذب قد خلع ثيابه، وتجمّل وأصبح صدقاً أبيض؟!

-2-

لا أريد الاستمرار في هذا، فأمامي الآن عشرات الكلمات التي يتصاعد الدخان من أجسادها، وعشرات أخرى على وشك أن يصيبها اللهب.

ولكن هناك إجماعاً رائعاً لكل المؤكدات على كلمة واحدة، وأنها لن تحترق أبداً. . هذه الكلمة -وأنا أتكلم في محيط اجتماعي صرف- هي الإنسان.

لقد احترق كثير من المفردات، بل كثير من الصور البلاغية التي كانت في زمان ولادتها ذات رشاقة آسرة، ولكن مفردة عصية على الاحتراق بقيت وستبقى هي الإنسان، الإنسان ذو القيم النبيلة الهادفة.

-3-

حدثنا زيد بن جندب عن عمرو المنقري عن خداش بن لبيد عن أبيه عن جده قال:

كنا في مجلس أبي فراس النهشلي (الأعمى) فذكر الكميت بن زيد الأسدي، فقال المرقش بن سلامة -وكان حاضراً- واصفاً الكميت: كان -والده- لا يهاب حتى يهاب السيل، ولا يعطش حتى يعطش البعير.

فانتفض الأزرق بن عيينة، وكأنما لدغته أفعى، وقال: ما هذا يا ابن سلامة!! أتظن أننا من جرامقة الكوفة، حتى تنزلق أبصارنا بمثل هذا القول؟! هل هناك إنسان لا يهاب مثل السيل، ولا يعطش مثل البعير؟!!

فأجاب ابن سلامة مغضباً: هوِّن عليك، فما خفي أعظم.

فضاء دلالي أزرق

-1-

النار فاكهة الشتاء، فإن
تجد ذا عفّة فلِعلّة لا يظلم.

هذا بيت شعري «كامل الأوصاف» يرضى عنه ابن قتيبة، وابن رشيق، وقبلهم الخليل بن أحمد، وبعدهم النقد الحديث، لأنه سيجد في «تداخل» النصوص، أو «التناصص» كما يسميه أحد النقاد، حقلاً خصباً لتجربة كل أساليب الإنشاء.

البيت هذا لو تكلم عنه ناقد مبتدئ من هؤلاء الذين يركضون في الساحة الآن، ذهاباً وإياباً، أفقياً وعمودياً، تُرى: ماذا سيقول فيه وعنه؟!

سيقول عنه: إنه خلاف السائد، إنه خروج على المنطقية الذهنية التي أصدأت الشعر العربي منذ امرئ القيس حتى محمود درويش مروراً بالسيّاب. إنه صدمة للذوق الإثني الذي ورثناه، وهذه هي روعته الأولى.

أما الثانية فهي الموسيقى «الداخلية» الهادرة في حنايا المفردات التي خلعت قاموسيتها، وأصبحت طيوراً بيضاء هائمة في فضاء دلالي أزرق.

وسيقول:

إن الصورة السوريالية التي تشع في أرجاء البيت وغرفه وساحاته أبلغ من أن نتحدث عن روعتها، ألا تشعر بتلك الهزة التي تخلفها فيك قراءة البيت أو «شعريته» التي جمعت بين النار والظلم؟ وهكذا سيستمر ناقدنا المغوار في رصف الكلمات ذات البريق الزائف.

-2-

يقولون: النقد إبداع ثان مواز للنص. ويقولون: هو قراءة ما سكت عنه النص. ويقولون: هو تحليل النص والتعرف إلى العناصر المكونة له، والوصول إلى حكم أو وصف. كل هذه الأقوال صحيح، ولكن أن يكون النقد إنشاء، أن يكون غائباً حتى عن النص نفسه، فهذا معناه اللانقد. إنه تهويم لغوي وحسب.

-3-

ذكر الأصمعي رجلاً فقال: «كان يسمع فيعي غير ما يسمع، ويكتب غير ما وعى، ويقرأ في الكتاب غير ما هو فيه». تُرى: لماذا يقرأون في كتاب غير ما هو فيه؟! وكم -وهذا هو الأهم- الذين يكتبون غير ما يعون؟!

كل الأعذار ننثرها على رأس من يكتب ما يعرفه حتى لو كان خطأ، حتى لو اختلفنا معه أشد وأوسع الاختلاف. نعم، سننثر عليه كل الأعذار مثل نثر الـ«حامض حلو» على رأس طل، ولكن ما رأيك في من يكتب ما يعرف أنه خطأ، ثم يُصر عليه متخذاً من الإنشاء مطية سهلة؟!

نعم.. ما هو رأيك في هذا؟! ستقول: إنه كاذب، ثم تسكت، لكن هذا لا يكفي، لأن هذا الكذب لم يبق مجرّد كذب فردي، لقد اشترك فيه كثيرون، اشترك فيه ناشر المجلة، وبائعها، وقراؤها، في سلسلةٍ طويلة من التلوث الفكري.

الذين يقسمون الكذب تقسيماً عنصرياً، أي إلى كذب أبيض وكذب أسود، هؤلاء كيف يسمح لهم بالوصول إلى حقل الكتابة؟ لأن الكتابة عناق مقدس بين الكاتب ولحظة إنسانية ما، لا يمكن عناقها إلى بالكتابة. الكتابة وعي، وتعميم لهذا الوعي، مسؤولية ودعوة للمشاركة في هذه المسؤولية. أمّا هذا الهراء الذي يسببه بكاء المطلقات فهو كذب، كذب على النفس، وعلى الناشر، ووسيلة النشر، وعلى القارئ الذي ليس بين يديه سوى أن ينشد بحرارة مُرّة:

يا طرطري تطرطري تقدمي تأخري
حجراً في حجر فاغمضي عينيك في
صبر، ولا تفسري.

-4-

حدّثنا أبو الفضل الرياشي عن صوحان المدائني عن حريب بن فانك النيساموري، عن أبيه عن جده قال: اللغة بحر من البحار يأتيه الناس جميعاً، فهذا يستخرج منه لؤلؤاً، وذاك يستخرج منه سمكاً، والثالث يستخرج طيناً. والشاهد على ذلك هو ابن ميادة الكاتب، فهذا لو وقف في وسط البحر لاستحال البحر إلى وحل خالص. قال هذا، وكان حفيد ابن ميادة ويسمى الأشرس حاضراً، فما كان منه إلا أن

انتفض انتفاضة الأسد الهصور قائلاً: كذب والله جد حريب، لقد كان جدي يتدفق كالنهر، وليس كمن يقول:

أبـيـتُ بـأبـواب الـقـوافـي كـأنـمـا
أُصـادي بـهـا سـربـاً مـن الـوحـش نـزعـا.

آهٍ يا للقدر، كيف يتقن صوغ الرماد؟!

ماذا تستطيع ذاكرتك أن تحتضن من صور الكويت؟

لقد احتل حمود البغيلي نصفها، فما هي قدرة النصف الآخر على احتضان جميع الصعاليك المشتملين بعباءة سليمان الفليج، ثم ما هي قدرته على أن يُفرد لنا محاطاً بالأزهار والنوار لسعاد الصباح وسعدية مفرح ووليد الرجيب وسائر أبيات القصيدة البشرية الطويلة التي تهجيتها بقلبك مثل معلقة أو سمفونية؟!

لقد ضيعت الغطرسة الجاهلية علينا زمناً طويلاً قبل أن نحس بضرورة أن تكون قلوبنا بلا أبواب، ومشاعرنا دون مواعيد.

دعنا من التدفق الشعري الآن، وقف على إحدى الصور الباسقة التي خرجت بها من الكويت، خذ صورة حضورك مجلس الأمّة!.

كنتَ تشك في عينيك، وفي أذنيك، وتسأل نفسك بعفويّة من عاد طفلاً حتى أصبحت الأحلام تعبر قلبه بهذا الصفاء.

هل صحيح أنك أدرت ظهرك لكهف أفلاطون، وراحت مشاعرك تعدو مثل خيول حاسمة تعدو على الماء حيث كان البحر مشغولاً بصوغ لؤلؤ الأعماق؟

كان الحزن الشقيق المغطى بإباء عربي لا انكسار فيه يحتل وجه

الكويت وكانت أكثر القلوب قدرة على صُنع الأحلام الكبيرة تنزف من الداخل، وبصمت موجع.

كانت الطيور في حيرة حارقة؛ هل تغير مسارها الذي جلس فيه التاريخ كله، أم تبقى في أفقها الجميل الذي ضرّجته بالدم والجراح رماح الطغيان؟

الصخور لها صمتها الأزلي البليغ
تدافع فيه عن القهر
عن أن تقول لها الريح: هيا
فركّب لعينيك صاريتين
خُض بحرك الحجري البليغ
أو ترجّل وناد:
خذيني إلى الموت وجهاً لوجه
وظهراً لظهر
فأنا أكره الموت حتى الممات
هات ما عند فيروز
هات القدود الرشيقة شاغفها الليل
هات المفازات
واقرأ على المطر
حين يهطل فوق الكويت
آهٍ يا للقدر
كيف يتقن صوغ الرماد؟

أليست هذه مجزرة؟!

ماذا تعني كلمة «مفهوم»؟

يقول القاموس:

«المفهوم هو المعنى الذي تستدعيه كلمة ما في ذهن الإنسان غير معناها الأصلي، وذلك لتجربة فردية أو جماعية، كما إذا ذكر اسم شارع ما، فإنه قد يذكر المرء بشيء يكرهه، أو يحبه.. له ارتباط بهذا الشارع».

تراكم المعاني وتعددها لتجربة فردية أو جماعية هو المناخ الذي يتولد فيه (المفهوم) وكلما كان هذا التراكم كبيراً، وذا مسارٍ تاريخي طويل.. كلما كان ذلك، كان المفهوم أكثر تعقيداً.

خذ -مثلاً- مفهوم التربية:

هذا المفهوم بالمعاني التي يحملها الآن لم يولد دفعةً واحدة، بل هو مثل الشجرة التي غرست منذ بداية التاريخ الإنساني، ولا تزال الأجيال تسقيها، وتهذب من أغصانها، لتنمو فيها أغصان أخرى.

ومن صفات المفاهيم الأساسية أنها تهاجر من حضارة إنسانية إلى حضارة إنسانية أخرى.

خذ -مثلاً- مفهوم الطفولة:

لقد هاجر هذا المفهوم مثل غيره من عشرات المفاهيم الحديثة

من أوروبا إلى مختلف جهات الأرض. لكن المفهوم حين يهاجر تجري عليه تحولات عديدة.

إن ألوانه تتغيّر، ويتبدل نظامه الغذائي، فيكبر أو يصغر حسب شروطه الحضارية الجديدة، وحسب كميّة الهواء والشمس التي تُعطى له.

لكل مفهوم إذن تطوره وفق شروط الحضارة التي ولد في أحضانها، لذا لابد من احترام تلك الشروط في استخدامنا اللغوي للمفهوم، وإلا جردناه من مقوّماته الذاتية.

لكن ماذا يحدث في ساحة استخدامنا -نحن العرب- للمفاهيم؟ هل نحترم ميلادها وتطورها وشروطها؟ لا أعتقد ذلك.

إن من يُلقي نظرة ولو كانت سريعة على كيفية استخدامنا للمفاهيم، يُصابُ بالذعر.. إنه ليس استخداماً بل مجزرة.

خذ -مثلاً- مفهوم الحداثة:

الحداثة مفهومٌ وُلد في ساحتنا النقدية قبل أكثر من ألف عام، غير أننا لم نستلهمه ونطوره من تاريخنا، بل انتظرنا هجرته من الغرب، وحين أخذناه رحنا نستخدمه دون تحديد، وبفوضى فكرية ونقدية مرعبة، وانقسمنا حوله: بين من يراه كُفراً وبدعة، ومن يراه مفهوماً بليغ الشيخوخة، ولابد من تجاوزه إلى «ما بعد الحداثة» وكأننا قد أنجزنا ما يعنيه بكل أبعاده.

أليست هذه مجزرة؟!

ولكن من الوجوه الجميلة لعصرنا الحاضر أنه وضع بين يدي أي فرد يود التفكير إمكان اقتحام أي مفهوم من المفاهيم ذات المهابة التاريخية.

وضع بين يديه المناهج العديدة، وحفريات التاريخ، والمقارنات، وكمّاً هائلاً من المعلومات المتماسكة حيناً، والمتناثرة حيناً آخر.

خذ -مثلاً- مفهوم الفلسفة:

كان هذا المفهوم يُصير الفزع قبل هذا العصر، أمّا حين جاء عصرنا فقد أخذ مفهوم الفلسفة ينزع عن وجهه الأقنعة التي ألبستها إياه قرون سحيقة كانت الفلسفة فيها تتغذّى بالتفكير الخالص.

لقد أصبحت الفلسفة مثل جسم عروة بن الورد، ينقسم في أجسامٍ كثيرة، فكل علم وكل فن فله فلسفته الخاصة، وأصبحت الفلسفةً ببساطة، كما عبر أحد فرسانها وهو هيغل:

«الفلسفة عصرها مُعبَّراً عنه بالأفكار».

هل تستطيع أن تفصل الفلسفة عن علم الاقتصاد أو علم النفس، أو حتى النقد الأدبي، ومراحل التطور في التعبير الوجداني؟!

لا، أبداً.. أنت لا تستطيع، ولا غيرك.

قُل لقلبك

قل لقلبك: أن يجهض النار فيه
ويُري الذي قد تبقى من الأجنحة
فوق هاوية لا قرار لها
قل لقلبك أن يستفيق مساءً
ويحتضن الأنهر المقفلة
وتأوي إليه الرياح
بكل مفاتيحها المذهلة
تعال هنا
إن غرناطة الآن تهرب من دمها
وتنهل أجنحة
فوق هاوية لا قرار لها
قل لقلبك
نبضاً أقل، وشعراً أقل، و(ورداً أقل)
لا تكن واسعاً
مثل عينين لما تزل بهما صبوات الطفولة
وانبهاراتها

تفتح أجمل مما يفتحه الماء
أنت هنا فوق هاوية لا قرار لها
قل لقلبك:
أن يستريح إلى جثث
ويقيم طلولاً جديدة
طلولاً بها ثمر ونساء
طلولاً يقيم عليها الغزل عكاظاً جديداً في ***mbc***
قل لقلبك تحت الرماد
أما زلت حيّاً؟!.

مقالات الحياة اللندنية

(كلمات مائية)

2001-1998

في البدء

هذا العنوان الثابت (كلمات مائية) رفيق قديم، رفيق يغري صمته اللغة، فتتمايل في بعضها، وكأن أبا نواس قد فرغ تواً من مسامرتها حتى تنفس الفجر.

لقد تصور محمود درويش أن النيل تمثال من الماء ونحتت الشاعرة فوزية أبو خالد تمثالها من الماء، وكثيرة هي الأساطير التي جعلت الماء «معبداً» حتى أصبح المشي عليه سهلاً. ولكن أن تصبح اللغة ماء، فهذا هو الذي يجعل لك أجنحة، لا تدري إلى أين تطير!!

ما الذي يشدني إلى هذا العنوان الرفيق؟

هل هو الانحراف؟

«يقول البلاغيون الجدد - حسب الناقد صلاح فضل - إن إسناد النعوت التي تتمتع بنسبة واضحة من «الانحراف» أو «عدم المناسبة» قياساً على الاستخدام النحوي المألوف في العبارة النثرية - يعد المدرج الأول للتخيل الشعري»

هل نحن في مدرج شعري؟

يبدو كذلك.

إن الشعر والنثر يحتاجان «اليوم» إلى تعريفين جديدين، إذ لم يعد تداخل الألوان الأدبية كافياً لزعزعة ما ثبت في نفوسنا عنهما «كما

ثبتت في الراحتين الأصابع» حتى لو سقطت كل «الظواهر المفردة» كما يسميها كمال أبو ديب.

حين وردتني الدعوة الكريمة من **الحياة** إلى الانضمام إلى قافلة كتابها، كان هذا العنوان مولوداً قبل ذلك بزمن عميق. وعلى الرغم من العناوين الكثيرة التي تقافزت أمامي، كان هو الذي يتقدم ضاحكاً.

هل تعلم لماذا؟

البئر المستحيلة

وقف يوسف الخال باكياً على البئر المهجورة، ولا أدري «ما ضر لو كان جلس؟» أما الشاعر شوقي عبدالأمير فقد وقف وقفة أخرى:

«- ماذا تحفر في الجسد؟

- بئراً.

- وفي الأرض؟

- بئراً.

- وفي اللغة؟

- بئراً.

- ومتى تكف؟

- عندما أرى البئر في المرآة . . .»

شوقي عبدالأمير يريد أن يتحول إلى ماء، بعد أن حاول في الأرض وفي اللغة، أي ليحيلنا نحن إلى ماء.

كل مثقف، قبل أن يشن علي حرب غارته الباردة على المثقفين، وبعدها، يود أن تتحول البشرية إلى ماء. ماء عذب، تضحك من حوله الحقول، وتجرد الأطيار أجنحتها من الخوف.

ليس مهماً أن يستطيع أو لا يستطيع. المهم هو (ألا يكف) كما فعل شوقي عبدالأمير. نعم هو هذا كل ما يراد من المثقف (ألا يكف)

وفي هذا حزنه وفرحه. فيه حياته وموته معاً. فيه بئره المستحيلة. استحالة القبض على طائر تراه أمامك، وأنت في قفص.

أجل لقد أصبح المثقف في قفص.

هل رأيت ماء في قفص؟

إنه المثقف في هذا الزمان «المغفل» كما قال أبو تمام.

ترى ما هو قفص المثقف؟

هذا ما قد نتكلم عليه.

(معادلة)

لماذا أصبح المثقف في قفص أو أقفاص؟

يقول الشاعر سعد الهمزاني:

«مسافة الظلام
بين شرقي المدينة وشماليها
أقل من واحد
على
حافر فرس بيضاء
مهلاً
تلك الفرس البيضاء
ماتت
وإذن
ظلام المسافة
بين شمالي المدينة وشرقيها
أكثر من واحد
على حافر فرس ميتة»

هل لمست قسوة «المعادلة؟» لقد كان الشاعر «المثقف» يظن بأن الفرس متأهبة «لقد أضر بجسمها طول الجمام» كما قال عمنا، وها هي تتكشف عن موت مطلق.

تخيل الفرس كما تشاء: الإرادة الاجتماعية، الحلم الجمعي، الأمة، القيم المحركة للسلوك. هذه الفرس ماتت.

ومن هنا أصبح المثقف في قفص حزنه. قفص اليأس العام، وأصبحت «مسافة الظلام» في عرسها الدائم، وادعة مطمئنة، لقد «شدت بذيل».

ومع ذلك، فالمثقف، حين يكون نقياً، يبقى فارداً جناحيه، مهما تراكمت الأقفاص.

المسألة ليست صعبة. دعنا نعود إلى «المدرج الشعري» تاركين للخيال زمامه، فهناك سنشاهد طائراً من الماء في قفص، وأن هذا الطائر لا تكف أجنحته عن الحركة. الأمر الذي سيغري القفص في النهاية أن يتحول إلى جزء من الأجنحة.

- هل أنت تحلم؟
- لم لا.

المواعيد

«أنا الغني وأموالي المواعيد»

يبدو أن هذا هو قدر الذي يتجاوز نفسه، بعد أن يتجاوز ركوده الاجتماعي.

المواعيد ليست فقط تلك التي وهبها - مشكوراً - كافور للمتنبي، والتي حمد بشارة الخوري ربه على أنها لم تتحول من سراب إلى ماء، بل هي كل ما تعدك به النظريات والآراء، وحتى المجتمعات.

النظريات تعطي مواعيد
والفلسفات تعطي مواعيد
والوعاظ يعطون مواعيد
والمعشوقون يعطون مواعيد
والحكومات تعطي مواعيد
والمواعيد تعطي مواعيد
ولكن أين هي؟!

نحن نعيش منذ قرون سحيقة في حدائق من مواعيد. كل من صعد المنبر يفرش حديقة من مواعيد، ثم يقول:

«إني أرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها»

كل فيلسوف يبني «مدينة فاضلة» ثم يقول:

«إن الفساد لا بد أن يلحق بهذه المدينة، لما يصطرع في نفوس أهلها من عوامل ونزعات، فتحل محلها المدن المضادة لها وهي:

الجاهلة، والفاسقة، والضالة، والمتبدلة»

كل شاعر يئن صارخاً:

«كفى بك داء أن ترى الموت شافيا. .»

كل عاشقة تقول:

«أنت فين والحب فين؟»

ماذا بقي؟

لا تعجل. لقد بقيت المواعيد. ضم عليها أصابعك جيداً، وحذار أن تفلت من يدك.

من بالباب؟ - 1

«قال صاحب الديك: لم نر شريفاً قط أجاز شاعراً بكلب، وقد رأيتهم يجيزون الشعراء بالدجاج» (الجاحظ، **الحيوان** 2/ 277).

مجد الديك الباذخ ليس فقط ما صوره شفيق معلوف:

«دماء أجدادك لما سفكت

صارت على رأسك تاجاً أحمرا».

بل هو أعرق من ذلك. إنه يعادل الذهب والفضة والدماء والعبيد، لأنه يقدم جوائز للشعراء.

هنا دع خيالك بدون زمام:

تصور نفسك شاعراً فحلاً، وأنك رحت تثقب اللؤلؤ، وتنظمه قصيدة عصماء يتصاغر القمر من إبداعها المضيء، وأنك رحت تنشدها.

«فلو أن مشتاقاً تكلف غير ما

في وسعه لسعى إليك المنبر».

وبعد أن فرغت - لا فض فوك وأخوك وحموك - أسبغ حاميك الممدوح عشر دجاجات وديكاً واحداً.

ترى كيف تكون حالتك؟

لا شك في أنك ستهرول إلى أم العيال، مسبغاً عليها الدجاجات، منشداً بفخر:

«يمن علينا الأكرمون بمالهم
ونحن بمال الأكرمين نجود».

سؤالي ليس هذا. سؤالي هو: هل انتهت هذه الحالة؟ لو جعلت نظرك أكثر اتساعاً، لرأيت أن الحالة باقية، بل ازدادت بؤساً.

بعض الشعراء الآن ينثرون لآلئهم بدون مقابل، حتى لو كان دجاجاً. إن جوائزهم «السراب» الذي يأملون أن يتحول إلى ماء.

من بالباب؟ - 2

«من بالباب من الشعراء؟»

هذه كلمة نراها متكررة في كتب التراث، وهي توحي بأشياء كثيرة، منها:

أن عتبات الباب مكتظة بفئات عدة من الناس، وأن السيد، في هذه اللحظة (النشوة) لا يريد إلا الشعراء، أما لماذا؟ فهذا شأن من شؤون السيد، وليس لك أن تسأل عنه.

دخل الشعراء، كل منهم يتأبط ثلة لغوية تسمى قصيدة، وراح ينشد أولهم:

رقصت لك الدنيا وفي زنارها
ورد وفي وجناتها شمسان

وقال الآخر:

وعلى يمينك جدول مترقرق
متدفق بالجود والإحسان

وقال الثالث:

لا، إن جودك ليس يشبه جدولاً
بل إنه بحر من الدبلان

(الدبلان هذه سأشرحها يوماً ما)

وقال الرابع:

شهم جميل باسق متورع

متوحد في واحة الإيمان

وهنا مل السيد من الوزن والقافية، وصاح: أليس هناك ما يسمونه هذه الأيام شعراً حراً؟

- بلى يا مولاي.

- أين شعراؤه؟

- إنهم بالباب.

- حسناً، أدخلوهم علي غداً.

يا غلام:

أسبغ على كل واحد من هؤلاء عشر دجاجات وديكاً واحداً.

أين الخطأ؟

اقتبس هذا العنوان من الشيخ عبدالله العلايلي، لأدخل من أبوابه الواسعة «إذ ما أكثر الخطأ وأكثر أماكنه!» للوقوف على مقولة شائعة هي «إن العالم أصبح قرية صغيرة».

هذه المقولة التي نظرت إلى العالم من نافذة واحدة هي «نافذة الجغرافيا» نافذة الاتصالات الحديثة، لم تلاحظ ما تريه النوافذ والأبواب الأخرى. لقد أصبح العالم قرية صغيرة جغرافياً، ولكنه تمدد أكثر حتى من سعة الأرض تاريخياً، ذلك لأن الذي يتحكم في العالم اليوم ليس الجغرافيا، بل هو التاريخ، لقد كفت مقولة «إن الجغرافيا هي العامل الثابت في التاريخ» عن الدوران. الخلافات التي تزداد تأججاً في كل الأرض، سواء كانت عرفية أو عقدية أم غيرها.. لم يحمل لها تداخل الجغرافيا قطرة إطفاء واحدة، ذلك لأن التاريخ هو الذي أخذ يتكلم، هو الذي ازداد توسعاً.

لماذا؟ لأن البناء النفسي المشترك للمجتمعات، والذي تراكم شيئاً فشيئاً هو فعل التاريخ بالأساس، وليست الجغرافيا إلا أحد روافده الصغيرة، وهذا البناء النسبي هو الذي يخلق السلوك الفردي والجماعي. هو الذي تنسل الإرادة منه. اللغة وليدة التاريخ، لأنها وليدة (العمل) المشترك ذهنياً ويدوياً. واللغة هي التي تسم ملامح

الذهنية الجماعية، كما ترسم الجغرافيا ملامح الوجه. وما يحرك الإنسان هو تلك الملامح الذهنية، لا ملامح وجهه. هل تتخلى اللغة عن فعلها؟

إذا كان ذلك سيتخلى التاريخ عن فعله حتماً، ولكن هل ذلك ممكن؟

أتسمعني؟

«أتسمعني أيها الطفل؟
هل تذكر القروي الذي كان يركض خلف عصافيره
في المدى الدبق المتلاطم؟
هل تتذكر عينيه
حين رأى ساق مريم
واشتعلت روحه بخرير الأنوثة. . »

لا أعرف ما بين الشاعر شوقي بزيع ومريم، لقد تحولت من إشعال روحه بخرير الأنوثة إلى تساؤلات (كونية):

«تقتات من جسدي الفصول جميعها
وأنا أصوم
مادا فعلت لكي تسمّرني الرمال
على صليب شكوكها. . .
وأي خطيئة منعت يداي
لكي تنصبني الهموم. . ».

ولكن دعنا الآن مع الطفل.

الطفولة مفهوم جديد، لذا لم يخطر في أذهان شعرائنا القدماء. أما شعراؤنا الجدد فقد وقفوا عليه بما يستحق من حرقة: لقد وقف

عليه أمل دنقل وأدونيس وشاعر شاب، لا يزال في الظل اسمه ياسر الزيات، ووقف عليه شوقي بزيع، وهو موضع كلامي الآن.

شعور شوقي بزيع بالزمن شعور حارق. شعور من يتشرب كل لحظة فيه وهو يحس بالظمأ القاتل، لذلك جاء إحساسه بالطفولة فاجعاً.

«أن تعود إلى أول النبع كي ترتوي
ثم لا تبلغ الماء...
أو تبلغ الماء بعد فوات الأوان
وتدرك أن قد خسرت الرهان
وأنك تخلي المكان لمن هم أقل ذبولاً
وأنك تخبط في الأرض... تلك هي الأربعون».

يا هلا..

حين تكون بعيداً عن الوطن تشعر بأن نصفاً منك يطبق عليه الغياب، تشعر أن تنفسك للهواء ليس كاملاً. تشعر أنك في حالة قلقة، تصرخ بك وبالوطن: هيا التقيا فوراً. تنسى ما قاله أدونيس: «الوطن؟ نعم - شرط أن ينتمي، هو أيضا، إلي»

هذا ما يحس به كل فرد طبيعي. وكنت أعيشه في كل سفرة. ولكن، كما أنا الآن، تختلف هذه المرة عن غيرها اختلافاً أسطورياً. هنا، على كل ذؤابة من بيروت، لم يكن الزمان ولا المكان كافيين لأن أصبح «مثل جناحين بينهما وتر هارب» كما يقول عبدالمنعم رمضان. كنت أود أن أسمع ما رددته الحياة عن الناطق الرسمي السعودي في 22/ 4/ 99 وأنا هناك.

- ما هذا؟ ما الذي قاله الناطق الرسمي؟

- قال مجموعة «إناث» هي: إن السعودية تعمل لتوسيع أفق التعامل والتعاون مع المرأة.

إن المجتمع لن يتوازن إلا بدور المرأة.

إن على المجتمع السعودي أن يبلور رؤيته، بعيداً من انتظار صدور قرارات محددة.

إن الاجتهادات الفردية الموجودة الآن غير كافية بالنسبة إلى عمل المرأة، والاستفادة من قدراتها.

هذا هو الربيع الذي انتظرناه طويلاً، نساء ورجالاً. جاء هذه المرة، لا من تعاقب الفصول، بل من لسان الناطق الرسمي. لقد خاض أدبنا المحلي، منذ عقود طويلة، خوضاً صريحاً ورمزياً في هذا الموضوع. وكان صوت محمد حسن عواد أكثر الأصوات ارتفاعاً، ثم تعاقبت الأجيال، وها هو الثمر، ناضجاً، يتبلور على لسان الناطق الرسمي.

ما هي المهمة أمام أدبنا الآن؟ إنها تحويل القطر إلى غيث. إنها توسيع النهر حتى تمتلك الضفة رؤية الضفة الأخرى، تحت موازين العقلانية، وقوانين تقدم الإنسان.

الأرأَيتيون

في تاريخنا الفكري القديم فئة أطلق عليهم (الأرأَيتيون) وهم الذين يفتحون نوافذ الأسئلة في جدار أي فكرة مطروحة:

أرأَيت لو كان الإنسان يدرك حقوقه المدنية، هل سار التاريخ إلى الوراء؟

أرأيت لو أدرك الإنسان حقوقه المدنية، أيمكن الجهر بها، والسيوف مصلتة على رأسه؟ أرأيت لو أن أبا العلاء لم يدرك هذه الحقيقة، أيمكن أن يقول:

نضوا صارماً ورووا باطلاً
وقالوا صدقنا، فقلنا نعم؟

أترى لو كان (يزيد بن مفرغ) مؤمناً صادق الإيمان، أيمكن أن يقول:

ألا ليت اللحى كانت حشيشاً
فنعلفها خيول المسلمينا؟

أرأيت المد والجزر؟ ترى لو كانا عاشقين، فأيهما أشد صبابة من الآخر؟ هل هو الجزر لأن أضلاع البحر تتداخل في بعضها من ألم الفراق، أم هو المد لأنه يثور كمن أصابه مس من الهيام؟

الأرأيتيون زمانهم انطفأ، وأتى «زمن يتقدم فيه الجواب وتنهزم الأسئلة» كما يقول أدونيس.

هل هذه كارثة لا قرار لها؟

لا. أبداً..

إن حضور الجواب في كل حين، وعلى أي شيء، يريحنا من عناء التفكير، وجحيم الاختبار، و«هنيئاً مريئاً غير داء مخامر..».

هزيمة اليقين - 1

أمضى «اليقين» أزمنة من عمره المديد، وهو في كامل بياضه الناصع. لم يستطع هذا الذي يسمونه «الشك» أن يثير من حوله أي ضباب، أو يرشقه بقليل من الظلام الذي يتأبطه دائماً.

في كتب التراث نرى الشك المسكين، وقد لاحقته السهام من كل صوب، ونرى اليقين متربعاً، ضاحك الوجه من البشر «حتى كاد أن يتكلما» ولم يخطر في ذهن أحد من القدماء أن يمن على الشك بنظرة رأفة عابرة، ما عدا أفراد قلائل . . منهم الجاحظ.

في كتابه (الحيوان)، وتحت عنوان «الشك واليقين» راح الجاحظ، بإصرار ضمني، يكيل الضربات لليقين: «اعرف مواضع الشك، وحالاتها الموجبة له، لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له، وتعلم الشك في المشكوك فيه تعلماً، فلو لم يكن في ذلك إلا تعرف التوقف، ثم التثبت، لقد كان ذلك مما يحتاج إليه» (6/ 35).

هو إذا يطلب منا «أن نتعلم الشك تعلماً» ولم يغط دعوته هذه، كما غطاها غيره، بأن ذلك وسيلة للوصول إلى اليقين، بل ترك الأبواب مفتوحة.

إن «التوقف أو التثبت» لا يعنيان اليقين، وذلك لأن الشك - في نظره - طبقات:

«ثم اعلم أن الشك في طبقات عند جميعهم، ولم يجمعوا على أن اليقين طبقات في القوة والضعف».

وماذا بعد؟

هزيمة اليقين - 2

بعد الضربات المبطنة بالرحمة التي وجهها الجاحظ إلى اليقين نراه يقول:

«والعوام أقل شكوكاً من الخواص، لأنهم لا يتوقفون في التصديق والتكذيب، ولا يرتابون بأنفسهم، فليس عندهم إلا الإقدام على التصديق المجرد، أو على التكذيب المجرد، وألغوا الحال الثالثة من حال الشك التي تشتمل على طبقات» (6/ 36).

إنها ضربة عارية وبالغة القسوة.

فاليقين - في نظر الجاحظ - عادة من عادات العوام الذهنية. أما الخواص فهم يتوقفون في التصديق والتكذيب، ويرتابون في أنفسهم، ولذا يصبح الشك عادتهم الذهنية.

أقف على جزء صغير مما قال الجاحظ

«الارتياب في النفس»

هذا الارتياب الذي يعنيه، بالإضافة إلى أنه كان شأناً خاصاً ونادراً، كان «إيجابياً» لأنه يوصل إلى التثبت. أما الارتياب «اليوم» فقد أصبح شاملاً ومدمراً.

الارتياب اليوم، وبفعل مخالب وأنياب النظام العالمي الجديد،

صار سيلاً مجنوناً يكتسح الماضي والحاضر، ويجرف القيم السلوكية، مهما تجذرت، ويعيد الجوهر الإنساني إلى بدائيته الأولى.

لقد وصل الارتياب إلى حد تهديم الذاكرة الجماعية، وأصبحت الإرادة البشرية في حالة من الذهول، وهي تنظر إلى كل شيء في حالة انهيار.

لقد أوصل اليقين البشرية إلى مجازر جسدية وروحية، وها هو الشك الآن يقودها إلى هاوية لا قرار لها على يد النظام العالمي الجديد.

(ختير القنديل)

كيف تستقبل مشاعرك هذا التعبير ختير القنديل؟

هل يذهب تيار وعيك إلى الأمام نحو الفجر، أم يذهب إلى الوراء نحو سيادة الظلام؟

هل يذهب لا وعيك إلى فيروز «أو ما يبقى بالمصباح نقطة زيت» أم يذهب إلى العم الأول «نيالك من ليل كأن نجومه. . »؟

ختير القنديل.

هل تذهب حين سماعه من شاعر لبناني شاب إلى السياسة، أم الأدب، أم الفلسفة، أم عبر الاقتصاد؟

هل تذهب إلى دفن ذهنك في ماضي الأمة أو في حاضرها، أو في مستقبلها؟ هذه الأمة التي كتب على أبوابها النفسية والعقلية والوجدانية: ختير القنديل.

هل شاهدت مرة في حياتك، مرة واحدة فقط، قنديلاً يتختير، لأنه مل من الإضاءة بين عميان؟ هل كان هذا القنديل من عشاق المتنبي:

«وما انتفاع أخي الدنيا بناظره

إذا استوت عنده الأنوار والظلم»

فلم ير ما ينقذه من حاله سوى الفرار إلى التختير؟

يقول شيخنا الجليل هادي العلوي:

«في اللغة العربية عشر مفردات للحب، وعشرون لفعل الحب، وأربعون لمشتقاته. أما الإنكليزية ففيها مفردة واحدة أساسية، ولا يعرفون غيرها إلا بالتوليد والمجاز. ويعكس هنا التفاوت في الكم اللغوي تفاوتاً في الكم الوجداني..». (**ديوان الوجد**، ص15).

هل صحيح استنتاج شيخنا هذا؟

هل تملك أمة من الأمم كماً لغوياً يعبر عن العزة والكرامة والإباء و، و.. كما تملك الأمة العربية؟

إذاً أين وجدانها؟

لماذا لا نراه، ولو مرة واحدة؟

(هل فيكم؟)

«من يمنحني لغة خارج ما يحوي القاموس
تسافر بي خارج حد الوعي
وفوق مدار الأشياء؟
لغة لا تفهم.
كي أكتب عما يجري بين النهرين
وأربيل وسامراء.
لا أسأل عن لغة القرآن، أو الإنجيل أو التوراة
أسأل عن لغة ضد المعنى
ضد المنطق
ضد الإدراك
كي أكتب عما يجري في وطني
هل فيكم من يسعف هذا الشاعر بالكلمات؟»

حين قال محمد سعيد الصكار هذا الكلام لم يقله كشاعر عراقي تلاقفته المنافي طويلاً، بل قاله باعتباره إنساناً يدرك قيمة الحياة، الحياة التي يفيض معناها على كل شيء، فيجعل له معنى.

أي كلمة في اللغة يصبح لها معنى حين تكون الحياة نفسها بلا معنى، كما هي الآن في العراق؟!

كل اللغة بلا معنى، وبخاصة تلك الكلمات الكبيرة التي تعب التاريخ، وهو ينحتها في كهوف الزمن.

كلمات «انقرضت من لسان العرب» كما يقول محمود درويش، منها العزة والكرامة والشجاعة، وآخر تلك القافلة اللغوية المجيدة.

هل أكمل ما قاله العطار في قصيدة أخرى؟

«الناس في مدينتي أشبه بالنخيل

بصبره الطويل

وزهوه

وصمته النبيل».

سؤال ملون

«سئل الشعبي عن لحم الشيطان: أحلال هو أم حرام؟ فقال: نحن نرضى منه بالكفاف».

هذا ما ورد في التراث.

والسؤال هذا يصدر من أحد موقفين:

إما أن السائل يشك في وجود الشيطان أصلاً، فيكون هدف السؤال هو السخرية من الشعبي ومن الشيطان معاً. ومثل هذا الموقف موجود في التراث: فقد افتخر أحدهم بأنه لو لم تكن للمعتزلة إلا حسنة واحدة، هي أن أولادهم لا يخافون الجن لكفاهم ذلك فخراً.

ومعنى هذا أن المعتزلة كانوا ينكرون وجود الجن، ويربون أولادهم على هذا النكران.

وإما أن يكون هذا السائل جاداً في سؤاله. هنا تنفتح أبواب الاحتمالات بكل صخب:

- الاحتمال الأول

أن يكون هذا السائل يعاني منذ ولادته ضروباً من الإحباط والهزائم، و«قلة الحيلة» كما يعبر أجدادنا. ولم يجد ما ينسب اليه ذلك سوى الشيطان، ولذا فهو لا يرتوي بأن يتعوذ منه، أو يلعنه..،

بل لا يرويه غير أن ينهش لحمه نهشاً، وكان جواب الشعبي ذكياً، ولامحاً.

- الاحتمال الثاني

إن الشيطان لم يسكن قلب هذا الرجل يوماً، ولم يعرف حتى بيته. ولكن هذا الرجل يريد أن يتحداه حتى حدود الأكل من لحمه.

ولا شك في أن في هذا الموقف شجاعة نادرة، لا نستطيع إلا أن نهنىء الرجل عليها تهنئة دائمة.

هل تريد احتمالاً ثالثاً؟

عليك أنت أن تتخيله.

موت القارئ

حين أعلن «موت القارئ» لم يذرف أحد من الأدباء والنقاد دمعة واحدة على روحه، لأن ذلك الموت السوريالي كان موتاً إيجابياً، لأن معناه «حياة النص» وحياة النص هي البئر المهجورة التي كان على الأدباء والنقاد أن يسقوا منها.

لكن ماذا تفعل حين تقف أمام مقولة «موت القارئ» التي لم يلتفت إليها أحد التفاتاً كافياً حتى الآن؟ موت القارئ لا تتولد منه أي حياة لأي شيء آخر، لذا فهو موت سلبي وفظ. أكثر من ذلك، هو موت يزحف إلى المجتمع. في حين أن المجتمع لا يشعر بهذا الزحف الذي سيقوده إلى الهاوية.

كتبت جريدة **السفير** في 7/ 12/ 1998 تقول: «آخر تقرير للأونيسكو يقول «إن معدل القراءة السنوي للإنسان العربي يبلغ نصف ساعة». ويضيف المعلق «عندما ذكرت هذا التقرير لأحد المتأدبين العرب رد علي بالقول:

تعيرنا أنا قليل عديدنا فقلت لها إن الكرام قليل»

إن هذه الإجابة - إذا لم يكن القصد منها السخرية - تبعث على الرعب، لأن هذا المتأدب يتكلم خارج العصر. وهذه أولى نتائج موت القارئ.

ولكن لماذا مات القارئ؟

مات لأن المناهج التعليمية لم تغرس فيه عادة القراءة، بل علمته الفرار منها بما حشدته في رأسه من أشياء لا علاقة لها بحياته.

ومات، لأن القنوات الفضائية لم تترك أمامه من الوقت ما يبذله للجد، فضاع في سراب الألوان.

ومات، لأن الحياة الاستهلاكية العاصفة لم تترك في يده ما يقتني به الكتاب.

ومات، لأنه لا يشعر بجدوى القراءة.

ومات، لأنه يشعر أن كل الخطابات تكذب عليه: فالشاعر يقدم له لهباً زائفاً، والسياسي يقدم له لؤلؤاً زائفاً، والفيلسوف يقدم له نظرية زائفة، وحتى حبيبته تقدم له ابتسامة زائفة. إنه عصر الزيف، فلماذا القراءة إذاً؟

مجاز الذوق

«مجاز الذوق هو قول الرجل إذا بالغ في عقوبة خادمه: ذق، وكيف ذقته؟

قال بعض الفقهاء، ممن يشتهي أن يكون عند الناس متكلماً: ما ذقت اليوم ذواقاً على وجه من الوجوه، ولا على معنى من المعاني، ولا على سبب من الأسباب، ولا على جهة من الجهات، ولا على لون من الألوان، وهذا من عجيب الكلام». (الجاحظ، **الحيوان**، 5/ 28)

لو كان الجاحظ حياً، وقرأ واحداً من هؤلاء الذين يشتهون أن يكونوا عند الناس شعراء. ماذا تراه يقول؟!

ماذا يقول لو قرأ:

«أشعلت في المقهى سيجارة
وبدون أن أدري
مضى كل الدخان
ليدق بابك
فالمكان هو الزمان
لكنه إذ حم من عنت الوقوف
ترك الوقوف

وعاد لي
يبكي، وينثر حزنه فوق الدفوف
أرأيت لو كنا معاً
نتراشف الشاي العتيق؟
لمضى الدخان إلى القمر
وتعانقاً في المنحدر
أرأيت لو كنا معاً؟
لنتنفس الشاي العتيق
روى الدخان
ولغادرت سيجارتي
لتحل بين يديك
أو شفتيك
أو قدميك
يا قمر الزمان»؟

إن ما يحثوه بعض الشعراء الجدد على وجوهنا الآن هو مثل ذلك الغثاء اللغوي الذي استنكره الجاحظ من ذلك الفقيه الذي اشتهى أن يكون متكلماً.

لقد كثرت منذ زمن سحيق السهام الموجهة إلى نحره، ولا تزال، ولكنه ينمو نمو مرض مرعب.

الملل

لا أظن أن هناك مفردة حاق بها الظلم والاستخفاف واللامبالاة مثل «الملل».

الملل من الأشياء يعني رفض تكرارها. يعني مناداة حارة لمعان جديدة، لم تأت، ولن تأتي.

الملل هي المفردة «العانس» التي لم يقف عليها الشعراء ولا الفلاسفة. فقط هو صلاح عبد الصبور وقف عندها بصبر يكاد أن يكون أيوبياً:

«... نفخ الأراجيل سأم
دبيب فخذ امرأة ما بين إليتي رجل
سأم، سأم
لا عمق للألم...»

الغريب أن في حقل «ملَّ» اللغوي نرى ما يقوله القاموس: مل الشيء في الجمر أدخله فيه. ويقول: مل فلان الشيء وعن الشيء سئمه وضجر منه.

هنا نحن أمام ثنائية فريدة هي: الاتصال والانفصال. الدخول في الجمر، والابتعاد عنه.

هل تشعر أن الدخول في الجمر أشد رحمة من الابتعاد عنه؟

ذلك لأن الدخول في الجمر اكتشاف. إنه القبض على ما يخاف منه. إنه السيطرة على المجهول.

دع ذا وقل لي:

يمكن أن تتجادل مع الملل من الأشياء، يمكن أن تنازله. . . ولكن ماذا تفعل أمام الملل من نفسك؟

الملل من النفس معناه رفض الحياة، معناه صراخ الذاكرة:

«كفى بك داء أن ترى الموت شافيا
وحسب المنايا أن يكن أمانيا»

هل مللت من هذا الكلام؟

معك الحق.

المثقف - 1

«الغباء هو أن يكون لكل سؤال جواب».

هذا ما قاله بطل رواية محمد شكري (السوق الداخلي) وهو قول يتشح بإغراء فلسفي واحد، ولكن التصدع يكاد يبين على بريق كلماته.

لا بد أن يكون لكل سؤال جواب، وإلا بقيت البشرية شامخة أبصارها خلف السؤال الأولي حتى الآن، ولما تقدمت على الإطلاق. ومع ذلك فإن تعبير بطل الرواية يبقى محاطاً بإغراء لا يقاوم، ولكن يجب أن يكون هكذا: «الغباء هو أن يكون لكل سؤال جواب واحد».

هناك لا يأخذ التعبير بعده الفلسفي وحسب، بل يأخذ كذلك بعده الأخلاقي، وبعد الصيرورة والتناسل.

بعد هذا لنقف على السؤال الآتي: ما هو دور المثقف الآن؟

ويعني التحديد بـ«الآن» أن جميع الأجوبة السابقة دخلت في خزانة التاريخ، وأن المطلوب أجوبة غيرها.

يقول أحد كتابنا النيرين:

«يفترض من المثقفين أن يمثلوا القوة الاجتماعية الأساس المعنية بمقاومة الجهل والخرافة في الكيان الاجتماعي أي (النهوض بدور

معرفي) لا شعاراتي، هدفه التحريض». (عبدالإله بلقزيز - **الحياة**، 15/ 5/ 1997).

مقاومة الجهل والخرافة لا تتقاطع مع التحريض، ولكنها تتجاوزه، إنها تتجه إلى الجذور بدلاً من الأوراق الذابلة التي تنتظر السقوط «حتف أنفها» فهل يقوم المثقف بهذا الدور؟

قد يقال: إن الإبداع الثقافي وحده، حتى لو كان ضارباً في أودية اللامعقول، هو مقاومة للجهل والخرافة. إن الشعر الوجداني المحض، أو الذي لا يعني إلا ذاته - حسب اقتراح سادتنا النقاد - هو كفيل بطرد الجهل والخرافة من أي تربة نفسية. قد يقال هذا، ولكنه - على ما فيه من نضارة - هروب مضمر من المواجهة الاجتماعية، وبخاصة إذا كان الكيان الاجتماعي مترعاً بالجهل والخرافة.

المثقف - 2

منذ زمن طويل، والأستاذ علي حرب يحمل عصاه الغليظة، ويهش بها على المثقفين. إنه بعد أن حطم أوهامهم الخمسة، على غرار الأصنام الأربعة لأحد الفلاسفة، وأوهام الحداثة الخمسة لأدونيس، عاد ليؤكد:

«إن المهمة الأولى للمثقف الآن ليست الانخراط في مشاريع التغيير الاجتماعي، لأن العالم يتغير على نحو سريع، بخلاف نماذج المثقفين ومثالاتهم. بل هو يتغير على نحو يفاجئهم (. . .) بمعنى أن المجتمع الذي يريدون تغييره متقدم عليهم. ولذا فالمهمة الآن أن يتحولوا عما هم عليه، بتحويل عقولهم، لكي يلحقوا بسواهم (. . .) بحيث يغيروا أولاً شبكاتهم المفهومية التي باتت قاصرة عن قراءة وقائع العصر». (**الحياة**، 15/ 6/ 1998).

باعتبارك مثقفاً، ماذا تقول في هذا الكلام؟

هل تفرش ذاكرتك تحت ضوء القمر، وتعمد إلى المفاهيم التي فيها، وترميها في البحر، واحداً، واحداً. . . وتروح تبحث عن مفاهيم أخرى تملؤها بها؟ أم تغلق ذاكرتك على ما فيها حتى لو قذفك المجتمع خارج مداره؟

سؤال أشبه بالهاوية.

ولكن ما الذي ألغيه من ذاكرتي؟

هل ألغي مفهوم «التغيير» الذي يعني صعود المجتمع في سلم التطور درجة بعد أخرى، وبلا نهاية؟

هل ألغي مفهوم «المجتمع» الذي يعني: التعايش تحت ظل تكافؤ الفرص، وظل العدالة الاجتماعية، وظل اللاتفرقة من أي نوع، وظلال أخرى عديدة؟

هل ألغي مفهوم «المثقف» نفسه الذي يعني - حسب علي حرب في أحد كتبه -: «المثقف هو من تشغله قضية الحقوق والحريات، أو تهمه سياسة الحقيقة، أو يلتزم الدفاع عن القيم الثقافية المجتمعية أو اللونية بفكره وسجالاته، أو بكتاباته ومواقفه. إنه من يهتم بتوجيه الرأي العام»؟

ما الذي ألغيه؟

أمنية

أشتهي أن أكتب بلا معنى:

لا لأن المعاني التي سفحنا لها رقاد الليل، ويقظة النهار، تكشفت عن لألىء لا تثقب.

ولا لأن هناك من معاني الإحباط ما يجعل النفسيين يتشاجرون حولها إلى الأبد والأزل معاً.

ولا لأن الفقهاء - جزاهم الله خيراً - مجتمعون الآن ليحلوا ما حرموه بالأمس.

ولا لأن الفلاسفة ظلوا يهرولون بين السماء والأرض، والأرض والسماء حتى ضلوا في الطريق.

ولا لأن الأدباء راحوا «في كل واد يهيمون» من المعقول إلى اللامعقول، ومن جزيرة إلى أخرى.

ولا لأن الصحافة أخذت تمارس جهراً ما كانت تمارسه سراً، وعلى استحياء مزيف كذاك الذي نقرأه في عيني مومس.

ولا لأن روشة بيروت مارست الكتابة بلا معنى، منذ سمعت زرقتها قول ذلك الصوفي:

«التعرف بالعبارة توطئة للتعرف بلا عبارة».

ولا لأن جميع الأصابع تخون حين يكون الماء بالغ الصفاء.

ولا لأني أريد العودة إلى الطفولة، تلك التي تعتبر اللغة وحلاً.

بل لأن الأشياء أصبحت بلا معنى، والقيم بلا معنى، والمعنى بلا معنى.

رسالة - 1

الأستاذ الجليل العريض الطويل التاريخ:

منذ الفجر الأول، وأنت تسير «بلا ضفاف»، تسير في كل الاتجاهات، وجميع الأمكنة، شاهدت صراع الخير والشر، والإيمان والإلحاد، والنور والظلام، وأقبلت على أمم وأدبرت عن أخرى.

قل لي الآن - بعد كل هذه التجارب الهائلة - هل رأيت غابة شرسة مثل الإنسان؟

لقد خاضت فيك أقلام تحاول الصدق، وأقلام تتعمد الكذب، واختلط هذا بذاك، لأن الجذور الحقيقية دائماً تكمن في أعماق الأرض، لا يراها أحد، فما رأيك في نفر يحاولون الآن أن يكتبوا مرة أخرى؟!

ماذا يكتبون؟ والفروع مثل الجذور أصبحت كلها في أعماق الأرض.

هل صحيح أنك لا تصاحب إلا الأقوياء، أو المنافقين والكذابين والمشعوذين ومروجي الخرافة؟

مررت بملايين الآراء والقيم والعقائد والعادات، ولا تزال. فأي عقيدة هي عقيدتك، وأي الآراء أعجبتك؟: وما هي التي سخرت منها، أو سخرت منك؟

هل يمكن لأحد أن يسبح فيك مرتين؟

رسالة - 2

الأستاذ الجميل الكثير القليل الشعر:

متى ولدت؟

وكيف؟

ومن أين؟

أمن الحزن أم من الفرح؟

أي لغة لثغت فيها أول مرة، وتعلمت تسلق الآذان والقلوب، ثم رأيت وجهك في الماء؟

كنت أنيناً غامضاً حراً، وحين لبست ثياب اللغة، أمسكوا بك، وروضوك لتقول: «من أين تؤتى المكارم؟» ما لك وللمكارم؟ لماذا لم تبق وحدك هناك على الأطلال؟

أنت جميل.

جميل إلى حد أن آلافاً من الناس لم يكفهم أن تمتلىء عيونهم بجمالك، بل راحوا يقطعونك إرباً إربا. . . باحثين عن أسرار جمالك هذا، وهكذا قتلوك قتلاً حلالاً، قتلاً نبيلاً، إن كان في القتل نبل.

أيها الجميل:

لماذا اعتزلت الناس هذه الأيام؟

وكيف أصبت بمرض الاكتئاب؟

ولماذا - أيها الجميل - يزحف إليك «الأخوة الأعداء» ليغيروا كل ملامح وجهك، ويجروك من صليب إلى صليب؟

أيها الجميل:

وداعاً.

رسالة - 3

السيدة ذات النقاب الغامض الفلسفة:

أنت ابنة الفكرة الأولى والسؤال الأول، ترى كيف التقيا؟ أعلى حب الحياة أم كره الموت؟

يقولون: إنك كنت في السماء، فجاء من أنزلك إلى الأرض.

فهل هذا صحيح؟ إذاً لماذا جاء من أعادك إلى السماء مرة أخرى؟

ويقولون: إن هناك من جعلك تمشين على رأسك، وجاء من جعلك تمشين على قدميك، فلماذا نحن الآن لا نرى لك رأساً ولا قدمين؟

أين تسكنين الآن؟

لقد احتل العلم الأرض وصعد إلى السماء، فأين المكان الذي هربت إليه؟

هل صحيح أنك تكاثرت بالانقسام، وأنك تشظيت وأصبحت مثل ظباء خراش؟ أنا لا أصدق هذا، فأنت مثل الشعر: وليدة الدهشة. والإنسان لا يمكن أن ينسى طفولته.

هل صحيح أنك اتخذت من اللغة العربية جسراً، لا موطناً؟

«ما زلت طفلة

يا فتنتي ما زلت طفلة
تجرين خلف فراشة
وتحاولين صعود نخلة
وتثرثرين مع الغدير الطفل
وادعة مدلة. . .»

هل ينطبق عليك قول هذا الشاعر، أم أنك أصبحت عجوزاً شمطاء؟

رسالة - 4

السيدة المحجبة العدالة الاجتماعية:

الذين ضربوا آباط التاريخ لرؤية وجهك الجميل كثيرون. بعضهم مات في الطريق. وبعضهم انتحر من اليأس، وبعضهم بقي يراود الأحلام... فيما ملت السيوف والرماح من شرب دماء بعضهم الآخر في طريقه إليك.

أين أنت؟

لقد فتشت كل القواميس، وكل المجتمعات، لأفوز بنظرة إلى وجهك حتى من وراء حجاب، فلم أظفر بذلك.

يقول سيد قطب: إن الأسس لرؤيتك ثلاثة هي:

1 - التحرر الوجداني المطلق.

2 - المساواة الإنسانية الكاملة.

3 - التكافل الاجتماعي الوثيق. (سيد قطب، **العدالة الاجتماعية في الإسلام**، ص 32)

وأقسم بالله أن هذا رائع.

ولكن كيف الوصول إليه؟

كيف يتحقق؟

وهل تحقق يوماً؟

هل تصدقين أنني رأيت وجهك في الحلم، وأن كثيرين رأوا الحلم نفسه؟ ولكن ما فائدة الأحلام؟

ما رأيك في النظام العالمي الجديد؟

هل تعرفينه؟

إنه هو الذي حضر لك ولأمثالك قبراً مرمرياً بالغ الاتساع، وادعى أنه أهال عليك التراب.

قولي أين أنت؟

رسالة - 5

صدام حسين:

هل تعرف العراق؟

هل تعرف أن القفزتين الهائلتين في التاريخ البشري كله: الزراعة والكتابة ولدتا في العراق؟

هل تعرف ملحمة جلجامش، مسلة حمورابي، وقافلة الأسماء المضيئة من فجر التاريخ إلى عهدك الأسود؟

هل تعرف أن قوانين اللغة العربية، وشعرها، ومذاهبها، وثمارها العقلية والنقلية... ترعرت على أرضه، وتغذت دماؤها من فراتيه؟

ما الذي صنعت به؟

ما الذي صنعت بنا؟

«إني لأعجب

كيف يمكن أن يخون الخائنون؟

أيخون إنسان بلاده؟

إن خان معنى أن يكون

فكيف يمكن أن يكون؟»

أيها السياب:

هل يكفي وصف «الخيانة» ليعبر عما حدث ويحدث؟

لا، أبداً. . .

نحتاج إلى أوصاف أخرى، إلى لغة أخرى، لا أظن أننا نعثر على مفرداتها في القاموس.

رسالة - 6

السادة كتاب الزوايا:

هل تكتبون بلغة واحدة أم بلغات عديدة؟

لماذا يناقض بعضكم بعضاً، بل يحكم السيف في عنقه والرمح في خاصرته، من دون أن يشعر لا القاتل، ولا المقتول؟

ما هو هدفكم المشترك؟

هل أصبحت اللغة ساحة ظباء: من يصطاد منها أكثر من الآخر؟

هل يحس بعضكم بأنين الكلمات. بصراخها، وهو يغتصبها اغتصاباً، ويجرها على وجهها فوق وحول النفاق والكذب وما لا أعرفه؟

كيف استطاع بعضكم أن يركب قلمه المطهم، ليخوض به كل علوم الأرض والسماء دفعة واحدة؟ فهو يكتب في الطب والهندسة والسياسة والفلسفة، وفي علوم لم تولد.

كيف؟

هل تعرفون أن في القاموس كلمة تسمى الخجل، وأخرى تسمى المسؤولية، وثالثة تسمى شرف الكلمة؟

أيها السادة:

هل أصبحت القيم كلها «ظاهرة صوتية» لا علاقة لها بالواقع،

ولا صلة بينها - عملياً - باللسان الذي ينطقها وسلوك صاحبه؟

أين ما تسمونه الضمير، وتلهبون به أسماع الناس وظهورهم في كل ما تكتبون؟

إنه الارتزاق.

أليس كذلك؟

رسالة - 7

السيدة الديموقراطية:

كيف دخلت إلى اللغة العربية:

من أي طريق، وفي ضوء أي مصباح؟

وحين دخلت كم هي المفردات التي انقضت عليك انقضاض الصقور الجائعة؟

كنت تسيرين، وعلى يمينك الحرية، وعلى شمالك حقوق الإنسان كلها. فهل دخلت إلى اللغة العربية بما على اليمين والشمال، أم جزت حتى يمينك وشمالك معاً؟

إني أراك من وراء ضباب، هل أراك حقاً، أم أرى شبحاً من الأشباح التي يتفنن الوهم في صنعها.

لقد ضربت أجنحة الخيال بالسياط حتى أصل إلى رؤيتك، ولو من وراء مجهر، فمتى يا ترى أراك بالعين المجردة؟

يقولون إن البلدان التي ضربت فيها أطنابك، ناضلت طويلاً، وضحت بدماء غزيرة، حتى وصلت إلى رؤية وجهك القمري.

هل هذا صحيح؟

إذا كان صحيحاً، لماذا أتيت إلى اللغة العربية وهي «بلدان تريد الشهد من دون إبر النحل» على رغم أجداد المتنبي؟

السيدة الديموقراطية:

بودي أن أراك تتصببين خجلاً، والعرب يفرغونك من محتواك النبيل، ويحيلونك إلى خدعة مضحكة.

ولكني محروم حتى من هذا.

رسالة - 8

إليه:

أنت لم تتعود السير على الطرق الواضحة، كنت تحب الضباب، وتتمنى الأزقة المعتمة.

هل في إمكانك السير في طريق واسع واضح مثل (رسالة التربيع والتدوير)؟

هل في قدرتك الذهاب إلى القاموس؟

لا بأس...

إذاً إقرأ ما يقوله في «البشاعة».

أعرف أنك مررت بها مدرسياً، ولكني أتمنى أن تعيها لا شعرياً ولا فلسفياً ولا ذوقياً، ولكن مجرد حزمة شكوك.

البشاعة ذاتها هي أنت، ولكنك لا تعرفها لأنك ببساطة لا تعرف نفسك.

هل أصف لك البشاعة؟

البشاعة (يا).

«لا أعرف صفة وضيعة تليق بك حتى أناديك بها» إذا سأقول (يا) فقط.

(يا).

البشاعة أن تعتقد أن الآخرين مجرد منابع نقود. من يعطي أكثر، فهو الأجمل والأفضل وراعي كل قيم الأرض والسماء.

رسالة - 9

السيدة الحرية:

يقول زكي نجيب محمود: إن معناك الفسيح الذي تعطينه الآن لأذهاننا ليس موجوداً في اللغة العربية، ولا في التاريخ العربي. إن معناك الضارب في «الأصالة» ينحصر في ما يقابل «العبودية» فالحر مقابل العبد، وأنت منحصرة هنا. وكان الله مع الصابرين.

ألهذا يا سيدتي يصر الحكام العرب جميعاً على الوقوف عند معناك «الأصيل» العريق ذي الحسب والنسب؟ معتبرين أن ما يزخر فيك من المعاني والدلالات الكثيرة، ما هو إلا بضاعة مستوردة لا تعجب إلا الضالين.

حسناً:

لماذا نتفاخر باستيراد السيارة والقطار والطائرة وآلاف الأشياء الأخرى.. فإذا وصل الأمر إليك مدت الأصالة أعناقها؟!

من مضحكات (فوكوياما) اعتقاده بأن الصراع التاريخي قد انتهى بين المتناقضات الكبرى. ومنها التناقض بينك وبين الاستبداد بانتصارك الحاسم عليه، تماماً مثل انتهاء الصراع بين الديموقراطية والديكتاتورية بانتصار الديموقراطية.

هل هذا صحيح أيتها السيدة؟

أين هو انتصارك؟

هل أستطيع رؤيته ولو بالخيال؟

السيدة الحرية:

ما هي وشائج القرابة بينك وبين الديموقراطية؟ هل تنتميان معاً إلى قبيلة واحدة تسمى «الإنسانية» أم أنتما من قبيلتين مختلفتين اختلاف عبس وذبيان؟

هل تعرفين أنت وأختك الديموقراطية عمق الشبه بينكما وبين عبس وذبيان؟ ذلك لأنهما وصلتا إلى السلام بعد سيل من الدماء، وأنتما وصلتما إلى التحقق بفضل دماء الشعوب لذلك.

رسالة - 10

السيد النظام العالمي الجديد:

الناس في كل مكان، يزحفون عليك بالسيوف والرماح، وكل الأسلحة البدائية، وكأنهم لا يريدونك، هل أنت وراء ظهورهم، أم أن المسافة بينك وبينهم مسافة ضوئية؟

أنت لا تخاف منهم، لأنك محصن بكل ما بلغه العام من مبتكرات تشبه الخرافة، وهم أشبه بمن ينبح على القمر، ويظن أن نباحه سيرعب القمر فيقف عن السباحة في فلكه.

لكن قل لي:

كيف استطعت أن تقضي على طموحات الناس وتطلعاتهم إلى العدالة الاجتماعية، وأن تخرس - ولو إلى حين - كل المقولات المضيئة الداعية إليها؟

يقول أحد مفكرينا:

إنك نقلت الناس من مرحلة «الوعي» إلى مرحلة «الإدراك» أي من مرحلة التفكير في الأشياء والقيم والأوضاع الاجتماعية. . إلى مرحلة الإدراك البصري الذي تتراكم فيه الصور على الإدراك فينسد باب الوعي، ويتوقف التفكير.

إذا كان هذا صحيحاً «وهو صحيح بدون شك» فما الذي تريده من البشر؟

هل تريد منهم نسيان القيم التي تعبت الأمم وهي تنسجها طوال التاريخ، وسالت في سبيل ولادتها ونموها أنهار الدماء؟

لقد جعلت الأغنياء أكثر غنى، وجعلت الفقراء أشد فقراً، ولم يكفك هذا، بل رحت تحطم حتى الآمال والأحلام ومجرد التوق إلى الأفضل.

أي وحش أنت؟ وكيف توغل في افتراس البشرية، وهي لا تقوم حتى بالأنين.

تكافؤ الفرص

كم هي جميلة كلمة «تكافؤ الفرص!!».

هي جميلة ومليئة بالمعاني الأخلاقية، إنها حلم إنساني من تلك الأحلام الكبيرة التي لم تتحقق منذ أول فجر حتى الآن.

وهي جديدة على القاموس، لأنها نبت «الفردية» ومفاهيمها الناشئة. أما على الصعيد العملي، فكانت أمنية مبهمة تمشت مع التاريخ، ولم تعرف التحقق على أي أرض، ما عدا الصين القديمة التي قاربتها فترة من الزمن قبل ميلاد السيد المسيح.

ما هي السهام الموجهة إلى نحر تكافؤ الفرص الآن؟

إنها كثيرة: السهم الأول هو القبلية.

الثاني هو الأيديولوجية.

الثالث هو الدمار الأخلاقي.

الرابع تخلف المجتمع الذهني.

الخامس الفرق البيولوجي.

السادس اللون.

السابع التفريق بين حقوق المواطنة وواجباتها.

الثامن والتاسع والعاشر: النظام العالمي الجديد.

على تكافؤ الفرص تكسرت النصال على النصال، تماماً مثل فؤاد المتنبي.

نعم. ألم تكن مأساة المتنبي أنه كان يحن إلى تكافؤ الفرص؟ أليس هو القائل:

ولــو لــم يــعــل إلا ذو مــحــل
تـعـالـى الـجـيـش وانـحـط الـقـتـام؟

نحن هنا

حين كنا في مرحلة المراهقة اللغوية، كانت مفردة «افرنقع» تلهب في أوصالنا ضروباً من الضحك المتتابع. لم نكن نهتم بما تعنيه. كان اهتمامنا يتراكم حول هذه «الفرقعة» التي يثيرها مجرد اللفظ.

وحين كبرنا نسيناها. وساعد على ذلك أنها هي نفسها ليست «طاقية الإخفاء» تلك التي لبستها وتلبسها مفردات كثيرة، فلا تجدها في ما تقرأ أو تسمع، وبذا صانت نفسها من سخرية الساخرين.

بالأمس فقط كنت منصباً على قراءة كتاب (في البدء كانت الثقافة) وإذا بها «افرنقع نفسها» تمد عنقها بخيلاء، من بين لغته المشرقة، ثم تقول لي باستهزاء بارد «نحن هنا».

- ما الذي جاء بك إلى هنا؟

لو دخلت إلى أحد المجامع العلمية، أو اللغوية، لما صرعتني الغرابة من وجودك. فالذين يجلسون هناك يقدمون لك ولأمثالك «كهفاً» تتقلبين فيه ذات اليمين وذات الشمال، يمدون بأسباب الحياة. أما هنا، فما الذي جاء بك حقاً؟

- أنت، وأمثالك، تظنون أن المفردات أوراق في شجرة اللغة، فإذا سقطت الورقة ماتت، وأخلت مكانها لولادة مفردة جديدة تضج بالحياة.

ظنكم هذا يمكن أن يكون صائباً بالنظر إلى اللغات الأخرى. أما أنا لغة «قفا نبك» فبعيدة عن هذا الظن.

- لماذا يا سيدتي؟

- يقول أحدكم: إن ثقافتنا حتى الآن ما هي إلا إعادة إنتاج لثقافة التراث. فإذا كان هذا حقاً، فلماذا لا تكون اللغة إعادة إنتاج لما في القاموس؟

الصمت كلاماً

من يعرف محمد حسن الأمين يتشرب على الفور أبعاد قصيدة شوقي بزيع (يمحو ظله ليشف كالمرآة) لأنه هو ذو أبعاد مترامية لم تخطئ القصيدة في اقتناصها.

أول أبعاد هذا الرجل هو الصمت المتكلم:

«نأتي إليه
لكي نحدق مثله في وردة المعنى
فنخطئها
وكلنا نقلد صمته
لنصاب بالعدوى
ونقطف ما يفيض عن ابتسامته
من الألم الحكيم. . »

الصمت الذي يصيب من يمسه بعدوى يتفوق عليه البعد الآخر، وهو الرؤية التي لا تكتفي باختراق باب واحد، بل تخترق الأبواب تباعاً:

« - يا أبانا، قل لنا ماذا وراء الباب؟
- باب آخر
- لكن لم يعد أحد من الأحياء

بعد دخوله

- في العشق لا جهة تدل

ولا إشارة.

والوراء هو الأمام».

هذا البعد الصوفي لا يبقى ورفيقه منفردين، بل يتقدمهما بعد ثالث: إنه البعد الفلسفي الذي يرى الحقيقة في البحث عن الحقيقة:

« - وهل الحقيقة في المجاز أو البساطة؟

في الرحيل أو المقام؟

- هي في الطريق

ولو نأت صنعاء. . . »

هل تريد بعداً رابعاً؟

اقرأ القصيدة إذاً، أو انظر إلى محمد حسن الأمين.

هل تعرف؟

سأضع بين يديك لغزاً صغيراً. حاول مرة وأخرى وثالثة معرفته. واللغز هو:

من هو الطفل الذي لا يكبر؟

أنت هنا ستضرب آباط الخيل، باحثاً في كل واد من الأودية الاجتماعية والطبيعية عن هذا الطفل الذي لا يكبر. وقد يوصلك خيالك إلى أنه الطفل المصاب بالشلل، أو وقف النمو، أو لعنة جديدة وقعت على الدنيا لأول مرة.

وقد تقول، وأنت على مقربة من اليأس: إن صاحبنا يهذي، فليس هناك طفل في منأى عن النمو.

أنت وصلت إلى هذه النتيجة العقيمة، لأنك لا تقرأ الصحف العربية، ولو قرأتها لم تحتج قط إلى أن تضرب خيالك بالسياط، ليوصلك إلى حل لغز صغير.

يا سيدي:

الطفل الذي لا يكبر أبداً هو الشعب العربي.

منذ قرنين، ونحن نسمع أن هذا الشعب صغير على الديموقراطية، لأنه صغير على الحرية.

تصور طفلاً يبقى مصراً على طفولته، من دون أن يتزحزح قيد شعرة، لمدة قرنين كاملين!

هل يمكن أن تبنى الديموقراطية خارج الديموقراطية؟

هل يمكن أن تترعرع الحرية خارج الحرية؟

متى وأين يكون ذلك؟

هذه الأسئلة سيجاب عنها بعد قرنين من الآن.

تعبير

هل سمعت بهذا التعبير:

(الرأسمالية الإنسانية)؟

ألا تميَّز غيظاً من جرأة بعض الصفات على انتهاك اللغة في علاقتها بالموصوف؟

نحن نشأنا على سماع تعبير (الرأسمالية المتوحشة) وإذا باللغة في قاموس النظام العالمي الجديد، تغير قواعدها وألوانها، وما بينها من علاقات.

ماذا تصنع حين ترى اللغة التي تحمل كل قيمك، وموازينك الأخلاقية، تخلع كل ملابسها، وتمشي في الشارع عارية؟

أكثر من هذا:

إنها تتبرج «تبرج الأنثى تصدت للذكر» لكل ما هب ودب من ثقافة «العولمة» التي يريدون حقننا بها بقوة السلاح، معنوياً كان هذا السلاح، أو مادياً، ظاهراً أو باطناً.

رأسمالية إنسانية.

كيف؟

أليس هذا محواً لكل ما تحتضنه الذاكرة من الشعر والفلسفة والأيديولوجيا، وكل ما سهر وكافح في بنائه الإنسان منذ خلق؟

أليس هذا اعتداء على الوعي الإنساني برمته؟

أليس هذا سماً فكرياً جديداً، عليه قليل من عسل اللغة؟

أيها السادة:

إذا أصبحت الرأسمالية إنسانية، يصبح الإنسان مفهوماً ميتافيزيقياً، لا واقع له.

ما بعد

أرهق كثير من سادتنا الكتاب أقلامهم المظفرة في الكتابة عن «ما بعد الحداثة».

هذا التعبير الذي خرج - حسب بعض المحللين - من عباءة «ما بعد الحرب الباردة».

أنت كإنسان لغوي، لا بد أن تتوقف أمام هذا التعبير: هل هو سؤال، أم هو مبتدأ في انتظار صياغة خبر له؟

كل سادتنا الكتاب يعتبرونه مبتدأ، واقفاً في شوق لاهث إلى الخبر.

هل تستطيع أن توافقهم؟

لا، إنك لا تستطيع، لأن الخبر الذي ينتظرونه، ينتظرونه قادماً من المستقبل. من نافذة في جدار الغد، في حين أن خبرهم، وخبرنا، يطل من نافذة في جدار الماضي.

معنى «ما بعد» عندنا هو «ما قبل».

إذاً، ما هو الخبر الذي نصوغه لما بعد من: ما قبل؟

لا شيء، إلا حين نجعل من الوهم جناحين يطيران بنا إلى حيث يختلط الغد بالأمس. يتحدان، فلا تعرف من ولد منهما قبل الآخر.

نحن في قفص ما قبل، فكيف يرهق سادتنا الكتاب أقلامهم في الكتابة عن: (ما بعد)؟

هل هذا هذيان؟

نعم. إن الهذيان - أحياناً - هو الحقيقة.

لا

الإرادة، حين تتجرد من غمدها، هناك في الأعماق، وتلبس وجودها اللغوي، تتجسد على شكل (لا).

لنفترض أن إرادتك الآن تجردت من غمدها النفسي، وتمثلت في لا كبيرة.

ترى: أي لا تريد؟

أي إنك تقول لا، لماذا؟

هل تقولها لتربيتك في البيت، وفي المدرسة؟ تلك التربية التي ألغت وعيك، وأثخنت ذاكرتك، وسجنتك في قفص من اللاءات. وما الفائدة، وقد فات الأوان؟

هل تقولها للدولة التي تعتقد جازماً أنها لا تنظر إليك تحت ضوء «حقوق الإنسان» ثم من يسمعك لو قلتها؟

هل تقولها للمجتمع، ذاك الذي يصفه رامبو بقوله:

«المجتمع مكون من أبواب مغلقة، ومحرمات، وقوانين، واضطهاد وقمع. وليس للمرء سبيل إلى الاشتباك مع تلك العناصر التي تكون المجتمع، والتي من خلالها يجب أن يعمل المرء لو أراد تأسيس مجتمع حقيقي».

(هنري ميللر، **رامبو وزمن القتلة**/ ترجمة: سعدي يوسف)

لمن تقولها؟

«قتيلك

قالت: أيهم؟ فهم كثر».

نقائض رصاصية

كنا نعرف أن (النقائض) مباراة كلامية. يمتدح شاعر ما قبيلته، ويعرض بقبيلة أخرى، فينهض له شاعر من القبيلة المعرض بها.

وقد كان من أسباب نمو هذا اللون الشعري - كما يقولون - حاجة الناس إلى نوع من التسلية، فقد كانوا يجتمعون حول الشاعرين، ويصفقون استحساناً لهذا أو لذاك.

ويقولون أيضاً: إن من أسبابه نمو العقل العربي، وتدربه على الجدل والحوار.

ومع ازدرائنا لهذا الضرب من التسلية، وهذا النوع من النمو العقلي، إلا أننا تقبلناه قبولنا لأي ظاهرة كلامية، لها أسبابها الموضوعية.

في الأسبوع الماضي نشرت **الحياة** ما يلي:

«. . . أفاد شهود أمس أن شاعراً يمنياً أطلق النار على زملائه خلال أمسية شعرية، فقتل ثلاثة منهم، ثم ما لبث أن قتل هو وابنه. . . إلخ».

أي عصر هو هذا؟

قبل ثلاثة عشر قرناً (تناقض) جرير والفرزدق، ولم نسمع أن أحدهما رفع عصاه على الآخر، بل إن أحدهما حين مات رثاه الآخر.

إذاً ماذا صنعت هذه القرون؟

هل التاريخ يتقدم، أو يتأخر؟

ألم يكن البردوني صادقاً حين قال:

هذه كلها بلادي وفيها

كل شيء إلا أنا وبلادي؟

مفردة

هل تذكر الرئيس الميتافيزيقي والأخلاقي التي كانت تثيره مفردة «الرفيق»؟

أين هي الآن؟

يقولون - الرفقة: تواصل ومشاركة والتزام. إنها سفر إلى هدف واضح، صعود مرهق إلى قمة جبل شاهق ترى من بعيد. . . فما الذي حل بها الآن، وما الذي حل محلها في ظل العولمة؟

حل محلها «الأنا» فقط.

كنت - أينما ذهبت - ترى من يتجادل في ما هو الأفضل: مفردة «الأخ» أم مفردة الرفيق!!!

كان بعضهم يقول: إن الأخ علاقة نسبية وعرقية، لا روحية. علاقة خارج الالتزام الإرادي. . . أما مفردة رفيق، فتدخل فيها الإرادة، ناسجة بذلك وشائج أكثر حرارة وصفاء.

ومن اللافت أنك حين تقلب نظرك في حقلها الدلالي ترى أن من معانيها: الاتكاء والاستعانة والانتفاع.

وأن من معانيها:

«الرفاق: حبل يشد به عضد البعير إذ خيف أن يهرب».

وهكذا صار الحبل حبلاً أيديولوجياً.

السؤال أين هي؟

وأين تخفي وجهك، وأنت ترى الرفاق بالأمس، وهم أنفسهم اليوم قادة المافيا في شعوبهم، وفي العالم؟!

أليست هذه هي القهقرى بقضها وقضيضها، مضافاً إليها (يا طرطرى تطرطري. . .).

غرس

من خطبة لزياد:

«نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا، ونذود عنكم بفيء الله الذي خولنا. . .».

هذا الغرس النفسي الذي عبر عنه زياد بن أبيه، هو الذي تعهده الحكم الأموي بالرعاية، وأحاطه بأسوار شاهقة من السيوف والرماح. إنه عقيدة «الجبر».

لا فائدة من استعراض ما أهدر من أطنان الكلام على تبرير وتعليل هذه العقيدة، أو نقيضها «الاختيار» المهم أنها أصبحت غرساً في نفوس الأفراد والجماعات. يقود إلى الاستسلام، أو الشلل الإرادي، على حد قول أحمد أمين في **ضحى الإسلام**.

هذا الشلل النفسي للأمة نلمسه في وجوه عديدة: نلمسه في القناعة الراسخة بأن القديم (لقدمه) أفضل من الجديد. ونلمسه في عدم الجرأة على السؤال، أو حتى انعدام عادة السؤال عند معظم الناس.

إن انعدام إرادة السؤال ليس فقط انعداماً لإرادة المعرفة، بل هو إلى جانب ذلك، رسوخ نوع من القمع في أعماق النفس. لقد عانينا

طويلاً من الأجوبة الجاهزة، لأنها سلبتنا مغامرة المعرفة التي أنبتت عليها الحضارة الحديثة، ولكن ذلك في نظري أقل فتكاً من انعدام إرادة السؤال.

إن الأجوبة الجاهزة في طريقها إلى الانقراض، ولكن ماذا تصنع أمة في داخل كل فرد منها سيف مصلت على أي سؤال؟

وقاحة

«الأمل الوحيد أمام الفقراء والبؤساء أن يتذكرهم الأغنياء. . .».

هذا ما قاله بوقاحة صاخبة داعية من دعاة النظام العالمي الجديد، وهو - حسب جميل مطر - توماس فريدمان في كتابه (اللكزس وشجرة الزيتون).

مسكين هو أمل الفقراء، فمنذ وجد الفقر والغنى على الأرض، وأمل الفقراء تتلاعب به الرياح. كل مصلح ينشق عنه الزمن، يتقدم وبين يديه حفنة من الآمال للفقراء.

كل فيلسوف يضع فلسفته في خدمة البؤساء، واضعاً أمامهم سلماً وهمياً يصعدون عليه إلى واحة الثمار الدانية.

كل شاعر يلهب خياله في اقتناص الصور البلاغية التي ستمحو الفقر والجهل والمرض، وكل انتهازي يريد الوصول إلى أهدافه المضمرة يلوح بيده المليئة بالآمال للفقراء.

نماذج بشرية، يقفو بعضها بعضاً، تصرخ بحناجر من نحاس، منذ بدء التاريخ حتى الآن، وكلها يفرش الأمل للفقراء.

وماذا بعد؟

بقي الفقر، وزاد الفقراء.

ولكن الظاهرة في زماننا هذا «زمن العولمة» تختلف عنها في سائر الأزمان.

لقد كانت هناك فلسفات، وكان هناك مصلحون، وكان هناك عمل لتضييق الهوة بين الفقر والغنى، أما الظاهرة الجديدة فهي:

اختفاء، أو في الطريق إلى اختفاء جميع الفلسفات والأصوات المبشرة بالأمل.

أليس هذا ارتداداً للإنسان؟

حبل الغسيل

قناة الجزيرة الفضائية أول نافذة تنفتح في جدار الضباب العربي الإعلامي، أو هي أول نافذة في جدار الصمت، أو جدار الظلام، يتسرب منها الضوء إلى وعي المشاهد العربي.

لكن ما أعنيه بـ«حبل الغسيل» هو برنامج من أهم برامج هذه القناة، وهو «الاتجاه المعاكس».

هل تتابع ما يحدث على هذا البرنامج؟

إنه فضيحة كبرى للعالم العربي من المحيط إلى الخليج، وتعرية لإمكاناته الثقافية والفكرية، بل وحتى الأخلاقية.

أرأيتهم كيف يتجادلون؟!

وهل قارنت بين الصورة التي ظهروا بها والصورة التي لهم في ذهنك؟!

فهذا كان يتربع في ذاكرتك كمفكر.

وذاك كان يحتل نصفها كأستاذ فاضل.

والثالث كان يحتل ما بقي من الذاكرة ككاتب لا يشق له غبار.

هذه هي الصورة التي كنت تحملها عنهم، في احترام ومهابة، وإذا بهم يتعرون من صفاتهم، ويبدون في «الاتجاه المعاكس» حفنة صغيرة تتراشق بالحجارة في الشارع.

أين الفكر والعلم وأخلاق الجدل؟

وإذا كانت هذه هي الصفوة المفكرة في العالم العربي، والتي تزعم أنها تحمل المصابيح لتنوير المجتمعات، فلماذا نوجه الرماح الخطية إلى الأميين الفكريين والمتطرفين!!

أيها الاتجاه المعاكس:

ماذا أقول لك؟

جسد

جسد من أساطير:
عشتار راحت تعدد آهاتها الساحرية
في القبلات الطويلة
ثم تجمعها في إناء من النار
وإذا أسلمت فيه أحلامها
كان ذاك الجسد
جسد من مواويل:
كل الذين أراقوا على الوهم أعمارهم
والذين تشظاهم الشعر
كل اللواتي احتقن من القهر
صبوا أمانيهم
في ربيع سيأتي
وحين أتى
كان ذاك الجسد
جسداً من مواعيد:
كل الزهور ستحيا بدون ذبول

وكل البحار بلا جزر
وها هي ليلى تعانق قيساً
واختفى كل لون من الفقر
إن الحياة استفاقت
على نفسها
وحين استفاقت
وأعطت مواعيدها
كان ذاك الجسد
جسداً من قبل
جسداً من مرايا
جسداً من فراعنة
خلقوا من جديد على النيل
جسداً من جسد.

بماذا؟

«لحظة الانعتاق الخاطفة

بماذا يفكر السهم

بالفريسة

أم

بالحرية. . . ؟»

هذا ما قاله عدنان الصائغ. إنه يطرح استفهاماً. والاستفهام - عادة - لا يعرف الإجابة، وإنما يقف بانتظارها، بشوق حيناً، ومضض حيناً آخر.

ولكن، ماذا تقول أنت، باعتبارك قارئاً واسع الرؤية، تتناسل بين يديها الاحتمالات، حين ينطلق السهم، الذي تعرفه جيداً، ترى بماذا يفكر؟

ماذا تقول؟

هل يفكر في الفريسة؟

إنه غير جائع، وليس بينه وبين الفريسة أي سبب للتوتر أو محاولة العدوان.

هل يفكر في الحرية إذاً؟

إن الذي يفكر في الحرية، لا بد أن يكون على فهم لها،

ولأبعادها العميقة. . . وعلى شعور حارق بضرورتها، بل وعلى استعداد لبذل الجهود المضنية في تحقيق شروطها. . .

فهل يعي السهم هذه المستويات، ليكون من حقه الشوق لمعانقة الحرية؟

هل يعي احتمال انكساره حول جدران شروطها؟

نعم. إنه يعي، وإلا لما كان سهماً.

هذا هو ...

«إنــمــا هــذه الــمــذاهــب أســبــاب

لــجــلــب الــدنــيــا إلــى الــرؤســاء».

هكذا قال أبو العلاء.

وهذا هو الواقع الحسي طوال التاريخ.

لماذا؟

هل يمكن في لحظة حيادية باردة أن نعتبر جميع الذين أبدعوا تلك المذاهب. نحتوها من أعصابهم وسهرهم وعذاباتهم وتوقهم إلى الغد البشري الأفضل. . . أن نعتبرهم دجالين، مزورين، وأفاقين؟

هل نعتبرهم جميعاً بلا ضمائر بيضاء؟

لا.

إنهم - أو معظمهم - صادقون، حقيقيون، وأهدافهم واضحة، ومتفجرة من ضمائرهم البيضاء. ولكن، ترى، بعد أن يبلوروا مذاهبهم، من يتولى مسيرتها؟

من يستثمر ظلالها؟

من ينصب نفسه حارساً لقطوفها الدانية؟

هذا هو السؤال.

لماذا ينشطر المذهب الواحد إلى مذاهب؟

ولماذا يحمل كل منها السيوف والرماح في وجه الآخر؟

«وكل مدينة

فيها أمير المؤمنين ومنبر؟».

لأن مستثمري تلك المذاهب لا يمكن أن يستمروا في احتلابها دون ذلك.

إنهم جميعاً ينشدون:

«إذا درت نياقك فاحتلبها»

الأمن الثقافي

يطرح عبد الإله بلقزيز في كتابه القيم (في البدء كانت الثقافة) ضرورة بناء مركز إعلامي عربي سمعي - بصري، ينهض بمهمة حماية الوعي العربي من الاختراق الأجنبي، ومن التفاهة الإعلامية الداخلية. على أن تكون هذه «القناة الفضائية» بمنأى عن أي نظام سياسي بعينه، وأن «تمكن الناس من الكم الضروري من المعلومات دون حجب، وتنفتح على كل الآراء والتيارات الفكرية والسياسية والاجتماعية والدينية في المجتمع».

هذه الدعوة الإيجابية الرائعة، ترى من سمعها من السياسيين أو الإعلاميين العرب؟

لا أحد.

إنها صرخة ضاعت مثل غيرها من الصرخات التي تعاقبت منذ قرنين حتى الآن.

إن من يتابع الفضائيات العربية يصاب بالرعب، لأنها أكثر تهديماً للوعي العربي، وأشد تزييفاً من أي فضائية معادية، الفضائية المقترحة ضرورية إذاً ولكن ما هو الطريق إلى تمويلها وتنفيذها؟

أقترح نقل ميزانية الجامعة العربية، تلك الجامعة التي لا نسمع بها إلا في وقت «اللاحاجة إليها» نقلها لتمويل هذه القناة.

أما المنفذون لها فهم نخبة من المثقفين العرب من المحيط إلى الخليج تختارهم الاتحادات الأدبية العربية.

هذا أو الطوفان.

طيور الروح

وأنا غابة من الحب

ما أحوج أطيارها

إلى صياد.

العداء بين الصياد والطريدة هو العداء الذي استمر طوال التاريخ، دون تهذيب، عداء أصبح مفردة مستساغة في لغة الحياة.

ليس هناك طائر يحب أن يصاد، يحب أن يفقد حريته في الانطلاق، يحب أن يكون بلا جناحين.

هذا هو ما نراه، ما تعودنا أن نراه.

ولكن هناك طيوراً تتحرق إلى أن تصاد. تتحرق إلى فقد أجنحتها، تلك هي طيور الروح، تلك التي تتكاثر في الداخل، ولا ترى من تطير إليه.

أعتقد أن القفص الصدري لكل إنسان مليء بالطيور، وهي مختلفة اختلاف الطيور: فبعضها كواسر، وبعضها حمائم، بعضها دجّنه الزمن، والآخر بقي دون تدجين.

ترى ما نوع الطيور التي في صدرك؟

إن كانت حمائم، فماذا تصنع بها في زمن العولمة؟ هل تصنع لها

برجاً شعرياً، ثم تطلقها في الأسحار، منتشياً برفيفها؟ لقد محت العولمة الشعر، وعذوبة الأسحار.

أما إن كانت كواسر، فهنيئاً لك.

إن هذا هو زمنك.

أطلقها على من أردت، أو من استطعت، دعها تفقأ حتى عيون الآخرين، فهذا الزمن لمن غلب، زمن يصرخ بملء أوداجه:

«القوة هي الحق».

وصية

جاء في كتاب **الوصايا** لابن عربي ما يلي:

«تـقـصـيـرك الـثـوب حـقـاً أنــقــى وأبــقــى وأتــقــى»

فأما قوله «أنقى» فلارتفاعه عن القاذورات والنجاسات التي تكون في الطرق. وأما قوله «أبقى» فإن الثوب إذا طال حك في الأرض بالمشي، فسارع إليه التقطيع، فيقل عمر الثوب، فإنه يخلق بالعجلة إذا طال بما يصيب الأرض منه، وأما قوله «أتقى» فإنه مشروع - أعني تقصير الثوب إلى نصف الساق. (ابن عربي، **الوصايا**، ص 19)

امتدت الآراء في ابن عربي من التقديس إلى التكفير.

وأهم آرائه يتلخص في وحدة الوجود، ووحدة الأديان، ولكننا نحن الآن أمام نظرية اقتصادية، لم يشتهر بها ابن عربي، وهي «نظرية تقصير الثوب».

هذه النظرية التي تستند إلى ثلاثة أركان هي النقاء والبقاء والتقوى.

أترى لو قصر جميع الناس ثيابهم كم من الأموال ستوفر!! وكم سيختفي ذلك المنظر البشع لصاحب الثوب الطويل الذي يمشي، وهو يجر ذيوله مثل مكنسة!!

لتذهب كل نظريات ابن عربي إلى الجحيم، ما عدا هذه النظرية الاقتصادية الناضجة.

الوجع

هل تعرفت مفردةً
يسكن الشعر في بهوها الرحب
مثل الوجع؟
الوجع:
تلك مفردة عاهرة.
سرقت كل ما في الحقول من النضج والزهو والأسر
ثم تشظت إلى كل قلب.
الوجع:
لن تراها وقد موهت نفسها بالضباب
أو كحلت نفسها بالوقوف وراء المواعيد
إنها عارية؛
عري روشة بيروت
عري السهام إذا انطلقت
عري أيّار لبنان
عري الصبايا

وقد نضجت لغة الجسد الغض
حتى أصاب المرايا الشلل. .
الوجع:
لغة في الجباه إذا ما تصبب منها التعب
لغة في الظهور التي قضها الانحناء
لغة في اللغة. .
لغة في المواويل
إذ يقف النيل منفرداً
والذين يعيشون منه بلا تعب أو مواويل
يصطنعون الفرح. .
الوجع:
لهب لا يضيء
ثُلّة من مسامير
أو هرمٌ من دموع. .
قافلةٌ من رعودٍ بلا مطرٍ سيجيء
ومجزرة دائمة. .
الوجع:
ما تشاهق في القلب مثل النوارس
ثم أفاق على هوة غادرة
الوجع:
أن تحدق فيك صباحاً

فتلعن كل المرايا. .

الوجع،

لا يساويه إلا الوجع. .

الوجع ما تراه على الأرض

هل في السماء وجع؟.

لقد ضعت

ستتعب
حتى اللجوء إلى شجر
لا ظلال له
حين تبحث عنك،
لقد ضعت في غابة
لا نهار لها،
ضعت حين استكنت
إلى صوت جدك
وهو يحدث في رهبة جارفة
عن قرى الجن
في اللامكان،
ضعت حين سدرت طويلاً
تفتش عن لؤلؤ
في الدنان،
وحين يطربك الانحراف
عن السير

فوق الطريق المعبد
حيث يموت الرهان. .
وضعت
لأن البراكين
داخل قلبك
جاولها الصمت
حتى الهوان،
وضعت
لأنك وحدك
كنت تفتش في الأرض
عن لغة واحدة. .
وضعت
لأنك أنت.

الأوهام الدائمة

«لقد مات الملايين في الماضي من أجل أوهامهم التي آمنوا بها، أما الآن فقد جاء الوقت ليعيشوا من أجل الحقيقة، مهما كانت قاسية وصعبة، متجهين عبر النهر الحي المتدفق إلى الضفة الأخرى، حيث يبدأ التاريخ الحقيقي للإنسان: تاريخ الحرية».

فاضل العزاوي

هل هناك فرق بين طوباوية الشعراء وطوباوية الفلاسفة؟

الفرق فقط في بناء الصورة، أما النتيجة فهي واحدة.

ها هو فاضل العزاوي يبني صورة رائعة لضفة أخرى يبدأ عندها تاريخ الإنسان الحقيقي: تاريخ الحرية.

إذاً ليس علينا سوى امتطاء زورق صغير لنعبر من هذه الضفة الجرداء إلى تلك المفعمة بالخصب، خصب الحرية، وانتهاء الأوهام.

كيف تنتهي الأوهام أيها الطوباوي المتأخر؟

أحتى الأوهام تريد سلبنا إياها؟

ماذا بقي لنا غيرها؟

دع عينيك تجوبان كل الجهات... فهل تجد ضفة في الدنيا ترقرق فيها الحرية؟

كل الجهات مليئة بالقتل والتشريد والعقم والجهل والتعصب والفاقة، ولا تملك الأكثرية البشرية تجاهها إلا ملجأ الأوهام.

أرجوك دعنا من هذا الملجأ.

... ولكنه ضحك

لم أخف على كبدي من التمزق ضحكاً، أو من أن تطير شعاعاً مثل نفس قطري بن الفجاءة، إلا حين سمعت تعبير (سلام الشجعان).

كيف تهان اللغة إلى هذا الحد!!

ما الذي يقصدونه بالشجاعة؟

الشجاعة الآن لم تعد عرض عضلات تحت الأضواء، مثل عرض الأزياء، إنها علم واقتصاد وتوازن اجتماعي، وصوت يفرض استماعه في العلاقات الدولية.

أين تتوفر هذه الشروط حتى نقول إن هذا السلام أصبح سلام شجعان!!

هل تتوفر في يد السيد عرفات؟

إذاً لماذا لا نحترم اللغة، ونسمي ما يحدث سلام الجبناء؟!

– أراك حزيناً على اللغة. لقد انتهكت هذه اللغة منذ زمن سحيق فلماذا تذرف عليها أحزانك اليوم؟

– هل سبق وأن انتهكت اللغة؟

– ألا تعلم بذلك؟

– لا. متى؟

- لقد انتهكت منذ «قفا نبك» حتى الآن، انتهكها الشعراء، وفئات أخرى لا أستطيع أن أسميها بأسمائها.

- إذاً أنت جبان.

- وهل قلت إني شجاع؟

- إذاً لماذا تضحك دامعاً على سلام الشجعان؟

- لأنه ضحك بلا دموع.

التدجين - 1

حصد الإنسان من التدجين سنابل كثيرة. وكان أوسع فخ نصبه للحيوانات الأخرى. لقد كان ظاهره الرحمة، وداخله من قبله العذاب.

ظن الحيوان المسكين أن استئناسه يعني إقامة وشائج صداقة متكافئة بينه وبين الإنسان، أو هي (أنسنته) ولم يكتشف الفخ الواسع إلا بعد أن أصبح حيواناً حقاً.

وبما أن الاستعباد والاستغلال لا يعرفان حداً. ها هو التدجين الذي مكن الإنسان من قهر الحيوان وإذلاله، وتقطيعه إرباً. . تجاوز الحيوان إلى الإنسان نفسه.

أخذ الإنسان يدجن بعضه بعضاً:

يدجنه بتزييف الوعي.

يدجنه بالرضا بحالته.

يدجنه بأن هذه طبيعة الأشياء.

يدجنه بغرس خياله بالوعود.

يدجنه بالاستغلال الاقتصادي.

ويدجنه بالقهر.

بودي أن أعرف كيف دجن الحمار أول مرة! أو هل احتاج إلى تدجين أصلاً؟

أظن أن الوداعة التي تملأ الحمار من الرأس إلى القدم هي المدجنة الأولى. تماماً مثل بعض مثقفينا الذين دجنتهم الثقافة نفسها إن كانت هناك ثقافة مدجّنة ومدجِّنة.

التدجين - 2

لقد دُجِّن الإنسان لأول خطوة بضروراته البيولوجية. وهذا تدجين إيجابي، لأنه يتمشى مع نمو الحياة.

وفي الخطوة الثانية دجن بالأساطير. وهذه هي المرحلة الطويلة التي لم يستطع الخروج منها حتى الآن إلا نصف خروج.

أما الخطوة الثالثة فقد تم تدجينه على أيدي الحتميات المتواترة: الحتمية البيئية، الحتمية الاجتماعية، الحتمية التاريخية، الحتمية الثقافية، ثم حتمية التطلع إلى المستقبل.

تعجبني هذه الأخيرة:

حتمية التطلع إلى المستقبل.

أهلاً بك أيتها السيدة.

لماذا أنت في عجلة من أمرك؟

هل اكتفينا من حتمية التطلع إلى الماضي حتى تلقين بثقلك على أكتافنا؟!

أيتها السيدة:

إن أكتافنا رازحة تحت صخور حتمية التطلع إلى الماضي. ولا

مكان فيها حتى لحتمية النظر في الحاضر، والعمل على تحسين شروطه.

أيتها السيدة:

لقد اكتسحت حتمية النظام العالمي الجديد كل الحتميات، وجندتها لخدمتها، فماذا تصنعين الآن؟

إحداها

أعتقد بوضوح أن الدراسة التي قام بها الأستاذ فؤاد إبراهيم (الفقيه والدولة/ الفكر السياسي الشيعي) هي دراسة فاصلة.

إن قراءة السياقات التاريخية والعقدية والفقهية «منذ انتهاء عصر النص» حتى بداية «مرحلة ما بعد النص، أي بداية العقلنة التي فقد فيها النص حضوره المركزي» إن هذه القراءة لهذه السياقات جاءت واحدة من أهم القراءات لهذا الفكر على الإطلاق.

إن أهم ما في الكتاب نقطتان مركزيتان هما: بلورة ما في رسالة الشيخ النائيني من عناصر ألقت كل الركام الفكري السابق عليها إلى البحر. والتقويم الذي قدمه ص 284 وما بعدها، لأطروحة «ولاية الفقيه» تلك الأطروحة التي ما أن بدأت حتى ترنحت، ودخلت في قبضة التآكل والانقراض.

إن خطوة فؤاد إبراهيم - في ما أقدر - ستتبعها خطوات في الرسوخ والاتساع نفسهما. وليس كتاب الأستاذ توفيق السيف (ضد الاستبداد) إلا أحداها.

«وأول الغيث قطر ثم ينهمر».

حوار

- ماذا تفعل لو جاءت الحرية «منقادة إليك تجرر أذيالها؟»

- سأصرخ صراخ الشاعر القديم:

أبيني أفى يمنى يديك جعلتني

فأفرح أم صيرتني في شمالك؟

- لماذا. هل في الحرية يمين ويسار؟

- ألك شك في ذلك؟!

أترى أن من يستعبدون الآخرين، وينهبون كدحهم، لا يملكون الحرية!! إنهم من فجر التاريخ حتى الآن، وهم يتقلبون تحت أفيائها.

- أتسمي هذه حرية؟!

- ماذا أسميها إذاً؟

- سمها طغياناً وظلماً، واعتداء على كرامة الإنسان، بل سمها (شركاً) لأنها دعوة إلى عبادة غير الله.

- إذاً سأغير رأيي وأقول لها ما جعله شوقي على لسان قيس:

تــعــالــي إلــى وادٍ خَــلِــيٍّ وجــدولٍ

ورنــة عــصــفــور وأيــكــة بــان.

- وادٍ خلي؟ أهكذا قلت؟

- نعم.

- ماذا تصنع بالحرية، أو تصنع بك، في وادٍ خلي؟

إن الحرية كضوء الشمس لا يمكن أن يتمتع بها فرد، من دون سائر الأفراد.

حريتك أن تكون وسط مجتمع حر.

- لقد فهمت الآن.

- ولكن الوقت متأخر، لذا فهي لن تأتيك.

التعب

أرح من جناحيك
إنك تركض خلف طيور سرابية غادرة
ألَم تتشظ شرايين قلبك بعد؟!
إلى أين نحمل أشلاء ذاكرة ليس فيها سوى
الرعب منفلتاً، وقوارير أسطورة ناقصة؟!
متى ستعلّم قلبك ألا يحب المصابيح
تلك التي تهب الغافلين عن الهاوية
رؤية الخطوة التالية؟
متى ستعلّم قلبك ألا يحب
فهذا زمان الكراهية الفاغرة
أرح من جناحيك
وانس الأنين إذا الجمر نازل كفيك.
هذا زمان الترجل عن خيلك السادرة
نحو لا شيء.
إنك في قبضة الهوة الجائعة
فقف حيث أنت.

هوة الناس ذات قرار
ولكن هوَّتك العربية ذات الأصالة
والمجد (والخيل والليل. .) والهرولة. . .
لا قرار لها.

إنه الحب

«السياسي العربي مثل راكب قطار لا يعرف وجهته، ومع ذلك فهو يصر على أخذ الشعب كله معه» جهاد الخازن.

الأستاذ جهاد الخازن يظن أن في هذا السلوك هدراً لإرادة الشعب، وإلغاء لخياره. وأعتقد أن مثل هذا الظن ليست له أجنحة.

إن السياسي العربي، حين يفعل ذلك، فهو منقاد للحب الذي يملأ قلبه لشعبه، ومنقاد - كذلك - لتاريخه المجيد كله.

ألم يقتل ذاك المحب حبيبته، ثم وقف عليها ذارفاً أحزانه!!

حكمت سيفي في مجال عناقها
ومدامعي تنهل في خديها
فوحل نعليها وما وطئ الثرى
شيء أعز علي من نعليها... إلخ.

ألم يكن من مقدسات حضارات عديدة أن السيد، إذا مات، تدفن نساؤه معه حيات!!

لماذا يذهب السياسي العربي وحده في القطار الذي لا يعرف وجهته؟!

ألا يحتاج إلى حاشية يضحك عليها؟

ألا يحتاج إلى زمرة تصفيق حين يشتهي أن يلقى خطاباً؟

ألا يحتاج إلى أن يسمع هدير الحناجر: «بالروح بالدم نفديك يا...»؟

الجسر الغائب

أين أنت؟

منذ نسر لبيد تهجيت خطوك فوق الصخور وفوق المياه.

وحتى العيون التي يعرف السهم كيف يغادر منها إلى كل قلبٍ، تهجيت خطوك في ظلها فرحاً بالسهام.

بأي الكهوف تناءيت؟

فزعت إلى كل ما يتخطى القناديل، إذ يشهر الدرب أشواكه الحالكة.

وسألت الحجارة، تدمي خطاي، إلى أين أسرج ريح جناحيه مبتعداً؟ كيف أسلمني للذهول الطويل؟

هل يسمونك الشعر؟

كنت صديقاً لنافورة تتشاهق

في القلب حتى السماء

لماذا تركت شرايينها دون ماء؟!

أيها الشعر يا لؤلؤاً لا يثقب

كيف خرجت من البحر، مختلساً غفلتي،

واختفيت؟

إلى أين أذهب

حين تنوء العروق بثقل الجروح
التي تملأ الكون؟
إلى أين أذهب؟
كل الجسور تداعت، ولم يبق غيرك
يا جسري الغائب المنتظر.

في الصحافة

لو طلب منك أن تضع تعريفاً للصحافي السياسي، فما هو التعريف الذي ستضعه؟

ستقول:

إن الصحافي هو الذي يحدثك اليوم عما يحدث غداً، لا عما حدث بالأمس.

لكن ألا ترى أن تعريفك هذا يخرج منه الصحافيون العرب زرافات ووحداناً؟ ثم - وهذا هو الأهم - كيف يستطيع صحافي أن يحدثك عن غد، من دون أن يحدثك عن الأمس واليوم؟! أليس هذا بتراً لتيار الأحداث؟

قد يكون ذلك، لذا سأعيد صياغة التعريف:

الصحافي هو الذي يحدثك اليوم عما يحدث غداً، مستضيئاً بما حدث بالأمس واليوم.

لماذا لا تحذف (مستضيئاً) هذه من التعريف؟

ماذا أضع مكانها؟

ضع مكانها: (كرد فعل لما حدث) لأن ردود الأفعال هي التي تحكم سلوك العربي، لا الاستضاءة.

ماذا يحدث لو وافقتك على تعديل التعريف مرة ثانية؟

يحدث أن الصحافيين العرب سيخرجون منه كما خرجوا أول مرة.

لماذا؟

لأن السلوك النابع من ردود الأفعال تنحصر رؤيته في الماضي، ولا يمكن أن تتجه لاستشراف المستقبل.

- ألا تستثني أحداً؟

- أستثني سبعة في المئة.

- نعمة. لأن «الكرام قليل..»

محادثة

أرجو ألا تسخر مني:

لقد سمعت كثيراً عن الديموقراطية والاستبداد. ولكني لم أفهم معناهما حتى الآن، فهل تستطيع تعريفهما تعريفاً بسيطاً، يكون في متناول فهم «أمي أبجدي» مثلي؟

على الرحب والسعة:

الديموقراطية هي أن يخاف الحاكم من الشعب. والاستبداد هو أن يخاف الشعب من الحاكم.

ما هذا؟

خوف، خوف... هل تريد أن تقول: إن العالم العربي كله، ليس فيه ديموقراطية، لأن أي عربي - مهما ارتفعت منزلته - يخاف من أي شرطي - مهما انخفضت مرتبته -؟

نعم، هذا ما أريد قوله.

أنت في قبضة المبالغة أو التشاؤم، على الأقل: لا بد أن تكون هناك ديموقراطية نسبية.

لا، هناك استبداد نسبي.

طيب، ما السبب؟

السبب ما أوجزه نهرو حين قال: «الحرية عادة يمكن أن تنسى».

لم أفهم.

أي إن العالم العربي لم يتعود على الحرية منذ قرون سحيقة، فنسي أن هناك مفردة في القاموس الاجتماعي، اسمها الحرية أو الديموقراطية.

لماذا؟

- هل الليل يعدو وراءك وحدك
مفترساً، غادراً، في أمان من الفجر؟
لماذا تقول لجرحك: أكمل خطاك؟
- لأن الحياة التي وهبتنا الأمومة والدفء
والأمنيات الطويلة قد أصبحت عاهرة.
- لتكن داخل الوقت
صفق لنهرٍ يجف على عوده مثل موت طويل.
وخذ حفنة من أعاصير
واقذف بها شجراً
لا يزال يحن إلى ثمر ناضج واقتطافٍ نبيل.
لا تقل أصبح الوقت قبراً
فهذا زمان الترجل عن كل قافية وصهيل.
- كيف لي أن أغادر ذاكرتي،
أن أغادر كل حقول السنابل، تلك
التي نضجت في الفؤاد؟
- خذ قليلاً من الزعفران من الشيخ

متولي، وزجاجة ماء ورد
من الشيخ صدام عبد المتجلي،
ثم امزجهما معاً، وهناك
ستغادر كل شيء
- سأجرب
- جرب. وحين تغادر نفسك
قل لي.

الرجفة

أغــرك مـــنـــي أن حـــبــك قـــاتـــلـــي
وأنـك مـهـمـا تـأمـري الـقـلـب يـفـعـل؟

لا أذكر كم مرة كتبت تحت تأثير الانفعال بهذا البيت؟ إنه انفعال صاخب، يتقافز من تلك الرجفة التي تتكرر كلما قرأته.

عقدتي أني كلما قرأت شعراً، أطالبه بأن يولد في هذه الرجفة، فإذا لم يولدها، أعدت قراءته كنص فقط، لا كشعر.

أعرف أن ما أقوله يستحق الرجم من أساتذتنا النقاد، فحضراتهم يعترفون بهذا المسمى انفعالاً، إنهم مغرمون بإحصاء الكلمات التي غابت عن النص، مغرمون بقراءة الفراغات التي في الصفحة/ القصيدة.

كان الله في عونهم. أما أنا فمنشغل بلغة الرجفة.

الرجفة بالشعر تذكرني بمقولة التطهير التي وقف أمامها الدهر، من دون أن يأكل أو يشرب.

حين أقرأ شعراً يرجفني، أحس بأني تخلصت من أشياء كثيرة. من أعباء، من وحول كانت تنمو في داخلي، وتلقائياً. تكون على عيني نظارة أخرى لرؤية العالم.

أينك أيتها الرجفة

جمرها

دخلت:
فتنفس جمر رقيق على كل ذاك الرماد
الذي كان
فوق الوجوه، وفوق المقاعد،
فوق الكؤوس، وفوق السهر.
كنت أرقب:
كيف تكون الزلازل حقلاً
كيف تكون البراكين دالية ناضجة!
وكيف أكون أنا
حين أصنع من كل ذاك
جواداً (مكراً، مفراً)
أصول به، وأجول
أمام ارتعاشتها المقمرة
وهي تضحك!
أيها الجمر:
إني رماد

أتعلم؟
منذ الولادة كنت رماداً
ولا جمر لي
أستقي منه
معنى (أكون وألا أكون)
أغثني يا جمر
حول دمي المترمد جمراً
حول دمي المترمد شعراً.

كتاب

- ماذا تقرأ؟

- أقرأ الكتاب الرمادي.

- ماذا تقول؟! لقد سمعنا عن الكتاب الأخضر، والكتاب الأصفر، ولكننا لم نسمع قط. . . أن هناك كتاباً رمادياً.

- اسمع الآن.

- من مؤلف هذا الكتاب؟

- مؤلفه المثقفون العرب.

- هذا رائع. إذا لا بد أن يكون كتاباً «جامعا مانعاً» أو أنه كتاب «فاتح» لجميع مصادر الضوء، «مغلق» لجميع منافذ الظلام.

- لو كان كذلك لما أصبح رمادياً.

- ماذا يكون إذاً؟

- الكتاب الرمادي هو الذي لا تستطيع من خلاله الوصول إلى مفهوم واضح، أو مصطلح محدد. إنه يقدم جميع المفاهيم والمصطلحات، وهي غارقة في الضباب، يطأ بعضها رقاب بعض.

- لماذا؟

- لأن مثقفينا مصابون بمرض فصل المادة عن الصورة. وهو

المرض الذي أصاب المفكرين القدماء من «المنطق الصوري» حسب رأي عالم الاجتماع الدكتور علي الوردي.

- ما أعراض هذا المرض؟

- أهم أعراضه الانفصال عن واقع الأفكار والبحث فيها وهي في الفضاء المطلق.

البؤس

أول سمة من سمات المثقف العربي، في رأي المفكر الكبير عبدالله العروي، هي البؤس.

والبؤس - أعاذك الله من أنيابه - هو المشقة والفقر، وهو الاكتئاب والحزن، وهو اشتداد الحاجة.

ترى لماذا تتراكم هذه المخالب كلها على المثقف (العربي) المسكين؟

يجيب العروي:

لأنه غير راض عن الأوضاع التي يعيش فيها.

ولأنه يرفض ضعف المجتمع واستلابه.

ثم يقول:

«ويقود البؤس كثيراً من المثقفين إلى اليأس من إصلاح شؤون المجتمع، يأس له تاريخ طويل».

«. . . يأس له تاريخ طويل»

ترى إلى أي عمق سحيق يمتد هذا اليأس يا أستاذ العروي؟

أراك صامتاً.

لماذا لا تقول إنه يغطي التاريخ العربي كله؟

لكن السؤال هو: لماذا نختص هذه الفئة المنكوبة (المثقفون) بهذا اليأس، دون غيرهم من عباد الله؟

أليس لليأس عينان يبصر بهما؟

لماذا لا يذهب إلى الفئات المحصنة بالرضا عن الأوضاع، وقبول الضعف والاستلاب؟!

هل تجيب أيها اليأس؟

الإرادة

«إنما يختص الإنسان - من حيث هو إنسان - وبه تتم إنسانيته وفضائله، هو الأمور الإرادية»

ابن مسكويه

إنسانية الإنسان ليست جوهراً مستقراً ثابتاً منذ الولادة. إنها - حسب رؤية ابن مسكويه - شيء قابل للنمو وقابل للذبول. شيء يتداوله الزيادة والنقصان. شيء يتم أو لا يتم.

إن الذي يدفع إنسانية الإنسان إلى حقل النمو والاكتمال هو الممارسة الإرادية، والذي يدفعها إلى الضمور والنقص هو كفّ تلك الإرادة عن تفجير نشاطها.

من هنا، وتحت هذا الضوء، نرى ونلمس الفرق الهائل بين النظم الديموقراطية، والنظم الاستبدادية:

في ظل الأنظمة الديموقراطية تتفتح إرادة الإنسان، وتشرع الأبواب أمام الاختيار. الاختيار الذي لا يمكن - بدونه - تحمّل أي مسؤولية للفرد أو المجتمع.

أما في ظل الأنظمة الاستبدادية، فإن الإرادة تكون مقموعة، والاختيار مشلولاً، وبذا تدخل إرادة الإنسان في خريف دائم حتى الموت والانحلال.

الاستبداد ليس فقط ضد موازين الأخلاق أو المواطنة، بل هو - إلى جانب ذلك - ضد إنسانية الإنسان. إنه سلب لما يجعل الإنسان إنساناً. وهل هناك شناعة أكبر من هذه؟!

الجذور

جميع الأغصان تتحول إلى جذور:

تلك مقولة بعيدة كل البعد عن عالم الأشجار. إنها تنظر إلى الإبداع في مراحله المختلفة.

حين نتفق على أن الشاعر الجاهلي إنما هو «مفرد بصيغة الجمع» بمعنى أن جميع الشعراء الجاهليين يشكلون صوتاً واحداً، أو نسيجاً واحداً، فإن جميع هؤلاء الأغصان المتفرعة من شجرة واحدة، قد تحولوا إلى جذر للمرحلة التي أتت بعدهم.

أبو تمام لم يبق غصناً دائم الثمر. إنه حين انتهت مرحلته - مهما كانت طويلة - انتهى كغصن، ولكنه امتد كجذر، لأنه تحول إلى مغذ للمراحل القادمة، أو درجة عالية في سلم استمرارها.

الجواهري غصن رائع في مرحلة من أكثر المراحل اضطراباً، وعشقاً للضوضاء. وقد أعطى ثمار تلك المرحلة ولكنه انتهى كغصن، وانضم إلى قافلة الجذور.

بهذه الرؤية للإبداع والمبدعين نتخلص من أي نظرة سلبية، أو اختلال في تقييم المبدع، وإعطائه حقه، من دون الدخول في غابة إنشائية تفضي إلى غابة إنشائية أخرى.

ما أكثر جذورك أيها الشاعر الحديث!! ومع ذلك فأنت محتاج إلى كثير من الجذور الأخرى.

التوقع

ما الذي يضع في عنقك سلسلة قاهرة، تقودك إلى قراءة كاتب ما، أو يضع جداراً شاهقاً بينك وبين قراءة كاتب آخر؟

إنه التوقع:

حين تقرأ كاتباً تتوقع ما سيقوله، ينمو ذلك الجدار الفاصل بينك وبينه. الجدار الذي يمكن أن نسميه لا جدوى القراءة. فأنت منذ العنوان تعرف كل ما يريد قوله، لأنه مجرد تكرار.

أما الكاتب الذي لا تتوقع ما سيقول، فإنك تنشد إليه لأنه لا يكرر، ولا يقلد، بل يضيف لك شيئاً ما. هذه الإضافة هي ما يشدك إليه.

لكن هناك من الكتاب من لا تعرف معه التوقع ولا تعرف اللاتوقع. إنه يملأ صفحة كاملة في جريدة ما، أو يملأ كتاباً، وتبقى أنت في دوامة السؤال المرهق: ماذا يريد أن يقول؟!!

معظم الصحف تحتشد بهذا النوع من الكتاب الذين تتحول عندهم اللغة إلى «حشف وسوء كيل» كما يقول المثل القديم.

كيف يستطيع إنسان أن يكتب فقرة واحدة بدون معنى، بدون ترابط، بدون فكرة يلاحقها وتلاحقه، فضلاً عن كتابة صفحة كاملة أو كتاب؟!

إنه الارتزاق. أليس كذلك؟

جواب طويل

ما الذي يجعل القلب منفرطاً كضياء المصابيح؟
ساعة تتوحّد فيها مع البحر،
تضحك أمواجه كصبايا غدير امرئ القيس.
أو ساعة مع زهرة
تتسابق ألوانها في شرايين قلبك،
ثم يقول لك العطر: خذني،
فينبت في ساعديك الشلل.
أو ساعة هامدة
مثل قبر محاط بأبيات شعر.
أو ساعة شاردة
مثل قلبين لا يعرفان اصطياد العصافير،
لا يعرفان سوى روعة النار وهي تصاهر بينهما.
أو ساعة العيد
حين تدق، تدق . . وليس هناك أحد،
إنه النوم
سيِّد هذا البلد. .

أو ساعة فارغة
كفؤاد أم موسى،
أو كفؤادي
وقد هزّ مليون نخلة
ولا حشف أو رطب.
أو ساعة نادرة
مثل دفء الرغيف الذي لا يراه الملايين إلا إذا ما احترق.
أو ساعة شاعرة
مثل روشة بيروت،
أو مثل ما يتكدس في النيل من صور لا تُرى.
هو ذاك الذي يجعل القلب منفرطاً
كضياء المصابيح.

السكتة القلبية

حين نسمع «السكتة القلبية» نعرف أنه الموت، زار شخصاً ما على عجل، ثم لا نرتجف، لأنها حالة فردية، إذا لم تحدث، يعرف الموت كيف يحدث غيرها.

ولكننا حين نسمع «السكتة الحضارية» نتوقف قليلاً، لتجرع التعبير، ثم نرتجف هولاً، لأنها حالة عامة، حالة تشمل الأمة بأسرها. أرأيت الضباب حين يكون في مأمن من الشمس؟ هذه حالنا مع هذا التعبير. إنه سيغطي أبصارنا ومشاعرنا، وما نلجأ إليه في الخيال.

قد تكون هناك أمم أصيبت بهذا المرض «السكتة الحضارية» ولكن لا أعتقد أن هناك غير الأمة العربية قد أصيبت به، بهذه البشاعة الفاجعة. أمة مسلوبة الإرادة، ولذلك أصبحت مسلوبة الأرض والمال والكرامة. أمة كل شيء فيها مشاع أمام كل القوى وكل الذئاب وكل الثعالب، تلك التي «قد بشمس وما تفنى العناقيد».

- ماذا دهاك؟ لماذا هذا اليأس الصاعق؟

قد تكون هناك في الأمة سكتة ثقافية، أو سكتة اقتصادية، أو، أو.. مما يحدث شللاً في عضو ما، تتكاتف جميع الأعضاء بعد ذلك

لإعادته إلى شبابه. أما أن تكون سكتة حضارية شاملة فهذا عين اليأس وأذنه ويده.

- هل سمعت ما قال درويش؟

«لم نعد قادرين على اليأس أكثر مما يئسنا».

مخض الماء

يشبه القدماء الفعل الذي لا جدوى منه بمخض الماء.

إنها لحظة سوريالية عذبة أن تشاهد فرداً منهمكاً في هز السقاء، ثم تكتشف أن الذي في السقاء ما هو إلا ماء قراح.

لحظة سوريالية، لأنها تطلق كل أجنحتك لاصطياد الاحتمالات الكثيرة التي سوف يتمخض عن أحدها ذلك السقاء الذي أشبع هزاً.

وهي سوريالية، لأنها مثل القصيدة التي يصفونها بأنها حديثة، أو الأصح «ما بعد حديثة» والتي تتلخص سماتها بأنها: لا تقول إلا نفسها، ولا تنطلق إلا من نفسها، ولا تتوجه إلا إلى نفسها.

جدران لغوية أربعة، لا باب لها ولا نوافذ، وحتى مفرغة من الهواء.

في أيامنا الحنظلية هذه كثرةُ مخضٍ كثرة مخيفة:

الكتب تمخض ماء.

والجرائد تمخض ماء.

والفضائيات تمخض ماء.

وبوسعك أن تمد عينيك إلى كل مدى، فتجد مخض الماء في حقل الاقتصاد والسياسة والاجتماع، والصراع الحضاري.

إننا أمة تتقن مخض الماء.

شغف

كان المتوكل أشد الخلفاء العباسيين شغفاً بالورد، وقد بلغ من فتنته بالورد أن حرمه على الناس قائلاً: «أنا ملك السلاطين، والورد ملك الرياحين، فكل منا أولى بصاحبه».

يمكن أن يدفعك الاستغراب من هذا إلى الظن بأنها حادثة أو صورة نادرة في التاريخ، إن لم تكن من شطحات الخيال.

لا، الصورة ليست نادرة، إنها حقيقية، تتكرر في صور مختلفة، وعلى امتداد تاريخنا كله.

كان أحد الخلفاء في قصره العامر، ومن خلال شرفة شاهقة مطلة على بستان وارف، كأن الربيع قد «ألقى رحله - فيه - وتوطنا» سمع الخليفة صوتاً آسراً يرتفع بالغناء.

كان الصوت لا يقاوم سحراً، لا لأنه عذب وحسب، ولا لأن لحنه غريب، بل لأنه إلى جانب ذلك شجي إلى حد السيطرة على الشغاف.

هنا، صاح الخليفة مغضباً علي بهذا الذي رفع «عقيرته» بالغناء. وحين جاءوا به، التفت إليهم قائلاً: «اخصوه» فكان ما كان.

هل تعلم لماذا؟

السبب أن من الخصال الشريفة التي تغنى بها الشعراء لهذا الخليفة، شدة الغيرة.

وحيث إن نساءه وإماءه كن قريبات من البستان، خشي أن يشغف إحداهن حباً لرقة صوته، ولذا أمر بأن يخصى.

أليس ذلك عدلاً؟!

ألا يمدح الخليفة على غيرته الكريمة؟!

قيس الجديد

كـل يـغـنـي عـلـى لـيـلاه مـتـخـذاً

ليلى من الناس أو ليلى من الخشب

نحن نقابل الذي يغني على ليلاه، وهي من البشر، بعاطفة حانية. نصغي إليه بنشوة ورحابة، ونقول له ما قال أبو نؤاس لدعبل حين أنشد شعراً:

«أحسنت ملء فيك وملء أسماعنا»

لكن ماذا نصنع، أو نقول، لمن يغني على ليلاه، وهي من الخشب؟! هل نقول له: من أي غابة أتيت بهذا الخشب الأنثوي الصقيل؟! أم نقول له، بكل فصاحة: ثكلتك أمك؟!

وإذا كان هذا التقسيم لليلى، فلماذا لا يكون هناك تقسيم لقيس، فيصبح عندنا قيس من الناس، وقيس من الخشب. قيس من الصدف وقيس من اللؤلؤ؟

ألا تعتقد أنه موجود؟

بلى. إنه موجود، ولكن:

حين تريد الكلام معه عليك أن تضع على فمك ابتسامة بيضاء، وتغض طرفك قليلاً، ولابأس أن تخفض له جناح الذل من التواضع،

ولا تنتظر منه أن يكلمك سريعاً، فهو سيغرس عينيه في الأفق البعيد، وينادي ذاكرته، ثم يتفضل على اللغة بأن يأخذ فيها بضع كلمات «فاقعة» يصوبها عليك بسكينة ووقار.

هل عرفته؟

إنه المثقف. قيس هذه الأيام. عاشق المفاهيم والنظريات.

نخلة

ها هو القلب
منذ انفردتِ به
يستجير بظلك.
إن امتدادك في الصحو
يشعره بالشموس القريبة
يلهمه لغة الرفض
أنشودة القافلة:
لا شيء بين اثنتين
العدالة والمشنقة.
وكان اختياراً فريداً
بجمر النداءات
في البرعم الغض
ألاّ حياة بلا قافلة.
إن امتدادك في الصحو
ينبت فيّ اليقين
بأن الذي حاصر الضوء

يفقأ عينيه
وأن النباح الذي يملأ الأفق
سوف يفتش عن مخبأ
لن يراه.
وإن امتدادك في الصحو
باب إلى رؤية النهر
ذاك الذي يتدفق
من تعب الكائنات
ليجرف كل الغثاء
الذي دنّس الأرض.
إن امتدادك في الصحو
يزرع أجنحة غير مرئية
في الدماء
ويودع في كل رأس حديقة
وجمراً نقياً بكل إرادة
ويعلي الأناشيد
فوق شفاه الأمل.
إن امتدادك في الصحو
يرضعني مرة ثانية.

ثم ماذا؟

«بكت المئذنة

حين جاء الغريب - اشتراها

وبنى فوقها مدخنة»

(أدونيس)

حين تقرأ شعراً لأدونيس ضع ذاكرتك في سلة المهملات. وابحث على مهل عما وراء الكلمات من جذور عميقة لا ترى.

في هذه الأبيات سأستل الذاكرة من غمدها، وسأفهم بصورة مباشرة معنى المفردات. المئذنة، بكل ما تزرعه في السمع من إيحاء، والمدخنة بكل ما يجعل الرؤية البصرية تجفل، مفردتان واضحتان: أما الغريب الذي يشتري المئذنة، فهو الذي بيننا وبينه بعض الضباب.

كل شخص ليس له جذور أو علاقات، هو غريب، حتى لو كان بين أهله، فالجذور والعلاقات لا معنى لها حين تكون خارج الإحساس الفردي بها. وحين نأتي إلى حقل العقائد، نرى أن هناك الملايين لا علاقة لهم بمعنى تلك العقائد ومقاصدها، وما هو السلوك الذي توجبه. إنهم يتناقلونها قشرياً، ويتصرفون بحسب ما تضع لها أوهامهم من المعاني.

إن الجماعات المسلحة في الجزائر التي تقتل الأطفال في أحضان

أمهاتهم، هؤلاء لا أحد منهم يحسن تفسير أي واحدة. وقد نشرت **الحياة** في 27/ 8/ 2002 تحقيقاً عن شاب جزائري من الجماعة المسلحة تجاوز عدد ضحاياه (1800) إنسان في مدة ست سنوات فقط. والأفدح أنه يطالب الشرطة بقبول الانضمام إليه ليقاتل جماعته المسلحة السابقة نفسها. مثل هذا - وهم كثر - هل يفهمون أي واحدة؟ إن ما قامت به «القاعدة» يتوجه أول ما يتوجه إلى صميم العقيدة لهدر دمها.

سنكرر مع أدونيس:

«بكت المئذنة حين جاء الغريب - اشتراها
وبنى فوقها مدخنة».

زبد ساطع

سأسأل خاصرتي:
كيف فعلُ الخناجر
هل هي مثل البشر
فظة حاقدة
للاشيء
أم هي في الخاصرة
تئن وتبرأ من نفسها؟
سأسأل خاصرتي:
أي سهم تألم فيك لأول مرة
ومن أين جاء
هل جاء من حلم أجهضته الظهيرة
أم جدول عشق الرسل
حتى تناسى انتظار الحديقة؟
سأسأل خاصرتي: (للجراح فم)
كما ظن شاعرنا الفذ
أم أنها زبد ساطع (كسراب بقيعة)

يجهل حتى الأنين
ودون التفات
تدوس عليه السنين؟
سأسأل خاصرتي
هل تودين شن انتقام
على كل تلك الجهات التي
غرست خنجراً، خنجرين. . . لرشق دمائك؟
ها. . . سوف أصغي
وأطلقت الخاصرة ضحكة ساخرة.
وتسألني الخاصرة:
هل تود جداراً يصد السهام؟
تساءلتُ: أي جدار؟
- هو أن تقتل الحب
حب الجهات التي أطعمتك السهام
صرختُ: هو المستحيل.

الحزن

حين يفرد كل مساء جناحيه
تدنو الغيوم الحزينة
تلك التي كورت في النهار
لتهطل في كل قلب.
حين يفرد كل مساء جناحيه
تجلو الكآبة مرآتها
تتعرى مخالبها المضمرة
تطمئن لأنيابها
ثم تلبس برعمة العاشقين
لتدخل في كل قلب
وتشرب ما فيه من فرح
ومواعيد.
حين يفرد كل مساء جناحيه
تأخذ كأساً من النار
كأساً من الوهم
كأساً من الذكريات العتيقة
وتهوي الصفات لنسيانها

وينشق كل الذي كان
عن موسم للذئاب.
حين يفرد كل مساء جناحيه
تدنو القلوب إلى بعضها
لتأكل من بعضها
وتسمع أغنية الليل
في شغف زائغ
شغف ذي مخالب
شغف مثل صحراء
يجأر فيها العدم.
حين يفرد كل مساء جناحيه
تأتين
لكن صوتك في مقبرة
وخيالك ذاك الذي
يتدفق نهراً بذاكرتي
يتوسل ألا أراه
أتوسل ألا أراه
ويأتي الصباح كما كان
عند امرئ القيس
ليس أقل ظلاماً من الليل.

الرعب الدائم

كان الفرد العربي في الجاهلية ملاحقاً بالرعب. الرعب من المجهول، ومن قسوة الحياة، ومن النظرة التشاؤمية التي تحكم رؤيته لما حوله، وكان لا بد له من سور يحميه من هذا الرعب الذي يشحذ حوله أنيابه في كل حين، فكانت القبيلة هي ذلك السور، وفي اللحظة التي أخذ منها بعض الأمان، أخذ منها احتقار القبائل الأخرى وبعضها، والاعتقاد الأعمى بأن قبيلته أفضل القبائل.

وحين جاء الإسلام «وآمنهم من خوف» هجعت تلك الحال قليلاً، ثم عادت أشد رعباً وفتكاً من طريق «الملل والنحل».

الفِرَق أو الملل والنحل فرقت المجتمع. . . ولا تزال. لماذا؟ لأن كل فرقة تزعم وتقسم على «أنها هي الفرقة الناجية»، وبذلك أوصد الباب أمام الحوار، وتقطعت الجسور أمام أي تفاهم مشترك، وكما كان الجاهلي يقول: قبيلتي أفضل القبائل، أصبح يقول: فرقتي هي الفرقة الناجية.

الرعب الدائم أن هذه لحال ليست مقتصرة على أمة من الأمم، أو مجتمع من المجتمعات، سواء كان مؤمناً بدين سماوي، أم بعقيدة وضعية، بل هي عامة شاملة لكل الأمم في كل زمان ومكان ما عدا قلة أخرجها العلم والتطور من هذا النفق المظلم الطويل.

وبدلاً من أن تكون العقيدة عاصمة للسلوك البشري من الانحراف أصبحت خناجر وسيوفاً تغرس في أعناق الأطفال والنساء وكل من تصل إليه.

كيف الخروج من هذه الكارثة؟

الطريق سهل: إنه الاعتراف بالآخر، الاعتراف بأن الدين لله والوطن للجميع. وهو حل على سهولته لم يسلكه أحد حتى الآن.

سؤال

هل تريد أن تكون شاعراً (فحلاً) لا يشق له غبار، ولا تعبر له أنهار، وفي زمن لا يتجاوز خمسة أيام فقط؟

إذا أردت ذلك، فما عليك سوى سلوك الخطوات الآتية:

1- عليك ألا تقرأ الشعر القديم كله. فما سمي بعمود الشعر، وسائر الاختراقات الكثيرة التي مورست على هذا العمود للإطاحة به. . . كلها مدمرة للذوق العصري المحض.

2- عليك ألا تنظر إلى آفاق أدونيس، أو آفاق محمود درويش، لأن مجرد النظر يدفعك على «جسر من التعب» وأنت في عصر السرعة هذا لا تحتاج إلى ما يتعب.

3- عليك أن تحفظ عن ظهر قلب ما قاله بول شاوول: إذا وصلت قصيدتي إلى أحد فمعنى ذلك أنها فاشلة.

4- لا تستمع إلى مقولة «جدار اللغة» ولا إلى ما يناقضها، فاللغة كلها جدار. حاول بكل شجاعة هدمه، وبعد ذلك استقدم إلى شعرك الأنقاض وحدها لا غير.

5- حاول أن تكون قصيدتك ذات فساتين عديدة من جميع الألوان، بحيث إن هذا الناقد يراها بيضاء وذاك حمراء، وآخر سوداء.

والويل لمن يراها صفراء، على رغم أنها تحب لبس الفستان الأصفر كما تعلم.

6- أوصد باب ذاكرتك جيداً، فالشعر لا يحتاج إلى ذاكرة، لأنه لا يحتاج إلى الماضي ولا الحاضر ولا المستقبل، إنه سباحة في الفضاء. وأنت تستطيع ذلك بعد أن تشرب قهوة مرة، ثم دخن عليها. وهناك تنجلي القصيدة.

بهذه الخطوات القصيرة تصير في خمسة أيام شاعراً فحلاً، لا يشق له غبار، ولا تعبر له أنهار.

تبيئة

الذي يملأ القلب فرحاً شعرياً، ويترك النظر منسرحاً في ربيع دائم، ويجعل الأعياد تتبارى. . . هو تلك المحافظة الضارية على (أصالتنا) العربية العريقة.

لقد أنشأنا آلاف المخافر المعلنة والمضمرة، ومن أهمها: مخفر الحدود اللغوي والفكري والثقافي. إن هذا المخفر الساهر والمشرف، يتربص بكل مفهوم يحاول عبور حدودنا اللغوية (المحروسة) فلا يسمح له بالمرور إلا بعد أن يثقل عنقه بالحبال، ولسانه بالأغلال.

لقد أرادت الديموقراطية، كمفهوم حضاري وإنساني وأخلاقي. . . أن تعبر الحدود فأوقفها الضابط المسؤول عن المخفر اللغوي والفكري، وراح يمطرها بالأسئلة:

- ما اسمك؟
- الديموقراطية.
- من أين أنت؟
- من البلد الذي يعترف بالإنسان.
- ما الغرض من مجيئك؟
- التنوير.
- تنوير من؟

- الحياة الاجتماعية.

- إن حياتنا الاجتماعية (تتشمس في نفسها) ولا تحتاج إلى تنوير. ولكن سأسمح لك بالدخول بشرط واحد: أن أضع على لسانك قفلاً، يبقى مفتاحه بيدي. فهل تقبلين؟

- لا. لن أقبل.

- إذاً عودي إلى بلدك.

حين عادت إلى بلدها، يكسوها الذل والهوان، قامت قيامة الصحافة الصفراء، وراحت تشن غاراتها على أصالتنا، وهنا تنادى العقلاء العرب، وفكروا في خلق دمية خشبية كبيرة، وبعد ذلك ألبسوها ثياب الديمقراطية، ونشرت جميع الصحف من المحيط إلى الخليج صورتها، لإسكات تلك الأصوات الصفراء.

وما حدث لمفهوم الديمقراطية حدث لعشرات المفاهيم التي حاولت انتهاك حدودنا.

الثبات

مرض الهواء المزمن
إنه لا يعرف الثبات:
إنه حين يمر على الوردة
لا يقرأ الشعر أمام عطرها
وحين يمر على صدور الصبايا
لا وقت لديه لارتشاف الدفء.
هو دائماً لا يعرف الثبات
لا يعرف حتى الوقوف على الصخر
مرض الهواء المزمن
هو الغربة الدائمة
لا السفر الدائم.
مرضه الآخر
أنه أعمي
لا يفرق بين فحيح أفعى
ونهد ينادي
ها أنا أتفتح.
رأيته مرة بأم عيني

وقد حاول الوقوف
أمام نهدين مغردين،
لم يكن أحد يسمع تغريدهما.
وكانت روشة لبنان
مشغولة باللعب مع البحر.
هناك حاول الوقوف
ولكنه خاف أن يتحول،
ففر هارباً
ولكن إلى الوراء.
مرض الهواء المزمن
إنه هواء.
ومرضك المزمن
أنك إنسان
والإنسان ثبات:
ثبات على القيم
ثبات على الرؤية إلى الأمام
ثبات على الرفض...
هذا عذاب.
فهنيئاً لك أيها الهواء المغفل.

انقراض الحرف

حدثنا الطرماح بن وهب عن كليب بن الأشرس عن قطري بن الفجاءة عن أبيه عن جده. . . قال: إن حرق الكتب «الضالة» قد ولى زمنه، وانقرض ظرفه، فلقد كان ممكناً عندما كانت النسخ محدودة، وكان الوراقون قلة، أما الآن فكيف يمكن حرق الكتب؟

وأضاف قطري بن الفجاءة:

الآن في هذا «الزمن المغفل» لا يمكن حرق الكتب: الذي يجب هو «قتل» من يجرؤ على تأليفها، سداً للذرائع.

لقد بلغ سمعي أن فاضلاً من خيرة أصحابنا هو ميرزا الخويلدي قد روى أن حافظاً جهبذاً هو الشيخ عيسى قاسم من ذات البحار الأربعة (البحرين) قد جرد فتواه من غمدها الفقهي، وأمر بحرق كتب الضال محمد أركون، وعطف عليها كتب الضال محمد عابد الجابري.

إنني أعجب من فتوى الشيخ الفاضل بالحرق. إننا حين نحرق الكتب التي في البحرين، كيف نحرق التي في باريس أو الهند؟ لا. إن الشيخ الفاضل كان سيصيب كبد الحقيقة والصواب لو أمر بقتل هذين الضالين وأمثالهما.

وأضاف ابن الفجاءة، جرياً على عادته في الحماسة الشعرية:

لقد حرق أصحابنا - رضوان الله عليهم وآلهم - كتب الضال ابن رشد، وأمثاله من الذين اعتبروا العقل نداً للنص، وكان ذلك ممكناً. أما الآن فالشيخ الحافظ الجهبذ عيسى قاسم قد طاش سهمه، إذ كان عليه أن يوجه السهم إلى رأس الهرطقي محمد أركون، وقلب الهرطقي محمد عابد الجابري، فذلك أجدى. وكان عليه - حفظه الله - أن يحور قولنا هكذا:

فـقـتـلاً فـي مـجـال الـكـتـب قـتـلاً
فـمـا نـيـل الـحـريـق بـمـسـتـطـاع

الغربان البيضاء

الغراب في الذاكرة العربية رمز الشؤم، وكان هذا دافعاً جارفاً إلى أن تتنادى الغربان ذات يوم لمحو هذه الذاكرة، بعد التفكير في أسبابها في ضوء المنهج التاريخي.

عقد المؤتمر وتقدم الغراب المنظر، وكان بنيوياً سابقاً، فأفاض في شرح السبب وقال: إنه السواد. فالعرب تكره السواد، ولذا لا بد من التفكير في الخروج من مأزق السواد، ووفق حقوق الحيوان.

قال الغراب الفيلسوف: يجب ألا نطير إلا تحت الشمس، فإذا سطعت الشمس فوقنا تحول اللون الأسود إلى أخضر. وهذه هي جدلية تناغم الأضداد.

قال الغراب الشاعر: البعد عن الحياة والأحياء هو السواد، والقرب هو البياض، لذا قال الشاعر:

حالت لبعدكم أيامنا فغدت

سوداً وكانت بكم بيضاً ليالينا

وقال الغراب (الجنرال) ذو الأنياب الكثيرة: تطبيقاً للديموقراطية، وصوناً للحقوق والأخلاق، واستئصالاً لأي فساد في الوطن... يجب أن نفقأ عيون الناس، حتى تتساوى لديهم الألوان، وهم وإن كانوا

مواطنين أعزاء إلا أن شرف الغربان الجالسين في القمم أهم منهم. . . أما سمعتم:

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى
حتى يراق على جوانبه الدم؟

وهنا صفق الجميع لهذا الاقتراح العربي الأصيل.

هذا ما رواه «المضنون به على غير أهله» عن ابن أبي نباته عن ابن حزام الضبي عن أبيه عن جده. . . وقال أصحابنا: إنه حسن.

سكرات الجهل

قد سمعنا طويلاً عن سكرات الموت، وعن سكرات الهوى، وسكرات «الوجد» وسكرات السلطة، ولكننا لم نسمع عن سكرات الجهل. في حين أنها أشرس وأشد هولاً من كل السكرات.

سكرات الجهل عقم مطلق عن أي تفكير. عمى سرمدي عن رؤية الواقع. إنها السراب يحسبه الجاهل ماء.

سكرات الجهل تطوح بالذين يتسنمون كراسي أرفع من قاماتهم النفسية والذهنية، فترى المصاب به: يتكلم بلغة الكرسي، ويتحرك تحت الكرسي، وينام، وبينه وبين زوجته الكرسي بل مساميره وخشبه وصريره.

إن الكرسي يجلس عليه، بدلاً من جلوسه هو على الكرسي.

إن هذا النوع من الكراسي التي تكون أعلى من قامات من يجلسون عليها، ينحصر ضررها في مساحة اجتماعية صغيرة، بل إن ضررها يتوجه دائماً نحو صاحبتها، ولكن هناك نوعاً خاصاً من الكراسي، لا يوجد إلا في عالمنا العربي، يمتد ضررها على مساحة المجتمع كله.

هذا النوع يصنع من مادة مغناطيسية خفية بحيث يبقى الجالس عليه «رئيساً إلى الأبد» أو «زعيماً أوحد» أو هو «القائد الضرورة».

هنا تتولد من «سكرات الجهل» سكرات أخرى: سكرات الغرور الأرعن، وإلغاء الشعوب، واعتبار البشر مجرد آلات «تحركها أصابع الدهر حيناً ثم تنكسر»، كما يقول جبران خليل جبران.

هل هو وحده الملام؟ لا. فسكرات الجهل جاءت طواعية إلى «الريس» من سكرات جهل الشعوب.

متى يثمر؟

سيول الانتقادات الجارفة التي تنصب يومياً من وديان الصحف والفضائيات، في سمع قادة الدول العربية، لم تثمر شيئاً. . . كأنهم «جعلوا أصابعهم في آذانهم» . . إنها صرخة صامتة أو تلويح للأعمى بشمعة. . . فلماذا يا ترى؟

الجواب واضح:

إن الكلمات تشق سمع القادة بشرط واحد هو أن تشق سمع الشعوب قبل سمع القادة، فإذا كانت الشعوب لا تسمع ولا ترى. . . فلماذا يكلف الحاكم نفسه بالرؤية والسماع؟

هذه هي القاعدة التاريخية، ولكن هل هذا قائم في البلاد العربية؟

نعم، لقد كان موجوداً في التاريخ: لقد زيف وعي الشعوب طويلاً، وتبارت رياح الخرافة والتضليل والفقر في لجم كل نظرة تحاول اختراق الجدران.

غير أن هذا التاريخ انطفأ، أو كاد، لتآكل أسبابه، وانبثاق أسباب أخرى لإزالة الغشاوة عن الأعين وهتك الأقنعة عن الوجوه.

الآن لم يعد الجهل ضارباً أطنابه على الشعوب، ولم تعد الخرافة تحتل مساحات التعليل والتفسير للأحداث، ولم يعد الفقر سبباً للخنوع، بل تمرد على طبعه، وأصبح سبباً للمطالبة بكل ما يزيله.

هذا ما نراه في مسيرة الأمم والشعوب على الأرض. ولكننا في البلاد العربية كلها الاستثناء الوحيد من هذا.

إن مجتمعاتنا على رغم وعيها، وحبها وانتمائها الوجودي بأوطانها، لا تزال ملاحقة من حكامها بأوصاف الشغب، والغوغاء، والسواد، والعامة، والدهماء، بل و«الحرامية».

إلى متى يوجه الرصاص إلى الشعوب؟

رمز

مفردة «رمز» من المفردات التي دبت فيها اليقظة «كدبيب البرد في السقم»، كما يقول أبو نواس.

والرمز - بحسب مجدي وهبه - هو: الكائن الحي، أو الشيء المحسوس الذي جرى العرف على اعتباره رمزاً لمعنى مجرد كالحمامة أو غصون الزيتون رمزاً للسلام.

السيد ياسر عرفات، في الخطاب السياسي العربي هذه الأيام هو «رمز» المقاومة في النضال الفلسطيني، ولذلك فإن الرموز تبقى رموزاً إلى الأبد.

هذا المنطق يجسد العرف القبلي الجاهلي بحذافيره كلها. إن ديغول سقط، وكان رمزاً لفرنسا، وتشرشل سقط وكان رمزاً لبريطانيا، ولم يتشبث أحد بتلك الرمزية لبقائهما على رأس السلطة.

لقد مضى زمن «الزعيم الأوحد» وزمن «الرئيس إلى الأبد»، وتلك الذهنية الغوغائية التي تؤمن بأن الفرد وحده هو صانع التاريخ.

لماذا لا تتعدد الرموز؟

أليست الأم الفلسطينية التي تتلقى دم ابنها بالزغاريد رمزاً؟

أليس الطفل الفلسطيني الذي يجابه الدبابة بحجارة صغيرة. . . رمزاً.

أليس إدوارد سعيد ومحمود درويش وكوكبة المناضلين والمبدعين الآخرين رموزاً؟

لماذا نحيل الرمز إلى حجر، نخرّ له ساجدين؟

جفاف

منذ أشهر جرداء، كان الجفاف يسكن فيها وتسكن فيه، لم أتابع كتابة هذه الزاوية في جريدة **الحياة**.

الحياة جريدة مترامية الأطراف والأنواء، والشموس، والقصور الفارهة والمقابر المرمرية، لذلك تتطلب الكتابة فيها وضوحاً غامضاً، أو غموضاً واضحاً، تتواطأ ظلاله مع اللغة. وهذا يكلف جهداً خصباً بعيداً عن الجفاف.

غير أن الشوق «المتردد» إلى الكتابة يشبه شوق الشاعر الكبير جودت فخر الدين:

«شوقي يطوف بأيامي
ويتركني
حيناً على وله
حيناً على أرق»

في تلك الأشهر «الفجوة» وحسب، من إيقاع زماننا اللاهث هذا، حدثت، من دون شك، تغيرات حتى في طريقة استخدام اللغة.

مفردات كثيرة شيعت إلى مثواها الأخير، وأخرى تتأهب للذبح من الوريد إلى الوريد بالخناجر المنقضة من كل حدب وصوب.

وحين يستمر هذا الذبح لمفردات القيم في اللغة العربية (وحدها) لا أدري ماذا سيبقى في قاموسنا النفسي والتاريخي وقاموس الكرامة؟!

كلمات مائية

تذكرين القمر
حين أقبل في نزق
لينشد أشعاره
فوق حقلك؟
كان مرتبكاً
وهو يقترب منك
وحين تعثر بين يديك
ضحكت
فلملم أضواءه
واستدار
ولكنه عاد ينشد
واعتاد أن يتعثر
هل تذكرين؟
تذكرين الشموع
التي اشتعلت في الضلوع
وكنت تعدينها :

شمعة

شمعتان. . .

إلى أن يشيب السحر

وندخل غيبوبة السحر

إذ تلتقي الضفتان؟

مقالات الجزيرة السعودية

(كلمات مائية)

1998-1997

لو

هنالك حب يسير على قدميه الحريريتين،
سعيداً بغربته في الشوارع،
حب صغير فقير يبلله مطر عابر،
فيفيض على العابرين. . .

بماذا تشعر لو كنت من ضمن العابرين الذين يفيض عليهم هذا الحب الصغير الفقير المبلل بالمطر؟

لقد انقرضت الرومانسية من دمك ودم غيرك لذا فأنت ستسأل فوراً: من أين جاء هذا الحب، وماذا يريد؟ ولماذا يضيع وقته في الفيضان على الناس؟

يقولون: إن من أهم ملامح ما بعد الحداثة هو دوران الفرد حول ذاته، اختفاؤه فيها، بحيث ينعدم مثل الآخر تماماً، إذاً يكون السؤال: من أين جاء هذا الحب المبلل بالمطر؟ هو سؤال ما بعد الحداثة الفريد، على الرغم من اليأس البارد الطافح على ديوان محمود درويش الأخير سرير الغريبة نجد عدة نوافذ تطل منها هذه الرومانسية التي لم تفارق درويش يوماً، وأقول: اليأس، لأنك بعد هذا المشهد العذب تقرأ مباشرة:

هنالك حب فقير يحدق في النهر مستسلماً للتداعي: إلى أين تركض يا فرس الماء؟

عما قليل سيمتصك البحر

فامش الهوينى إلى موتك الاختياري

يا فرس الماء،

حتى جريان النهر أصبح لا جدوى منه، لا معنى له سوى الركض إلى العدم.

ما الذي أوصل محمود وأوصلنا معه إلى هذه الحالة التي لا حد لظلامها؟

هل قرأت كتاب الشيخ عبدالله العلائلي مقدمات لفهم التاريخ العربي؟ هو كتاب صغير، لن يأخذ منك وقتاً، ولكنه يضع يدك على الجذور التي أوصلتنا إلى هذه الحالة.

أي الأغاني تجين، أي الأغاني؟ أتلك التي تتحدث عن عطش الحب، أم عن زمان مضى؟

الفقراء

كلمة الفقراء كلمة شجرية، أعني بهذا أن جميع العواطف الزائقة والحقيقية تبني أوكارها بين غصونها الجرداء منذ انقسام التاريخ حتى الآن وحتى اللانهاية، لا تجد شاعراً إلا ونصف قلبه مملوء بالفقراء، أما نصفه الآخر فهو يتقلب على الجمر حزناً عليهم، ولا تجد سياسياً إلا وهو منشغل من الوريد إلى الوريد بكيف ينقل الفقراء من المسافة «ما بين الجنة والنار»، ولا تجد فيلسوفاً إلا وهو منهمك في كيف يجعل هؤلاء الفقراء ينسون فقرهم حقيقة أو وهماً، ما هي المشكلة إذن؟

لماذا لم يختف الفقر ويولي الأدبار ما دامت كل هذه القلوب الفلسفية والسياسية والشعرية تسهر الليل كله وهي تفكر في الفقر والفقراء؟

المشكلة لا تكمن في جدوى أو عدم جدوى ما تفعله هذه القلوب الرحيمة، بل تكمن في عدم وعي الفقراء بفقرهم، عدم الوعي هو المشكلة البشرية الدائمة، غير أن هذا لا يستوقفني الآن. ما يستوقفني هو تلك الثلة من الشعراء التي تمجد الفقر، وترى فيه ما لم ير قيس في ليلى، فرسان البلاغة هؤلاء يخجلون من صراحة أبي العتاهية.

إنــي أريــدك لــلــدنــيــا وعــاجــلــهــا

ولا أريــدك يــوم الــديــن لــلــديــن

وتراهم صفاً، وألسنتهم شتى، يحاولون إقناعنا بأن الفقر حلية مرئية أين منها بريق اللؤلؤ، ويهيلون على الفقراء زهور الكلمات بدلاً من الخبز، إنهم لم يعرفوا بعد هذه الحكاية التي أنقلها حرفياً:

يروى أن فلاحاً جاء إلى سيده الإقطاعي مستفسراً عن الحكم الذي يترتب على نزول الغنم إلى زرع وإتلافه، فكان جواب السيد:

«يجب أن نعرف غنم من وزرع من» فرد الفلاح: «غنمكم سيدي وزرعي» فقال السيد: «أنعام لا تعقل ولا تدري ولذلك لا حرج»، فقال الفلاح: «لقد أخطأت يا سيدي، فالغنم غنمي والزرع زرعكم يا سيدي، هنا صرخ السيد: لقد اختلفت المسألة إذاً، ولابد من العودة إلى الدفتر الكبير لمعرفة هذه الحالة، ترى ما هو هذا الدفتر الكبير؟ هل تعرفه؟ إذا عرفته فأرجو أن تدلني عليه».

(تعا)

«تعا تا نتخبا من درب الأعمار. . »

أنت عندما تسمع فيروز تقول هذا الماء تظن في داخل نفسك أن الكلمات منفصلة عن الزمان والمكان، ذلك لأن صوت فيروز وحده، من مهامه، أو من قدراته الأولى أن ينتزعك من الزمان والمكان، ويجعلك خارج جاذبية الأشياء، ولكن هذا وهم أجوف تصفر فيه الرياح، المعنى مرتبط بالزمان والمكان، لو سمعت «تعا تا نتخبا من درب الأعمار» أمام تمثال الحرية في نيويورك لما كان له معناه، لو سمعته أمام شلالات نياغرا لما كان له وقعه، معناه الكامل يتربع في قلبك حين تسمعه في لبنان، لبنان هذا الذي يقول فيه أبو ماضي:

طاف الجمال مشرداً في الأرض ينشد مسكنا

حتى طلعت له فألقى رحله وتوطنا

حين تسمع فيروز في لبنان يأتي الزمان والمكان ضاحكين يتراقصان أمامك، أما القمر قمر فيروز فأنت تراه وهو يكتب شعراً لا ضوءاً، لبنان كله 10450كم^2 ولكنك تراه باتساع العالم في تنوعه، وفي الحيوية الصاخبة لأرضه وسمائه وإنسانه، في لبنان أنت لا تحتاج إلى جسر يوصلك إلى ما تريد، كتاباً كان، أو محاضرة جادة، أو مسرحية، أو حتى سهرة مقمرة، الجسور كلها تمتد إليك طائعة

مستبشرة، ولكن بشرط واحد هو أن يكون جيبك حقلاً زاهراً، هل تملك هذا يا أفندم؟

هل تملك جيباً حقلياً؟

لا أعتقد أن واحداً يكتب في ملحق ثقافي، أو يقرأ ملحقاً ثقافياً يملك مثل هذا الجيب المنتظر، إنه فقط للذين لا يقرأون، أول شيء تشعر به في لبنان هو أن الخوف يحمل كل حقائبه، ويخرج من قلبك خاشعاً متصدعاً وأقصد بالخوف ذلك الرعب التاريخي المنغرس في قلب كل عربي من المحيط إلى الخليج، في لبنان يهرب فيك ذلك الخوف التاريخي، في حين أن كل شيء فيه يدعو إلى الخوف بدءاً من طرقه الثعبانية إلى إنسانه اللامبالي.

زرع.. حصد

لا يمكن أن تمر على مدرسة ابتدائية، دون أن تسمع زقزقة الأطفال، وهم يرددون في شبه نشوة: زرع، حصد، إذاً، فهذا التلازم بين الكلمتين، والشاخص في أذهاننا، قادم من هناك، من حقل الطفولة، لذا، حين تسمع كلمة نحن نحصد ما لم نزرع يقف ذهنك أمامها قليلاً، ثم يشرع في تقبلها وفي فتح النوافذ التفسيرية الكثيرة لها، وفعلاً، بعد تأمل يسير، ترى بأم عينيك أننا نحصد ما لم نزرع، سواء كان ذلك الحصاد حلواً أو مراً، فلقد حصدنا ونحصد كثيراً من الثمار الحلوة من زرع الماضي والحاضر، وحصدنا ونحصد كثيراً من الثمار المرة من زرع الماضي والحاضر، احتقار الرأي الآخر أو قتاله، لم نزرعه نحن؛ بل حصدناه من عهود سحيقة كانت القوة هي الحق فيها، كذلك عشرات السلوكيات والعادات وحتى القناعات، حصدناها حصداً، وبدون أن نزرع منها شجرة واحدة، ومع ذلك، يبقى التلازم بين زرع وحصد وثيقاً، وذا فاعلية عفوية، ذلك لأن العلم في الصغر كالنقش في الحجر كما يقولون، هل تحب الاستطراد؟

إذا كنت تحبه، فلماذا أصبح العلم في الصغر كالنقش في الحجر؟ هل تعرف السبب؟

ستقول: إن داخل الطفل حقلاً بكراً، حقلاً مليئاً بالضوء والماء

والهواء النقي، لم تكدره مشاكل الكبار، إنه لا يعرف صدمة الحداثة، ولا صدمة الديمقراطية، كما يقولون، لذلك، فالأشجار الأولى التي تغرس فيه تأخذ مجدها، وتكون قطوفها دانية، ستقول هذا، ولن يخطر بذهنك أن الطفل يعاني مشاكل عديدة، يبلغ بعضها الجبال طولاً:

إن أولى تلك المشاكل هي مشكلته مع الكبار أنفسهم، وقوفه مذهولاً أمام تناقضهم في تصرفاتهم، وأمام فرضهم أحكاماً لا يقدمون مبرراً لها، أما ثانيتها، فهي هذه الشنطة الزاخرة بالمقررات المدرسية، وبصوت المعلم الفظ الذي ينقض من كل كتاب فيها، هل ترى أن هذه ليست مشاكل؟

إذاً أنت لا تعرف الطفولة.

وكأنا

الزمان في الأساطير اليونانية هو الذي ينضج الأشياء ويوصلها إلى نهايتها، والزمان الوجودي هو الزمان الذاتي أو الوجداني المصبوغ بالانفعال كزمان الانتظار أو الأمل، لكل منا زمانه الخاص، زمان داخلي، لا يشاركه فيه أحد، يستطيع أن يطيله وأن يقصره، وأن يفرغ عليه ما أراد من الصفات ويصبغه بما اشتهى من الألوان، ولكن هل هذا تصور صحيح؟

لا أظن:

إن الظوهر الانفعالية مثل اللذة والألم والهيجان والعاطفة والميل والهوى، لا تنبع تلقائياً، وإن الانفعال «تغير في الحساسية ناشىء عن سبب خارجي»، أي إن الزمان الداخلي الذي يفترض أنه لك، يشترك في صنعه الخارج رغم إرادتك، وكأنا لم يرض فينا بريب الدهر حتى أعانه من أعانا.

نعم حتى زماننا الداخلي، دهرنا لم نترك معه وحدنا، بل جاء الخارج (الآخر) يشترك في إعطائه اللون الذي يكون، غالباً، مناقضاً لما نتمناه، الزمن الوجودي الذي يمنون عليك به، والذي يفتح لأمانيك نافذة وهمية كبيرة، حتى هذا الزمن غير موجود، إلا في خيال الحالمين، عند التحليل الأخير، الناس يحسدون الشعراء على زمانهم

الوجودي المتخيل، في حين أن الشعراء أشد الناس عذاباً بهذا الزمن المقيت. إن الرؤية السوداء للحياة والأحياء لازمت أوسع الشعراء رومانسية، وأشدهم هزلاً وجداً على حد سواء.

قل لي اسم شاعر شاهق واحد، في كل زمان ومكان، لم يتعذب بهذا الذي يسمونه الزمان الوجودي، أقدم لك الشمس مذابة في كأس بارد، إنها «صهوة الحبر» كما عبر بعضهم:

وأعلن: أني نجوت من المجزرة
لأدخلها من جديد على صهوة الحبر
إن المدينة والقبر ليسا نقيضين
إن الحبيبين لا يدخلان إلى الحب
إلا وبينهما طلقة واحدة
لذلك كنا نعلق أرواحنا كالثياب
على الأعمدة.

صنم الكهف

يشرح فرانسيس بيكون ما سماه «صنم الكهف» بقوله: إن لكل إنسان كهفه الخاص به، والذي يعترض ويشوه نور الطبيعة الواصلة إليه. لا يعنيني - هنا - ذكر الأصنام الأخرى التي عددها بيكون، معتقداً أن البشرية لا تزال واقعة تحت وطأة عبادتها المدمرة، الذي يعنيني هو هذا فقط (صنم الكهف)، لأني أراه متربعاً داخل نفسي، وأراني - أحياناً كثيرة- طوع إرادته أو وهمه.

كانت رؤيتي (انطباعية) وأقصد بالرؤية معناها الذي يشمل السلوك الذهني في إصدار الأحكام أو الآراء، وقد حاولت بجهود شاقة الخروج من قبضتها، شيئاً، فشيئاً، ولكن الصنم لم يستسلم، فقد أخذ ينفث فعله من ناحية أخرى، وهي الناحية الأيديولوجية، لأحدد ما أعنيه بالأيديولوجية، لا أقصد بها مذهباً معيناً مما هو في ذهنك أو ذهن الكتب، بل أقصد بها «الإطار» العام الذي يحتضن رؤيتي للإنسان والكون، وهذا الإطار لم يتكون من مذهب واحد، أو كتاب واحد، بل تكون من كتاب الحياة، بكل فصوله الضاحكة والباكية. هذا الإطار الأيديولوجي هو الذي أحاول الآن الخروج من أسره، ولكن «بعديش؟».

الإطار الأيديولوجي يقدم لك أحكاماً جاهزة على طبق من

الراحة، والبعد عن معركة الاختيار، ولكن ضميرك بعد ذلك يدعُّك دعّاً إلى الجحيم، لأضرب مثلاً:

فلت مني حكم على عَلَم شاهق من أعلام هذه الجزيرة، قلت: إني لا أحترمه:

حين عدت إلى نفسي سألت:

لماذا لا تحترمه يا أفندي؟

لم أجد جواباً، لأنه يكفيه أنه صدع بآرائه، وتحمل ما لا يتحمله أحد من العقوق والنكران، وكانت آراؤه في منتهى الجرأة والنضج.

هل تريد مثلاً أكثر وضوحاً؟

فلت مني حكم على الشاعر شوقي بزيع، وكنت لم أسمع منه أو له إلا قصيدة واحدة، في جلسة ضبابية وحين قرأت دواوينه، عرفت أنه شاعر شاهق، فندمت على ما صدر مني، ولكن هل يفيد الندم؟

هناك مثل عراقي قبيح، ولكنه واقعي، يقول المثل: «بعد ما . . . صمت».

ذاكر

ذكر الشيء ذكراً: حفظه.

استذكر الكتاب: درسه للحفظ.

حيثما وليت سمعك وبصرك، في هذه الأيام، لاقيت هذه المادة ذاكر بصيغة الأمر، تتقافز حولك، من البيت والمدرسة والشارع، لا أحد يقول: افهم أو تعقل أو ما شابهها من حقول اللغة.

إنه التوجه إلى الذاكرة وإلغاء ما عداها من النشاطات الذاتية الموصلة إلى المعرفة، أو هو تحويل السلوك الذهني من سلوك فاعل إلى سلوك إلى منفعل.

كل أمة مرت بما يمكن تسميته: عصر الذاكرة، ولكن أمتنا المجيدة بقيت في هذا العصر منذ فجر تاريخها حتى الآن.

الذاكرة الفردية والجمعية طاقة إنسانية ضرورية، فبها يتم الإدراك والحكم والاستدلال، ولكنها طاقة من ضمن طاقات، والركون إليها وحدها وأد علني لطاقات الإنسان الأخرى التي هي مساوية لها، بل أهم منها في عصرنا الحاضر.

إن من أهم أنواع الذاكرة ما يسمونه الذاكرة المعكوسة وهي التي تتوجه إلى المستقبل، ورصد احتمالاته، فهل هذه موجودة لدينا؟

لا، الموجود لدينا هو الذاكرة التسجيلية التي لا فرق بينها وبين أي شريط يشترى بريالين.

في مقالة بالغة الروعة والموضوعية وعمق التحليل، للكاتب عبدالله الحامد، نشرت تحت عنوان: «آفة العقل الإسلامي/ أثر تقديم الحفظ على الفهم في ضمور الإبداع» في **الحياة** 1998/ 5/ 24م جاء ما يلي:

إن العبارة التبجيلية التي نجدها أمام تراجم بعض العلماء حفظ القرآن وهو ابن عشر سنين يجب أن نتوقف لبيان أنها مفهوم تربوي صك في عصور الانحدار، وأن مبدأ حفظ القرآن في الصغر لم يكن مبدأ تربوياً منتجاً، فليتذكر الذين لا يريدون بطريقتهم بديلاً أن القرآن الكريم هو المقدس، أما طرق تعليمه، فهي جهود بشرية قابلة للخطأ والصواب، والبحث فيها بحث في المنطقة الفارغة من النص القطعي في الدلالة والورود، ومن هنا تأتي مشروعية البحث التحريري. هذا ما قاله عبدالله الحامد، وهو يدور كله حول حفظ القرآن الكريم، فما بالك حين يكون الكلام عن حفظ المقررات الدراسية، بما فيها المعادلات الرياضية؟!!

ملاحظة:

الأخطاء المطبعية كثرت هذه الأيام في هذه الزاوية، ولعل مصحح الجريدة اعتمد على فطنة القارئ.

إنشاء

- هل ولدت، وفي يدك قلم من ذهب؟
- ليه؟ قالوا لك: شاعر شعبي.
- أنت قاص، ولكنك لم تعد تقص علينا إلا في كتاباتك.
- كل الجرائد بعد غزوة الكويت صارت تقص علينا.
- النزوة، متى تندم على ارتكابها؟
- إذا شاهدت المطربة اللبنانية نزوة كرم.

سعد الدوسري

50×50 / اليمامة 28/ 3/ 98

ما أشد فرحي، لو كنت أرصد مشاعر الدكتور عبدالله الغذامي، وهو يقرأ الجواب الأول، وما أشد حزني، لو كنت أرصد مشاعر محمد عابد الجابري، وهو يقرأ الجواب الثاني، أما الجواب الثالث، فسوف اتصبب ضحكاً، لو كان نزار قباني حياً، وشاهدته منهمكاً في قراءته.

أنا مولع بالأسئلة أكثر من الأجوبة بكثير، ولكن أجوبة سعد من طينة أخرى، لقد نسيت الآن ماذا يسمون هذا النوع من الأجوبة في علم البلاغة، لذلك سيكون حديثي إنشاء لا علاقة له بالعلم ولا يحزنون.

لقد كدت أن أجعل عنوان حديثي هذا: الطاقة المتنقلة بدلاً من إنشاء، وأعني به أن سعداً طاقة منتجة، عرفناها في حقل الطفولة، وعرفناها في حقل القصة والرواية، وعرفناها ثالثة في حقل الكتابة الاجتماعية، ولكني لم أجيء هنا للكتابة عن سعد بل عن أجوبته، لذلك غيرت العنوان إلى ما هو عليه، كل الجرائد بعد غزوة الكويت صارت تقص علينا، هذا ما قال سعد، فهل توافقه عليه؟

أنا شخصياً لا أوافقه:

الجرائد قبل غزوة الكويت كانت تقص علينا، كانت تقول: إنها جاءت لتنير أذهاننا، لتصب الضوء على طريق المستقبل، الذي ينتظرنا بفارغ الصبر، كانت تتكلم على الأرض التي ستصبح أزهاراً وتمراً، وعن الأعداء الذين سيندحرون واحداً واحداً، في القريب العاجل، هكذا كانت تلهب أوداجها كلاماً.

أما بعد غزوة الكويت، فلم يعد عندها مكان للقص، أصبحت تقول بصراحة: نحن منهزمون، نحن نريد السلام، إن كل ما قيل سابقاً خرافة، وعلينا أن نطهر مناهجنا الدراسية من كل شيء ضد التطبيع الإنساني.

ثم ياسعد/

أهناك عاقل يندم على النزوة عندما يشاهد نزوة كرم؟ ما هذا الذوق المعادي لحداثة الفضائيات؟

أينهم؟!

هل تواصل قراءة زاوية هناء المطلق في هذه الجريدة؟

هل تواصلها؟

إذاً ما هو شكل الرعب الذي يحتلك؟ هل يأتيك على شكل لطمة مدوية، توقفك من سبات الجهل بمجتمعك، أم يأتيك على شكل وحش مفترس يتوجه بكل أنيابه إلى وجدانك؟

لم أتخيل مطلقاً أن مجتمعنا يرزح تحت كل هذه الأمراض الاجتماعية الفاتكة، أو ما أسميه: أمراض اللاإنسانية إلا بعد مواصلتي لقراءة هذه الزاوية.

ست من بين كل عشر زيجات لدينا تنتهي بالطلاق، إحصائية مروعة أليس كذلك؟

هكذا قالت هناء، وقد ارتعت فعلاً، ولكن الخطوة التي كانت تفصلني عن الجحيم هي أنني لم أقرأ الأسباب التي عددتها في الزاوية 10/ 5/ 98، أما حين قرأتها، فقد أصبحت في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً.

هل تظن أنك أنت وهي وهو في منأى عن تلك الأسباب؟ قبل أن تجيب اقرأ ما تقول في 12/ 3/ 98.

من هذا الذي تعودت على وجهه في المرآة؟

هذا الذي تعتقد بأنه أنت، هل هو أنت فعلاً؟

هو قطعاً ليس أنت.

فهذا الذي تعتقد أنه أنت ليس إلا حزمة من العادات، زرعتها فيك تهديدات أبيك وانكسارات أمك وقسوة المدرسة!! فهل تريد أن أزيدك.

لا . . أنا لا أريد الزيادة، أما من يريدها، فهي هناك لا في الزاوية وحسب، بل وفي نفسه.

لم أتكلم على أسلوب هناء الآسر والساخر أحياناً. الأسلوب الذي لا يتشدق بأن يريك الأوراق، بل يذهب إلى هناك، إلى الجذور، ليضعك أمامها، واحداً واحداً، ببساطة المرآة حين تريك وجهك.

إنه ترويض العلم بالقدرة الأدبية.

ولكني لم أجئ هنا لأتكلم على هذا، لأني مشغول بالتساؤل:

ترى كم على ساحتنا ممن يحملون شهادات واسعة مثل أفريقيا من النساء والرجال، في علم النفس والاجتماع؟

هم بالمئات، بلا ريب.

إذاً لماذا لا نسمع صوتاً واحداً منهن أو منهم يحمل هذه الجذوة التي يحملها صوت هناء المطلق؟

المشعب

الجاحظ:

. . أما الذي يجعل أولاد المكدين عمياناً وعرجاناً وعمشاً وحدباً فهو يسمى المشعب، فلا أدري أيّهم أعظم كفراً وأقسى قلباً، الآباء والأمهات الذين يسلمون أولادهم إلى المشعب، وهم أطفال، حتى يُعمي أبصارهم ويعرج أرجلهم ويزمنهم ويشوه بهم، أو المشعب نفسه الذي ترك كل صناعة في الأرض وتعلم هذه الصناعة، فجعلها مكسبته التي لا يفارقها.

أنت، ولا ريب، تذكر زيطة في ثلاثية نجيب محفوظ، لذا فمعنى المشعب ليس غريباً عليك، الغريب عليك هو أن تكون هذه المهنة مزدهرة منذ عصر الجاحظ.

أما في عصرنا هذا، فقد تشعبت شعباً وتشاعيب ومشاعب وعمت شعوباً بكاملها.

هل تريد مثلاً؟

الفضائيات جميعها، وبدءاً من الإعلانات حتى الأخبار السياسية، ماذا تقدم لك؟

هل تقدم لك الحقيقة؟

طبعاً، لا . .

إنها تقدم لك ما يخدم أغراضها، وهنا تقوم بعمليتين فادحتين: تشويه الحقيقة وتشويهك أنت، لأنها دفعتك إلى تصديقها.

هل تريد مثلاً أشد رعباً؟

دع عينيك تسيران ببطء على أسراب المثقفين المحلقين في سماء الفكر والأدب، مستدرجاً ما يقولون إلى معانيه الضمنية فماذا سترى؟

سترى أنهم يقولون ما لا يفعلون وأن أكثرهم يعرف الحقيقة، وجهاً لوجه، ولكنه يشوهها، ويقدمها لك في موكب من الأصباغ المضللة.

إن المثقف الذي يقول لك: لقد تجاوزنا عهد الحداثة إلى ما بعد الحداثة مثقف يجب أن تتشبث، حيث تسمعه، بأي جدار قريب منك، لأن الهاوية تزحف نحو قدميك، إنه مثقف هارب، ويريد أن يعلمك الهروب عن طريق تشويه الحقيقة.

إننا، حتى الآن، لم ننته من عصر النهضة، فكيف دخلنا إلى عصر ما بعد الحداثة، ومن أي باب؟!

هل سمعت ما قاله أدونيس:

يقال: سهلة هي المحاكاة

آه، لو أستطيع أن أحاكي البحر!!؟

الزمن

قال جرير:

يـا أيـهـا الـقـارىء الـمـرخـي عـمـامـتـه

هـذا زمـانـك، إنـي قـد مـضـى زمـنـي

(**الأغاني** 8/ 47).

يقول طه حسين عن جرير: إنه كان ضعيفاً إلا في فنه، وإنه استطاع، عن طريق السخرية، أن يهزم شعراء أقوى منه بكثير.

أمامك بيت من شعر جرير، فهل ترى فيه رائحة السخرية؟

لا أظن..

ومع ذلك، دعنا نجرب الإنشاء:

«قد مضى زمني»، هذا اعتراف بأن زمنه كان موجوداً، وأنه عاشه، ثم مضى هذا الزمن كغيره من الأزمان، فهل هذا الاعتراف صادق؟

مرة أخرى، لا أظن..

إن زمن أي شاعر حقيقي لم يجىء، هو دائماً في الغيب، يرى عبر أجيال من السراب.

زمان جرير لم يجىء مثل زمان المتنبي، والسياب وأمل دنقل ونزار قباني وسائر القافلة..

ولكنه زمن حلو

هل لأنه لم يجىء؟

أظن ذلك.

هل لمست العذوبة في قوله المرخي عمامته؟

الإرخاء فعل قصدي، فعل يراد به أشياء غير مباشرة، عن طريق اللمح أو الايحاء، فماذا يراد منه؟

يراد منه أن زمنكم - أيها الشعراء - لم يجىء ولن يجيء؟ يراد منه أن السيطرة لما كان، لا لما يكون، يراد منه الضحك العبثي الأسود على الحياة كلها؟

وقفت طويلاً على كلمة (القارىء) في البيت:

ترى ماذا يقرأ؟

هل يقرأ نفسه؟

هل يقرأ مجتمعه؟

هل يقرأ الحياة من حوله؟

كل هذه الأسئلة وغيرها، لا أظن لها معنى، لأنه أرخى عمامته، ومن يرخي عمامته لا يفكر في نفسه، ولا في مجتمعه، ولا في الحياة من حوله، هو يرخي عمامته وحسب، هل تعرف معنى عمامة؟

القاموس لن يرشدك إلى معناها، الذي يرشدك إليه هو الحياة العملية نفسها، حين تقول لك:

العمامة هي الأفكار والأحكام التي لا تنبع منك، إنها تلك التي تسيطر عليك من خارجك، أو هي ما عبر عنه بعض الفلاسفة بالأصنام أو الأوهام الأربعة..

هل تعرفها؟.

إلى أين؟

من الآن، ونحن في مهجة الربيع، راح السؤال (إلى أين) ينقض من جميع الألسنة، ليحتل جميع الأسماء، وعلى كل المستويات: الظاهرة والباطنة، والخصيبة والمجدبة.

إلى أين تذهب هذا الصيف؟

هذا هو السؤال الوحيد المنحط عليك كصخر امرئ القيس، لا من عل وحسب، بل من كل الجهات، وبعفوية تامة مثل عفوية النار، وهي تأكل حطباً جزلاً.

لا أحد يسألك:

إلى أين أحلامك؟

إلى أين قناعاتك؟

إلى أين مصيرك الفردي أو الجمعي؟

الذي يطوق الاهتمام كله هو هذا السؤال الفارع المتفرد: أين تزيل الغبار الذي في داخلك هذا الصيف؟ نعم، أما أن هناك أسئلة أخرى، يمكن أن تطرح، فهذا ثمر لم تزرع أشجاره.

أي مستوى هذا الذي نحن فيه؟

أي مقصلة نسلم إليها أعناقنا، وأعناق انتمائنا وتطلعنا، بفرح كامل البلاهة؟

الكلام هذا، ليس معناه الاعتراض على عملية السفر، فالسفر لا يعترض عليه إلا من نسيت القابلة أن تخرج قلبه معه أثناء الولادة، أو نسي هو أن يعلم عينيه الفرق بين الماء والسراب.

السفر ضرورة، ولكن الاعتراض يطل برأسه من زاويتين:

لماذا لا نعرف من الأسئلة إلا سؤالاً واحداً، هو ذاك الذي يتضمن السفر؟

لماذا، على الرغم من السفر المتكرر والمتوغل في طول الأرض وعرضها، ولا تتولد عندنا القدرة على المقارنة بين وضعنا الاجتماعي والأوضاع الاجتماعية الأخرى؟

لماذا ينعدم في داخلنا حس المقارنة بين إيجابياتنا وسلبيات الآخرين، وسلبياتنا وإيجابيات الآخرين؟

لماذا، بمجرد هبوطنا في المطار، يتبخر كل ما في الذاكرة، ما عدا أسماء الموائد الشهية، وأطياف الصور الملونة؟

قل لي - إذا بتريد -:

إلى أين تذهب هذا الصيف؟

بنية ذهنية

هل يمكن للجدار أن يرفض مكانه الذي هو فيه؟ أن يقول: أريد أن يكون مكاني قرب البحر، وأن تكون النوافذ منشرحة الصدر راقصة مثل قلب عروس؟ وأن أعلو وأنخفض حسب حالة الطقس؟

طبعاً ليس في طاقة الجدار أن يفعل ذلك. .

الإنسان - أحياناً - يكون مثل الجدار، لا يستطيع أن يتزحزح عن موقع بنائه الطبقي، أو لون وضعه الاجتماعي الذي ترعرع فيه.

فيلم (تايتنك) في إمكان من يملك سلة صغيرة من مفردات اللغة أن يتكلم حوله شهراً كاملاً، ومن زوايا عديدة، ولكن صورة واحدة، من بين مئات الصور، هي التي بقيت كالجمرة في ذاكرتي.

هل تريد معرفتها؟

السفينة تغرق، والناس في هلع يفرّون من الموت الراكض خلفهم، والبحارة يعدون زوارق النجاة الصغيرة، حيث يحشر الناس فيها، في حالة من الفوضى والرعب المطلق. . تتقدم تلك الأرستقراطية العجوز بكل غضونها، وقبعتها التي لم تتحرك من مكانها قيد أنملة، تتقدم للبحارة قائلة بنبرة من في لسانها سوط:

أين زورقنا الخاص؟

هل نركب مع هؤلاء الغوغاء؟

إن هذا لشيء عجاب!!.

بالله عليك، لو كنت أمامها في تلك اللحظة، ماذا تعمل؟

ستقول: إني سأشبعها سبّاً، أو حتى ضرباً..

ولكن، ألا ترى أنك تعجلت في الإجابة؟

إن أمثالها موجودون أمامك، في الشارع والسوق والطائرة والفندق، إنك تراهم بأم عينيك، ولا تستطيع أن تفعل شيئاً.

ألا تذكر المثل القديم «أشبعتهم سَبّاً وراحوا بالإبل»؟ إنك تشبه قائله، ولكن بصورة أخرى.

لا تغضب منّي، فهذا هو الواقع في كل زمان ومكان.

الانـشطار

كُلّما سألتُ، أنقسمُ إلى اثنين: سؤالي وأنا؛
السؤال يبحث عن جواب،
وأنا أبحث عن سؤال آخر.

هل يحرك فيك هذا الكلام شيئاً؟ هل ينبه فيك حساً راكداً أو نظرة أخرى إلى الوجود؟ ألا ترى أن اعتبار السؤال جزءاً منشطراً من الإنسان رؤية جديدة تنضاف إليك؟

لقد تعودنا على الأسئلة الجاهزة والأجوبة الجاهزة..

وهذا مما ليس منه بد في الأمور الاجتماعية؛ كيف حالك؟ كيف الأهل؟ كيف الجماعة؟ كيف الطقس؟ عساكم بخير...إلخ.

ولكن أن يمتد هذا النمط إلى الأمور الحياتية التي تمس الحركة الاجتماعية، ماضياً وحاضراً ومستقبلاً.. فهذه كارثة!!

وكثير من السؤال اشتياق
وكثير من رده تعليلُ.

هذا على العين والرأس والقلب والرئتين، في الأمور اليومية والشخصية، ولكن أن تصبح الأسئلة كلها والأجوبة كلها من هذا النوع، فهذا هو البلاء.

هناك طرق كثيرة لدراسة وتحديد مكانة أي مجتمع في سلم

الحضارة، ولكن هناك طريقاً، أعتقد أنه لم يُسلك بعد، هو دراسة الأسئلة والأجوبة؛

إن مهمة الفلسفة أن تسأل

ومهمة العلم أن يجيب.

ونحن حين ندرس الأسئلة والأجوبة التي تحرك ذاكرة المجتمع وتوقعه ورؤيته إلى المستقبل نعرف على الفور مقدار ما وصل إليه في ميدان العلم وفي ميدان الفلسفة، وهل يمكن أن يتطور مجتمع بدون قدمين؟!

نحن أدرى، وقد سألنا بنجد

أطويل طريقنا أم يطول؟

هل عانقت العذوبة المطلة عليك بوجهها الطفلي من شقوق هذا البيت ونوافذه؟ هل لذعك الفرق بين طريق طويل وطريق يطول؟

أيها الطريق: إنك طويل، فلماذا تطول؟

كلمات مائية

حاول أن يعبر الشارع،
لم يستطع أن يمشي في الظل،
لم يستطع أن يمشي في الشمس،
ولم يجد بينهما طريقاً.

ما هي علامة الاستفهام التي تكبر في ذهنك، وأنت تقرأ هذا الكلام لأدونيس؟ وهل هي واحدة، أم أكثر من ذلك بكثير؟

من هو صاحب هذه الحالة؟

حين تصديك للإجابة، لابد من أن تركب لخيالك أجنحة إضافية، وتدخل في غابة الإنشاء، وهناك يمكنك حينئذٍ أن تقول: إنه الفيلسوف.

منذ ولدت الفلسفة، سار مريدوها في خطين متوازيين هما - حسب تعبير أحد المفكرين- خط دمقريطس، وخط أفلاطون وقد حاول بعض الفلاسفة مثل أرسطو أن يجد بينهما طريقاً ولكنه لم يستطع.

وعلى الرغم من أن الفلسفة اليوم قد أصبحت لا موضوع لها لأن كل شيء هو موضوعها، إلا أن الخطين ما زالا يحكمان خطوات من يسير في غاباتها، والخطان هما: الخط الطبيعي، والخط المثالي.

ويمكنك أن تقول: إنه العاشق،
العاشق القديم الذي وصف بالقول:
أبيني، أفي يمنى يديك جعلتني
فأفرح، أم صبرتني في شمالك
ولا ثالث لهما..

أما العاشق، هذه الأيام، فقد تدفق الخط من بين يديه أنهاراً عذبة، ويبدو أن المسألة قديمة، قد جاء في المستطرف الجديد ما يلي:

قال أحدهم: كان الفتى يحب الفتاة، يطوف حول بيتها حولاً كاملاً، يفرح إن لمح مرآها، فإذا ظفر منها بمجلس، تشاكيا، وتناشدا الأشعار، أما اليوم، فإذا التقيا، لم يشكوا حباً، ولم ينشدا شعراً، بل كأنهما أشهدا على زواجهما نصف الخلق!!.

قل هذا، أو قل ما شئت، أما أنا فأقول: إن صاحب هذه الحالة هو المثقف، إنه هو الذي لا يستطيع أن يمشي في الظل، ولا في الشمس، ولا يجد بينهما طريقاً.

المشي في الظل يتنافى ومهمة المثقف الوحيدة. إن مهمته أن يمشي، وفي يده مصباح كبير، أما حين يمشي في الشمس، فإنه يصبح نهباً لأشياء كثيرة، منها: حرارة الشمس نفسها!!.

أليس الأمر محيراً؟
ماذا ترى أنت؟

90%

هل قرأت قضية الأسبوع في **اليمامة** 21/ 3/ 1998؟ وهل سمعت صراخ المثقفين: لسنا سبب الخيبات؟

إن 21/ 3 من كل عام هو بدء ما يسمونه الانقلاب الربيعي والانقلاب من فصل إلى فصل هو وعاء للتقلبات الجوية، واضطراب الرياح، وتسلسل أعياد الغبار. . إذاً فليس عجيباً أن نرى آراء ثلة من الأدباء تحمل اضطرابات هذا اليوم نفسها الذي تتصارع فيه الفصول.

وقفت عيناي طويلاً على نسبة 90% التي قدرها اثنان من المشاركين كل بطريقته الخاصة، وحسب رؤيته للساحة الثقافية الموقرة.

شفيق الحوت، بعد أن عَرّف المثقف، قال ما مضمونه:

«مهمة المثقف استشراف المستقبل وعليه أن ينتقد الممارسات الخاطئة، ويتقدم باقتراحات للتصحيح، من أجل تطوير أداء السلطة. . وإذا اتفقنا على هذا فإنني أرى أن 90% ممن تقدمهم وسائل الإعلام، على أنهم مثقفون، يسقط عنهم لقب مثقف».

خالد البرادعي قال ما مضمونه:

«أرى أن المثقفين العرب فئة مغلوب على أمرها، وليس كما يشاع عنها أنها تعيش في أبراج عاجية وأعتقد أن الحديث عن عبثية

المثقفين وانعزالهم عن المجتمع حديث فيه الكثير من المبالغة، لكن بشكل عام 90% من المثقفين يحترقون كنبضات تعيش في قلب عذابات هذه الأمة».

ترى: أنت من أي التسعينَين؟

هل أنت من التسعين الذين لا تنطبق عليهم كلمة مثقف لأنهم لا يقومون بدورهم، ولا يصدعون بآرئهم، أم أنت في خيمة التسعين الأخرى التي ينتظر الجالسون فيها انهمار الثمار عليهم من كل حدب وصوب، وهم جالسون مثل الشمع؟

هل هناك شيء آخر في صراخ المثقفين؟

نعم هناك:

حسن العلوي جعل الظرف هو لاعب الشطرنج الوحيد على الرقعة الثقافية.. فالظرف، ويعني به الحاجات الحياتية، هو الذي ينقل المثقف من مربع إلى مربع آخر وليس لنا أن نحاسب المثقف، بل علينا أن نصفق له.

حسن العلوي، وهو من أشمل وأعمق من عرفوا الجواهري، لا شك في أنه يذكر قوله:

وما أنت بالمعطي التثقف حقه

إذا كنت تخشى أن تجوع وأن تعرى..

أليس كذلك؟

حتف ثقافته

أنطونيو غرامشي (1891 - 1931) أحد المساكين الذين علقوا على المثقفين العضويين آمالهم كلها ولو لم يمت في السجن، لمات حتف ثقافته وهو يعلق آماله على أشباح، أو على أوهام بيضاء.

لقد دعا المثقفين للاستيلاء على السلطة والسلطة التي يعنيها ليست هي السلطة السياسية، بل هي سلطة الرأي العام، لأن من يستولي على هذه السلطة تتداعى أمامه كل العقبات.

قل لي ألم يكن يحلم؟

بلى، والله، لقد كان يحلم.

لماذا؟

دعنا من سؤال ما هو الرأي العام؟ خذنا مباشرة إلى ما الذي يشكل الرأي العام؟

أول ما يشكله -حسب الموسوعة العالمية- هو القيم، تلك التي اشترك التاريخ والجغرافيا في صياغتها.

ترى ما هي القيم الآن؟

هذا هو السؤال الذي لم يخطر في ذهن غرامشي أن يسأل به نفسه.

القيم الآن تنحصر في مسارين:

1. أنا، أنا فقط.

2. القوة هي الحق.

إنها قيم الغابة بكل وحشيتها.

ثانياً، في الأزمنة الماضية،كان من أسباب صياغة الرأي العام ظهور بعض الأفراد المؤثرين في مجرى التاريخ، أي من يمكن تسميتهم بـ«الأبطال». وهذا العامل الثاني قد انهار الآن.. فقد مضى عصر الأبطال، وأصبح الذي يتحكم في صياغة الرأي العام هو ذلك الشخص غير المرئي، والذي فيه إرادات عابرة للقارات، وأعني به رأس المال، الذي يملك وسائل الاعلام.

ثالثاً، من أسباب صياغة الرأي العام: المناهج التعليمية، ووسائل تنمية وتطوير الميول الأساسية، ووجهات النظر، وهذا السبب مثل غيره قد انهار منذ زمن بعيد، فقد كانت أهداف التربية أخلاقية في المقام الأول. أما الآن فإن أهدافها برغماتية محضة في كل أنحاء العالم، ما عدا مجتمعات قليلة لا تستطيع أن تؤثر في صياغة أي رأي مطلقاً.

ماذا بقي إذاً في قدرة المثقف؟

لم يبق شيء..

ولكن هل يستسلم؟

لا أعتقد ذلك.. إن عليه أن يقوم بتعويد قدميه على الثبات في الأرض، وصوته على الانطلاق في الفضاء، وهذا ما يستطيعه فعلاً، وإذا تمّ، فهو كاف.

سوطان

في **الجزيرة الثقافية** ليوم الأحد الماضي 1/ 3/ 1998 سوطان، ارتفعا عالياً، وانقضا على ظهر الساحة الثقافية مباشرة، وبدون رفيف جفن.

الأول:

من سمات وضعنا الأدبي والفني: العلاقات والمصالح والحسابات الشخصية، والمزايدات الدينية والإقليمية والطائفية والقبلية، وعلى كل ذلك يتأسس كثير من القول، مع الأسف.

إنك ترى في الغالب إمّا مديحاً لا أساس له، أو حفاوة لا أساس لها، أو تجاهلاً لا أساس له، أو أحكاماً لا أساس لها، أو تحليلات لا أساس لها، أو تنافسات على الشهرة والتفوق والريادة لا أساس لها، أو مشاحنات لا أساس لها، أو مزاعم لا أساس لها، أو - إذا أردت أن تكون حداثياً وأنا لا أعرف حتى الآن معنى محدداً واحداً لهذه الحداثة - ترى أيضاً أساساً لا أساس له... إلخ.

الثاني:

الآن وهنا يتبادر إلينا تساؤل: هل من الأفضل حقاً للمبدع الأصيل، الفنان الحقيقي والموهوب، الابتعاد عن الساحة، والزهد في أضوائها، لينجز مشروعه الإبداعي بعيداً عن الزيف والضغوط الأخرى

المتعددة، ومغريات التوهج النجومي، خاصة إذا عجّت الساحة بالخلط بين ما هو أصيل وحقيقي، وما هو سوى ذلك؟!

السوط الأول رفعه الدكتور أحمد الشويخات وهو مثقف أثبت أنه فارس في ميادين كثيرة: ميدان الإنتاج وميدان الإبداع وميدان الوعي النقدي. أما السوط الثاني فهو لمبدع شاب، تملؤه الغيرة على الساحة هو محمود تراوري.

السوطان لم يرتفعا في فضاء خيالي، أو مبالغ فيه، ذلك لأن ساحتنا الثقافية هي أكثر من هذا الذي قيل فيها، إنها وريثة ساحة داحس والغبراء، وابنة «النقائض» التي لا تنازعها هذا الشرف ساحة أخرى.

ولكن هناك سؤالين:

هل ساحتنا هي الوحيدة في هذا المستنقع؟

ثم ما هي الأسباب؟ وكيف الخروج من قبضتها؟

إن من يرى مناظرات الفضائيات العربية، ويقرأ ما حدث في كل الساحات الثقافية العربية، وفي أمامها الساحة المصرية التي قال أحد شعرائها في العقاد:

ورحت ترتع من أحضان غانية
لو أطبقت فخذيها مت من سغب

إن من يرى ويقرأ هذا وذاك لا يقشعر بدنه ولا ذهنه فقط، مما يحدث على ساحتنا من «اغتيال العقل» ورمي الفكر والصدق بالحجارة.

أما ما هي الأسباب؟ وكيف الخروج من أسرها؟ فهذا له حديث ذو شجون آخر.

جحيم الاكتمال

«عادة ما تجيء القصيدة في آخر الليل
تنثر أمتعتي
وتبعثر أوراقها في دمائي
تتمدد فوق سريري
تمسح شعري برفق
توسدني سطرها
ثم تحفر في جسدي كوة
تتدفق من زيتها أنهر من ضياء
تلك عادتها حين تفرغني من جحيم اكتمالي
تملؤني بالخواء»

(عبدالوهاب أبو زيد، **جريدة البلاد** 27/ 12/ 97)

ما تراه ليس انفجاراً لغوياً، يولد فيك إحساساً جمالياً وحسب، كما هي عادة الشعر، ما تراه تلتقي فيه حمى المتنبي مع إحدى فتيات عمر بن ابي ربيعة، حيث يتحول الجسد إلى مشكاة «زيتها يضيء» بل تتدفق منها أنهر من ضياء.

الامتلاء/ الفراغ

ضفتان تجري بينهما القصيدة جامحة معربدة، أم لعنتان يسير

بينهما الشاعر، كرّة تحت إرادة القصيدة، تنقسم بين جحيم الاكتمال، وثلج الخواء.

أبـيـت بـأبـواب الـقـوافـي كـأنـمـا
أصـادي بـهـا سـربـاً مـن الـوحـش نـزعـا

هذا ما عبر به أحد أعمامنا عن شقائه مع القصيدة، إنها غزالة نافرة، وعليه ألاّ «ينام ملء جفونه» بل عليه أن يقضي الليل راكضاً خلفها.

أما القصيدة عند (ابو زيد) فهي نوع آخر، إنها هي التي تصادي هي التي تلاحق «جحيم الاكتمال» تتوحد معه.

يصبحان شيئاً واحداً، ثم يبقى الشاعر في فراغه المنتظر جحيم اكتمال آخر.

الكوّة عادة تفتح أو ترقع:

وكـنّ إذا أبـصـرنـنـي أو سـمـعـن بـي
سـعـيـن فـرقـعـن الـكـوى بـالـمـحـاجـر

أمّا هنا فنرى الكوّة تحفر وهذا ما عبر عنه كمال أبو ديب بـ «الفجوة» أو «مسافة التوتر»: كل تكوين شعري هو تحقيق لاختيار محدد على حساب اختيارات عديدة ممكنة، وما يتحقق يصبح حضوراً، أما ما يظل ممكناً فإنه غياب.

لقد عبرت عن هذا قبل سبعة وعشرين عاماً، بـ: الطعنة الشعرية. وهذا ما أشعر به لاتجاه غياب الذاكرة اللغوية لسياق (الفتح/ الحفر).. بل باتجاه هذه القصيدة كلها.

مقالات لم تُنشَر في الصحف

الحرية

مقولة: «الحرية وعي الضرورة» لم يعرفها الإنسان إلا بعد أن راح وعيه يتوكأ على عصا اسمها الفلسفة؛ أما آلاف السنين قبل ذلك فقد خاضها ولم يكن يعرف إلا الضرورة تلو الضرورة.. في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً. يقول أحد الفلاسفة: «ليس تاريخ الإنسان إلا تاريخ صراعه الأبدي مع الضرورة.. فالحرية لا تعرف إلا بمعرفة نقيضها، أي الضرورة».

الحرية إذاً لم تكن ثمرة ناضجة يقطفها الإنسان من شجرة الإرادة كيف شاء.. بل هي معاناة أزلية وأبدية ويتضح هذا من تأمل أحد التعريفات للحرية الذي يقول: «الحرية تعني انعدام أي إكراه خارجي للذات».

التعريف هذا -في ما أظن- لا يلتفت إلى إكراه الطبيعه للإنسان على الامتثال لقوانينها ما لم يفهم هذه القوانين، يتحكم فيها بدلاً من تحكمها به .. ولا يلتفت إلى الإكراه الداخلي: أي الناشئ من طبيعة الحياة الإنسانية جسداً وروحاً .. إن التعريف منصب على أنواع أخرى من الإكراه التي لا يلجمها الإنسان إلا بعد صراع مرير.

الشاعر يصارع اللغة.

والعالم يصارع القوانين الطبيعية.

والفيلسوف يصارع غياب المعنى.

وهذه الصراعات على عنفها وديمومتها كلها تنتقل بالإنسان إلى الصعود على السلم الطويل من التطور.. إنها وعي الضرورة حقاً والتحرر منها على مهل.. ولكن هناك نوع من الإكراه يوقف التطور عن الصعود.. هو الإكراه السياسي. ذلك لأن السياسي يصارع تغير الناس. هذا النوع من الإكراه هو ما أفهمه من التعريف السابق للحرية.

إن الأيديولوجيا تصارع تغير أفرادها إذا لم تكن ذات منهج جدلي والقبلية تصارع خروج أفرادها من سياجها وكذلك الطائفية.. وما أشبه ذلك من الخيم التي تحولت إلى بيوت.. كل هذا صحيح ولكن كل هذه جاءت من التاريخ، ولذا فهي تلقائياً في طريقها إلى الزوال.. أما السياسي حين يمنع تغير الناس فهو يحاول «إحياء» التاريخ ليصنع شيئاً جديداً ليس قبلية ولا طائفية ولا أيديولوجية، إنه شيء جديد نسميه «محاربة الوعي».

«متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً». هذا الموقف الأخلاقي الذي جسده الخليفة عمر مرتفعاً لأول مره في تاريخنا لم يسمعه السياسيون من بعده.. لماذا؟ لأن وعي الناس لم يصل إلى إدراكه.. أما الآن فقد تغيرت الحال.. لقد أصبح الناس على الوعي به وعياً كاملاً.

أليس كذلك؟

بلى ورب الكعبة.

منعت من النشر

هل تريد لمقالتك أن تصبح «علماً في رأسه نار؟»، إذاً اكتب بجوار عنوانها «منعت من النشر». وهنا ستهب عليك «رياح المواقع» كل تقول: «إلي.. إلي.. من زمان إنته وينك؟»، إذ سيحتشد حولها القرّاء وستكون أنت من الذي كتب لهم الله تعالى الشهرة الجامحة.

ما هي فائدة المنع؟

لا تتسرع وتجيب بأنه لا فائدة من المنع، ولذا فإنه نوع من العبث لأن القرّاء للمواقع أكثر من قراء أي صحيفة ورقية .. بالإضافة إلى أن المنع أشبه بوضع المقالة بين قوسين.. أي يجعلها محل تركيز وانتباه أشد من القارئ.. لا تقل مثل هذا فللمنع «سبع فوائد» تماماً مثل السفر:

ألا يقرأها الأمّيون والأمّيات.

تنبيه الكاتب إلى أنه اقترب من «حمى حرية التعبير» وعليه أن يتذكر داحس والغبراء.

التذكير بقول الماغوط «أنتم تملكون المشانق ونحن نملك الأعناق».

الدلالة الضمنية بأن السيّد الذي منع النشر خارج الزمن فهو يتصرف بذهنية القرن الثالث عشر.

الدلالة الأخرى على العشوائية في المنع بين صحيفة وأخرى. . فما ترى أنه ممنوع في صحيفة ترى في صحيفة أخرى ما يتجاوزه في زعزعة ما يحاول المانع تثبيته. . الأمر الذي يدل على أن المانعين لا تجمعهم رواية واحدة. . بل كلٌّ يتصرف حسب تخليه عن المسؤولية وخوفه من المساءلة، والنظر إليه شزراً.

تذكيرنا بحكمة أبي تمام: وإذا أراد الله نشر فضيلة-طويت أتاح لها لسان حسود.

أما الآن فأنت تنتظر أن أذكر لك الفائدة السابعة . . غير أن هذه من «المضنون به على غير أهله» وأعرف أنك من أهله ولكن من يضمن لي الآن ألا يطلع عليه من ليس من أهله؟

الذي دعاني إلى تكرار الكتابة في هذا الموضوع هو منع مقال الأستاذ عبدالرحمن الحبيب عن كتاب الدكتور فهد اليحيا «خطأ حلو. . خطأ مر» عن صناعة السينما. . وأعتقد أن كل من قرأ تلك المقالة طرح السؤال على نفسه «لأي شيء منعت؟» وحين يحاول الإجابة لن يجد أمامه سوى كلمة «سينما» التي ظنها مانع نشر المقالة مرادفة لإنفلونزا الخنازير.

إن للأستاذ الحبيب مقالات عديدة منشورة أبعد أفقاً وأقدر على تحريك الالتفات من القراء إلى ما هو أهم من السينما. . ولا يقل اليحيا في مقالاته القليلة عن الحبيب. . أما كتابه عن السينما فسأكون من الذين حفزهم منع مقالة الحبيب إلى اقتنائه وقرائته ثلاث مرات.

حبسة اليد

الحبسة هي ثقل في اللسان يمنع من الإبانة. وهناك ما يسمى «حبسة اليد» وهي عدم القدرة على الكتابة مع سلامة الأعضاء.. وهذا النوع من العجز أو الحبسة هو ما يغري هذه المقالة أن تدور حوله.

عندما تقرأ مقالات الرأي في صحفنا المحلية «الغراء» تدهشك النوايا البيضاء المغرده يحب الوطن وقداسة الانتماء إليه.. ولكنها لا تفرز في النهاية غير آهات تشبه الدخان من شيء يحترق وتشم بين مفرداتها رائحة اليأس من تحقق شيء ما.

نحن لا نسمي هذا «مسكوتاً عنه» لأن المسكوت عنه يتم بطرق إرادية.. لإخفاء شيء أو تدليس غرض ما.. أما في وضعنا هذا «الحبسة» فهو لا يتم بالإرادة وليس له غير مسمى واحد هو «حبسة اليد» ولكن حبسة اليد امتناع عن الكتابة كلها.. لا داخلها.. وإذاً فهذا المصطلح لا ينطبق عليها.. لأن الكاتب استطاع أن يضع أمامنا «معلقة» طويلة ولكنها لم تقل شيئاً في النهاية.. إذاً هي ليست حبسة يد ولا بد من السؤال: ماذا نسميها؟

نسميها «حبسة الخوف»:

لنعترف بأن التاريخ الطويل ترك في دمائنا كريات سوداء نسميها «الخوف»، بدءاً من الخوف من الطبيعة في العصر الجاهلي إلى

«الإخافة المبرمجة» بعد ذلك العهد حتى الآن. . والخوف غريزة بشرية في حدود ما لا يستطاع رده. . فليس من المعقول أن ينام الإنسان «على زأر من الأسد».

ولكن الخوف الذي يشل إرادة الإنسان ويحط من حريته وكرامته وينغص حياته. . هذا النوع من الخوف هو ما تجب مقاومته. . ونحن نعرف من التاريخ نفسه أن هذه المقاومة أعطت جدواها في مناطق كثيرة على امتداد الأرض.

لابد أنك تعرف وقفة هيغل على «جدلية السيد والعبد» التي تقول: «لكي يصل الإنسان إلى وضع الرجل الحر عليه أن يغامر بحايته الخاصة. . ذلك أن الأفراد (البشر) يتقاتلون في ما بينهم حتى الموت لـ «الاعتراف بالذات» الّذي يستسلم أولاً في هذه الحرب. . الذي يتنازل خشية تعريض حياته للخطر هو الذي يصبح عبداً. . أما المنتصر فهو ذاك الذي تجرأ على المواجهة. . فيصبح هو السيد ويحوز (. .) الاعتراف».

طبعاً نحن نعرف أن الزمن تجاوز هذه الجدلية بمسافات فالهزات التي أصابت السلوك البشري وسلم القيم الذي يحدد هذا السلوك قد غير الذهنيات القديمة وأصبح هناك قانون يسنه العلم وحقوق الإنسان هو الذي يبسط سلطته على الأرض شيئاً فشيئاً.

أليس كذلك؟

بلى ورب الكعبة.

شؤون صغيرة

أحياناً أوجه سؤالاً إلى نفسي: أيتها السيدة المكنونة ما أجمل ما قرأت هذا اليوم؟ والأجمل الذي أعنيه ليس مستنداً إلى دقة تعبيرية تجعل اللغة أجمل مما كانت أو غوص فلسفي إلى أعماق جديدة أو زخرفة لفظية تسر الناظرين. . لا، أبداً، فقد تكون هذه كلها، وقد تكون اصطياداً لطرفة مرت كما يقول نزار: «شؤون صغيرة، تمر بها أنت دون التفات».

قريباً، حين وجهت السؤال إليها اجابت بسرعة ضوئية إنها مقالة الأستاذ حمود أبو طالب التي وصف فيها صراع شيخين حول جواب السؤال الآتي: هل من يتوفاه الله تعالى بإنفلونزا الخنازير يحسب عند الله شهيداً أو لا. . إنه مثل من يموت حتف أنفه؟

الأستاذ أبو طالب وقف على هذا المشهد بخلاف موقفي فقد وقف متعجباً أما أنا فقد وقفت أمام اقتناصه للمشهد إعجاباً بطرافة هذا الاقتناص. وأنا في الواقع لن أزيد على ما قاله أبو طالب إذ لا زينة مع عروس. . ولكنه فتح أمامي باباً للقول، بل للأقوال التي لا تنفد.

إنه عبر ضمنياً عن موقف حضارتين متباعدتين، حضارة تفكر في الحياة ويسهر علماؤها لإيجاد دواء يقضي على هذا المرض وغيره من الأمراض ليحيا الناس حياة طبيعية كما وهبها الله وحضارة أخرى يسهر

علماؤها الكرام وهم يحدقون في الغيب ويحددون طريق الميت إلى أين يذهب في موته؟!.

ليس هذا وحسب:

إن معظم الاكتشافات والاختراعات الحديثة وقف منها هؤلاء موقف الرفض المطلق ابتداءً من أنابيب المياه إلى الاستنساخ ومن الهاتف إلى تعليم المرأة.

حين مدت الدولة أنابيب الماء إلى الأزهر، امتنع المشايخ من الوضوء من هذه الأنابيب وكان الماء المتدفق فيها تحول من النيل وأصبح خمراً.

إنه عجز في الفهم والإدراك، ناتج عن ثقافة مغلقة.. لا نرى أنه بعد أن تزحزحت هذه الثقافة عن صومعته أصبح أولئك المحرمون له في أوائل من يركضون إلى اقتناء ما كان حراماً.

ترى: هل أفادتنا التجارب الماضية؟

أفادت بدون شك، ولكن التناقض متواصل بدون شك كذلك، لأن المشكلة باختصار هي رفض كل جديد في عالم الفكر والعلم والمعرفة.. وهذا الجديد لن يتوقف فنحن أمام طوفان قاهر من تدفق العلوم والنظريات والاكتشافات والاختراعات التي قاربت أن تتناول المستحيل.

الوسطية

في كتابه (التراث والتاريخ) حدد الأستاذ شوقي جلال معنى الوسطية استناداً إلى الآيات القرآنية الكريمة التي ذكرت فيها. ووصل إلى أن للوسطية معنيين: الأول أن يكون الشيء بين طرفين. . أي محدد مكانياً، والثاني أن يكون أشرف من غيره. . وهو المقصود في الآيتين: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ (القلم: 28)، أي قال: أفضلهم رأياً. . وكذلك الآية ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ (المائدة: 89).

ومن يستمع إلى خطابات السادة السلفيين هذه الأيام، يقتنع بأن المراد بـ«الوسطية» هو التميز والأفضلية والرفعة. . وأذكر أنني كتبت عدة مقالات منذ زمن بعيد عن «مفهوم الوسطية» ووصلت في نهايتها إلى أن الاستخدام المتداول لمفهوم الوسطية استخدام عشوائي ويحسن أن يعاد النظر فيه. وقد كانت تلك المقالات قبل اطلاعي على كتاب الأستاذ شوقي. . وأحب أن يطلع القراء على بعض ما ورد فيه من أفكار قيمة.

(الوسطية فكر مستقل)

«الوسطية في مجال الفكر تعني احتلال موقع وسط بين طرفين نقيضين، فهي نفي وقبول جزئيين لهذين الطرفين. . ووجودها مرهونٌ

بهما. . إذ تنتفي الوسطية بنفي أحدهما أو كليهما نفياً كاملاً. . ولا بد أن يكون وجودها إذ ذاك إيجابياً حتى يتحقق لها الوجود. . بمعنى أنه لابد وأن تتكامل معهما، وتحرص عليهما حرصاً على وجودها. إذ لو عمدت إلى القضاء على أحدهما أو كليهما لسقطت عنها صفة الوسطية. . الأمر الذي يعني أن الوسطية تستمد مشروعية وجودها من وجود طرفين نقيضين. ويعني هذا أخيراً أن الوسطية تنطوي على قدر من التسامح إزاء التعددية التي تستمد منها وجودها ومشروعيتها. . ثم أخيراً فإن الوسطية عند الثبات أو السكون بل الجمود. . لأنها بحكم موقفها الذي هو وليد الحوار المتصل مع طرفين نقيضين. . فهي تتطور من حيث المضمون. . وهي أيضاً وبفعل هذا الحوار وحركة النقيضين أبداً. . هي في تغير مطرد من حيث الإطار والموقع. . أي من حيث البنية الفكرية ومسافة الوصل والفصل بين أحد الطرفين. . والتغير هنا حركة وليدة تناقض. . ووعي نقدي بالطرفين المتطرفين، وما هو مرفوض أو مقبول منهما. . مع إدراك الأسباب. . وهي حركة لا تتم في فراغ ميتافيزيقي بين فكر صوري. . بل رهن الواقع الحي المتجسد مجتمعياً بشرياً تاريخياً. . » (شوقي جلال، **التراث والتاريخ**، ص21/ 22).

لا أظن أنه قد فاتك التركيز على أن شرط تحقق الوسطية مرتبطة بشيئين: التسامح والتغير. . إن التسامح هنا ليس مِنّة، كما هو في أذهاننا. . بل هو ضرورة لأنه بانتفائه تنتفي الوسطية فهو ضرورة وجود. أما الثاني فهو تغير. . الآن الوسطية تقوم على نقيضين، والنقيضان لا بد أن يكونا في صراع دائم، أي في تغيُّر، وما بُني على متغيّر لا بد أن يكون متغيراً.

وهنا أسأل:

الوسطية التي نتبجح بها، أين هي من هذين الشرطين: التسامح والتغير؟

أفتونا!.

الأقنعة

أظن أن أول استخدام للقناع كان محاولة الإنسان تضليل الحيوانات المفترسة أو ما يريد اقتناصها. . قبل أن يتخذه وسيلة سحرية لاستحضار القوى الشريرة والخيرة على السواء للتأثير عليها اتقاء لشرها أو استسقاء لخيرها. . أما مفهومه الآن فقد استقر على ما يلي:

«القناع شكل للتنكر يُرتدى عادة فوق الوجه لإخفاء هوية الشخص ولإنشاء كينونة أخرى. . وقد وظفت الأقنعة في جميع أنحاء العالم وفي جميع المراحل منذ العصر الحجري».

الأقنعة متعددة بتعدد الوظائف التي تؤديها وإذا كان الخوف من الحيوانات المفترسة أو القوى المجردة هو الدافع إلى اتخاذ القناع وسيلة لإخفاء الكينونة. . فقد أصبح الخوف من المجتمع دافعاً إلى خلق أقنعة أخرى. . أهمها على الإطلاق قناع «اللغة».

الجهل قناع والتقليد قناع وحتى العقل في العرفان الصوفي قناع ولكن قناع اللغة أقواها وأكثرها ألواناً. . وقد بدأ هذا القناع في الظهور في الشعر - حسب عبدالرحمن بسيسو - منذ العصر الخامس قبل الميلاد، إذ قال إيسخيلوس ويوربيدس أكثر مما قال سقراط وأعدم من أجله في حين أنقذهما قناع اللغة.

الذي يشغَل اهتمامي هنا هو الأقنعة التي تصنع من اللغة ووظائف تلك الأقنعة، أما غيرها فلها مكانها الآخر.

الشاعر حين يصنع من اللغة قناعاً للفرار من التوترات النفسية التي يسببها قلقه الوجودي أو خوفه من القمع والاستبداد.. الشاعر حين يفعل ذلك لا يترك مرضاً معدياً يصاب به المجتمع.. وحتى المنافق الذي يصنع من اللغة كشكولاً يضع فيه فتات الموائد ليس ذا تأثير عام وإن كان فعله هادماً للأخلاق.. ولكن من يتخذ من اللغة الدينية قناعاً للوصول إلى هدف غير ديني، فهذا هو الكارثة العامة.

يجمع المؤرخون على أن الدولة الأموية هي التي أشاعت عقيدة الجبر.. يقول أحد خلفائهم:

«الأرض لله وأنا خليفة الله.. فما أخذته فلي وما أعطيتكم فبفضل مني»، وقد طبق هذه العقيدة زياد بن أبيه في العراق عام 51 هجرية.

لغة الدين لغة مقدسة يحكم فيها قانون واضح هو (مقاصد الشريعة) غير أن ما نسمعه وما نراه الآن لا قانون له، لقد اختلط الحابل بالنابل.. وما عليك إلا أن ترى بأم عينيك وتسمع بأذنيك ما يقال على الفضائيات على أنه من اللغة المقدسة.

هل نفهم تراثنا

«إذا توقف مجتمع ما عن التقدم العلمي فإنه لا يلبث أن يفقد السيطرة على إنجازاته الماضية. . لأنه يفقد، بسرعة، القدرة على فهمها واستيعابها. . نفهم هكذا، كيف يمكن أن تنحط أمة من قمة العلم إلى حضيض الجهل، يكفي أن ينقطع لسبب ما حبل التواصل بين أجيال العلماء» (عبدالله العروي، **ثقافتنا في ضوء التاريخ**، ص121).

افتتحت هذا المقال بهذه الفكره أو المقولة للأستاذ العروي لما فيها من طرح جديد لعلاقتنا بالتراث أو أفق الثقافة القديمة باتساعه المهيب. . وقد استولدت العنوان من الفكرة نفسها، وهو عنوان صاعق: أن نسأل الآن «هل نفهم تراثنا أولاً؟». ما يستفاد من مقولة العروي أننا لا نفهم تراثنا ولا آفاق ثقافتنا القديمة. . صحيح أن العروي يتكلم على «العلم» وكأنه يعني بذلك مجتمعاً آخر غير مجتمعنا الماضي. . ولكن لا يمنع هذا من نقل المقولة إلى مجمل الثقافة علماً وأدباً وفناً وطرائق سلوك.

لنترك الخوض في الاختلافات المتضاربة التي شكلت تيارات التراث، ولنترك كذلك جوانب تخلفنا عنه في كثير من الأمور مع مراعاة تاريخيّة تلك الأمور ومراعاة ما تقتضيه النسبية من الاختلاق مع

حاضرنا.. ولنأخذ مفهوماً واحداً فقط ليكون مقياساً واضحاً لتخلفنا عن ماضينا.. هذا المفهوم لم يبق قلم من الأقلام في ساحتنا لم يستنفد حبره في الدعوة إليه.. هذا المفهوم هو «التسامح» مع أني ضد استخدام هذا المفهوم.. ولكني أتبع المثل «مع الخيل يا شقرا» في الوقت الحاضر.

لو وجد شاعر في القاهرة أو الرياض أو قندهار يقول ما يلي:

أنفت نفسي العزيزة أن تقنع، إلا بكل شيء حرام.

ويقول:

أصبني منك يا أملي بذنبٍ   تتيهُ على الذنوب به ذنوبي.

ألا يُهدر دمه ونحن في هذا القرن في حين أنه قال قوله هذا قبل أكثر من أحد عشر قرناً؟

ألا يصح أن نسأل: أين المسلمون آنذاك.

دعنا من هذا ولنذهب إلى (رسالة الغفران)، لو كان مؤلفها موجوداً الآن.. ألا تُستنفر جميع الجيوش للزحف إلى داره وهدمها على رأسه؟

أين هو التسامح إذاً؟

هل تعلم أن (إحياء العلوم) للغزالي سيعاد طبعه وقد حُذفت منه فصول بأكملها بدعوى أنها تخالف الشريعة.. هذا الغزالي الذي حفر قبراً واسعاً دفن فيه الفلسفة والفكر الحُر وكل إبداع، وشرّع للطائفية والرأي الواحد.. وحشد كل ما استطاع من الظلمات في أفق الحضارة بأكلمها.. هذا الغزالي يُعتبر الآن مخالفاً للشريعة في بعض أقواله.

ألا يصح أن نسأل:

نحن إلى أين؟.

سوريالية

منذ زمن لم أكتب تحت هذا العنوان.. وقد قلت مراراً: إني أكتب تحته حين أمر بنصٍ يحمل سمات السوريالية، كما عرّفت عام 1925م، أي فرض منطق الحلم على السرد الواقعي.. وتسجيل ما يمليه اللاشعور والأحلام، دون أي ترابط.. وهذه ما رأيته في نصين يدخلان في ثقافتنا التراثية التي لا زال لها تأثيرها.

1. مساكنة الكفار:

في كتابه (**في شرعية الاختلاف**، ص91) يروي علي أومليل عن كتاب الونشريسي (المعيار المعرب)، يقول: «إن مساكنة الكفار، من غير أهل الذمة والصغار لا تجوز ولا تباح ساعة من نهار.. فمن أراد من المسلمين انقلاب تلك السلاسل والأغلال في عنقه.. فقد حاد الله ورسوله، وحقيق أن يكوكبه الله معهم في النار».

2. مساكنة المسلمين:

جاء في كتاب ابن عابدين (رد المحتار على الدر المختار) النص الآتي:

«إن الأصل تمييز غير المسلمين عن المسلمين، وإذا وجب التمييز، وجب أن يكون بما فيه ذل وصغار لهم، كي لا يعامل غير

المسلم معاملة المسلم في التوقير والتعظيم، فلا يركب غير المسلم خيلاً مطلقاً. . وإن ركب حماراً ينزل عنه عندما يمر بالمسلمين، ولا يسكن داراً عالية البناء، ويجعل على داره علامة. . لئلا يقف عند داره سائل ويدعو له بالمغفرة، وعليه أن يظهر «الكسيتج» فوق ثيابه، محوكاً من خيوط الصوف. . و(الكسيتج فارسي معرب، ومعناه العجز والذل)، ولا يلبس الثياب الفاخرة، والأبراد الرقيقة، ولا يلبس زنار البريسم، وإنما يلبس قلنسوة طويلة سوداء».

«وكذا تؤخذ نساؤهم بالزي في الطرق، فيجعل على ملاءة اليهودية خرقة خضراء، وعلى ملاءة النصرانية خرقة زرقاء. .وينبغي لغير المسلم أن يلازم الصَّغَار فيما يكون بينه وبين المسلم في كل شيء، وعليه فيمنع من القعود حيال قيام المسلم عنه، ويحرم القيام له تعظيماً، وتكره مصافحته، ولا يبدأ بسلام إلا لحاجة، ولا يزاد في الجواب على وعليك».

أنت بدون شك تعتقد أن هذه النصوص وأمثالها قد انقرضت، وأن العصر قد غير كل شيء فيها. . . ولكنك حين تعتقد هذا الاعتقاد لا تستطيع أن تفسر هذه الجموع التي تنشر الدمار في العالم. . لا تستطيع تفسير الأسباب التي تدفعهم إلى ذلك. . فهذه النصوص ومضامينها وصياغتها، «المحدثة» عبر الأشرطة والنت هي التي تغذيهم وتدفعهم إلى إشعال النار في كل مكان يمكنهم الوصول إليه.

ماذا تريد من بوش؟

– نريد منه أن يسلم أو يدفع الجزية وهو صاغر.

هذا ما سمعته بأذني ورأيته بعيني عبر **الجزيرة الفضائية** حين سأل

المذيع شاباً جزائرياً، لحيته أطول منه، فما كان منه إلا أن قال بغضب يتطاير الشرر منه جوابه ذاك.

أكرر إذاً ما الفرق بين طالبان والقاعدة وألوف الشباب من فصيلة هذا الجزائري. . وبين أبن عابدين أو الونشريسي؟!

ليس بعيداً

معنى البعد والقرب ليس جغرافياً وحسب، بل له أبعاد أخرى. . من أهمها قراءة الواقع قراءة شاملة ضاربة في الجذور للوصول إلى تقدير المسافة الزمنية بين شيئين، أو شيء واحد في الظهور أو الاختفاء في أو من الحياة الاجتماعية. . ومن ذلك ما أريد قوله الآن.

على الشاشات الفضائية نرى ونسمع من يتصدى للفتيا. . وكأنه كان من كوكبة المقاتلين في موقعة بدر الكبرى الفاصلة. . أو أنه قد أذن له أحد الخلفاء الراشدين بأن يجلس متربعاً في المسجد الحرام، ويفتي بين الناس، أو ينادي عليهم: اسألوني.

ونظراً إلى ما نسمعه من تلك الفتاوى، فإنه (ليس بعيداً) ذلك اليوم الذي يخرج علينا فيه أحدهم قائلاً: يجب أن يكون الحج سنة للرجال وسنة للنساء. . على وزن سوق للرجال وسوق للنساء. . وحين يسأله أحد المشاهدين عن سبب ذلك، سيقول:

بني، أيها السائل الكريم: هناك باب يسمونه «سد الذرائع» ومعناه هو «إذا كانت الوسيلة توصل إلى محرّم صارت محرمة، ووجب منعها. . وإذا كانت تؤدي إلى واجب فهي واجبة، والمعتبر ليس نية الفاعل، بل ما يؤدي إليه. فالاحتكار - مثلاً - ممنوع سداً لذريعة التضييق على الناس، ومنع الدائن من قبول الهدايا من المدين سد لذريعة الربا».

وحين نفتح باب سد الذرائع - يا بني - أمام الحج في هذه الأيام نرى أنه يضيق عن تحمّل هذا الزحام المترامي بين الحجاج من الرجال والنساء، لأن هذا الترامي سبب للاختلاط المحرّم وذريعة له، فلا بد من التفريق بينهما.

يقول أشرف إحسان فقيه أحد الكتاب المتميزين في هذه الجريدة في مقاله يوم 7/ 5/ 2007م «بعد عشر سنوات من الآن سيتلفت أبناؤنا وبناتنا من حولهم. وهم في أحسن الأحوال سيضحكون حتى تدمع عيونهم على جيل سبقهم، جعل من الوردة مسألة شرف وعقيدة. . وتوقف مفكروه طويلاً حول حكم الجمع بين إناث القردة وذكورها في أقفاص حدائق الحيوان».

الذين يتنازعون في اختلاط القردة، ويمدون الأحكام الشرعية إلى شمول الحيوانات. . ألا يخلّفون نسلاً سوف يحكم بحرمة اجتماع النساء والرجال في الحج، وباب سد الذرائع مفتوح على مصراعيه؟

أما تحريم الوردة فهذا جرس إنذار لجميع الشعراء بأن يحثوا على مواهبهم التراب ويئدوا أشعارهم، لأن الشعر أخو الوردة. . شقيق الأزهار. . وليس بعيداً أن نسمع من يحرم الشعر. . ويأمر بجلد كل شاعر تفوّه ببيت من الشعر ثمانين جلدة.

ما هذا الذي يحدث؟

ماذا فعلوا ويفعلون بالإسلام؟

هل تستطيع أن تجيب؟

ديسمبر 2007م

الملوخية حرام

منذ كنا صغاراً ونحن نسمع عن «عجائب الدنيا السبع» وهي كلها مرتبطة بالبناء والنحت مثل: أهرام مصر، وحدائق بابل، وتمثال زيوس للنحات الإغريقي فدياس الذي نحته عام (435 ق. م.) ومنها سور الصين العظيم الذي يمتد كأطول بناء في التاريخ (6400كم) وارتفاعه (7,5م).

ولم يخطر في خيال القدماء ما هو أطول من سور الصين.. ولو تجاوزوا الأمور المادية الحسية إلى المعاني النفسية والذهنية.. لعدوا سور الصين قزماً من الأقزام وأهرام مصر قبوراً يجب هدمها حسب أوامر باب سد الذرائع لأنها تخليد للأموات.. وهو طريق إلى الشرف اقتداء بتحطيم طالبان لتمثال بوذا.

«سد الذرائع» هذا أطول من سور الصين العظيم ومن جده وأبيه، لأنه يمتد طوال التاريخ.. وكلما جاء (حافظ) فقيه وسعه عدة كيلو مترات حسب تقاه وورعه.. أما ابن حزم فقد ذهب قوله الساخر أدراج الرياح أو التجاهل فقد قال: «لو كان سد الذرائع صحيحاً لوجب على المرء أن يقطع عضوه التناسلي لأنه الطريق إلى الزنا».

هذا القول الساخر لابن حزم لا تظن أنه بقي في نطاق السخرية.. فها هو «الحاكم بأمر الله الفاطمي منع أكل الملوخية في

مصر. . لما أخبره طبيبه بأنها تزيد الخصوبة عند الرجال. . وذلك منعاً للفسق» أي حسب أوامر باب سد الذرائع.

وأسأل:

هل حرم هذا الحاكم بأمر الله الملوخية ورَعاً أم حسَداً؟

وسخرية ابن حزم ليست سخرية عفوية، بل هي مقصودة لأن معظم السدود الذرائيعية قديماً وحديثاً ومستقبلاً تقوم عليه. . وكأن الجنس ليس طبيعة بشرية. . أو كأنه أعمى أو كسيح لا يعرف كيف يعبر السدود مهما كانت شاهقة.

إن منظّري أو مهندسي سدود الذرائع ينظرون إلى الإنسان من الخارج فيضعون أمامه من السدود ما يرغبون فيه. . ولا ينظرون إليه من الداخل. . السد لا يمنع الإنسان من تنفيذ ما يريد إلا إذا كان مبنياً من الداخل لا من الخارج.

إن تقوية الداخل تكون بدراسة نفسية الإنسان وميوله المختلفة وبغرس القيم فيه. . فإذا بني الداخل بناء قوياً لم يستطع أي إغراء أن يزعزعه. . فما هي الدراسات النفسية التي قدمها لنا سد الذرائع؟

«وهديناه النجدين»

أي جعل في داخل الإنسان سراجاً يوضح له طريقي الخير والشر، وجعل لإرادته وعقله حرية الاختيار الذي يعرف عاقبته. . أما السياجات الخارجية أو ما يعبر عنه بـ«السدود» فأي تيار يتدفق من الداخل في إمكانه أن يحيل أشدّ تلك السدود صلابة إلى أخيه سد مأرب.

ماذا نسميه؟

مقال الكاتب القدير الأستاذ نجيب الخنيزي تحت عنوان (فكر النهضة يقتحم الدوائر المحرمة) من الخصوبة، بحيث لا تفرغ من قراءته حتى تجد نفسك منزرعاً بالأسئلة. . أول سؤال ينضج فيك يذكرك بقول الجواهري:

وقف التاريخ في حيرته

أأماماً يتخطى أم وراء

نعم. . هل التاريخ الذي نعرفه من بدء ما يسمى عصر النهضة حتى الآن يمشي إلى الأمام أم إلى الوراء. . فالمقال يدور حول موقف المع مفكري النهضة من أحوال المرأة في السفور والحجاب. . حيث نجد الأفغاني وعبده فضلاً عن قاسم أمين (وشلته) يرون أن سفور المرأة واختلاطها بالرجال وتوليها القضاء مباح شرعاً. وأن لها الحق في تطليق زوجها كما له الحق نفسه. . وأن تعدد الزوجات مشروط بشرط يستحيل تطبيقه عملياً: «فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة» أما الطهطاوي - حسب أحد قارئيه - فقد زاد الطين بلة. . فهو يقول: «الشرائع تتغير بتغير الظروف والأحوال بما يعني تفسير الشريعة الإسلامية تفسيراً يتفق مع حاجات العصر». ومعنى هذه الآراء أن ما نشاهده الآن من طقوس لا بد من إعادة النظر فيها. .أما السؤال الثاني

فهو: لماذا وقف هذا التيار عن الجريان.. وتخلى عنه حتى بعض مؤيديه في بدء تدفقه؟ إن هذين السؤالين وإخوانهما يدفعان بنا إلى مد ظلال الشك على كل ما أنتجه عصر النهضة.. الذي يسميه المحلل السياسي البارز الدكتور يوسف مكي «عصر التنوير العربي» والإلحاح في السؤال: هل هو حقاً عصر تنوير أم عصر تخدير؟

أشك عندي في أنه عصر تخدير «وأنا هنا أتكلم عن فكر العصر ككل.. لا فكر الأشخاص وجهودهم النيرة للنهوض الاجتماعي»، إنه عصر تخدير لهذه الأسباب:

1. إن الأسئلة التي طرحها عصر النهضة على نفسه لم يجب عنها وأهمها «لماذا تقدم غيرنا وتخلفنا» وهذا دليل على ثبات اليقين لديه.. ولا تنوير بدون تصدع اليقين.

2. لقد حاول المحاكاة الشكلية للغرب دون الاعتراف الموضوعي بالمسيرة التاريخية المضنية للتنوير الغربي على كل صعيد.. وبصورة حاسمة الصعيدين الاقتصادي والفلسفي.

3. كل آراء العصر نتجت للدفاع.. أي إنها ردود أفعال للاتهامات الغربية.. ومعنى هذا أنها لم تنبع من تطور معرفي وقناعة داخلية راسخة بضرورة تبديد الظلام الذي لحق بالتعاليم الإسلامية من جراء سوء الفهم للنصوص المقدسة.

4. لم يحاول أي من مفكريه تهديم العادات الفكرية والبنى الضاربة في التخلف والمسيطرة على عقليات المجتمعات.

5. كل تلك الآراء نشأت في مصر لسبقها في الاتصال بالحضارة

الغربية، وللفترة الديمقراطية التي تمتعت بها. . ولم تأخذ هذه الآراء أي انتشار في كثير من الأقطار العربية، بل لاقت مقاومة انتحارية. . بالإضافة إلى اقتصارها على نسبة قليلة من المجتمع المصري آنذاك. . لانتشار الأمية. . وازدياد تراكم المشاكل المعيشية على الأفراد في عهد الاستعمار المباشر.

هل تريد سبباً سادساً؟

12/ 7/ 2008م

تخدير

- هل تبيعني مرقّعتك؟(*)

- إذا باع الصياد شبكته فبماذا يصيد؟

نحن نعرف قبل أن نقرأ هذا السؤال من رجل ساخر. . والجواب من أحد الواعظين الزهاد. . أن بعض الواعظين لا علاقة له بالوعظ إلا من حيث هو وسيلة للصيد. . صيد المال أو الجاه.

يقول حجة الإسلام الغزالي:

1. أحب العباد إلى الله تعالى الفقير القانع برزقه.

2. الجوع عند الله في خزانة لا يعطيه إلا لمن أحب.

3. إذا رأيت الفقير مقبلاً فقل مرحباً بشعار الصالحين.

ثلاث مواعظ مثل خيول السباق. . كل واحدة تتحدى الأخرى في انتزاع الطموح وحب العمل من الإنسان وتكبيله بنوع من الرضا والاستسلام لأبشع ما في الحياة وهو الفقر.

لقد أسيء استخدام الوعظ، ومعناه الفصيح، في توجيه الناس إلى الطرق المضيئة وتنشيط ما لديهم من القدرات النائمة أو المهملة لتحسين أوضاعهم. . إن النصح ضرورة في كل زمان ومكان.

ولا تجعل الشورى عليك غضاضة

فإن الخوافي قوة للقوادمِ

هكذا نشأنا على مثل هذا الصوت. . أما الصوت الذي يدعونا إلى أن ننكر ما أودع فينا فطرياً من حب الحياة وحب «زينة الله التي أخرج لعباده» ومنها المال والبنون. . لا يعظ، بل يخدّر. إنه يكبّل كل ما في الإنسان من قدرات لتجاوز ما هو فيه إلى الأفضل.

(*) المرقّعة: عباءة من صوف يلبسها المتصوفون.

لو كان الفقر رجلاً لقتلته

هكذا يقول الإمام علي الذي نعرف كيف كان يعيش.. أما الغزالي الذي نعرف خدمته الذليلة للسلطة وسكوته حتى عن زحف التتار، فنحن نعرف كذلك كيف كان يعيش.. متقلباً في النعيم.

لكن! هل نحكم على الغزالي بأنه كان مخادعاً وكاذباً؟

لا.. يجب ألا نتسرع ونرجمه بهذه الصفات، قبل البحث في الفاصل بين القول والعمل أو الفعل في ثقافتنا ولغتنا.. لقد اعتدنا ألا نلتفت إلى اتساع هذا الفاصل.. لقد حولنا الواقع إلى لغة..إلى كلام.. إلى شيء يمكن أن أصفه بـ«اليقين الأسطوري»، فأصبحت أعمالنا تمثل قناعات واقعية أما أقوالنا فتمثل قناعات لفظية.. فالأفعال والأقوال يأتي التعبير اللغوي عنهما من منطقتين مختلفتين داخل الدماغ كما يقترح اللغوي والباحث القدير الدكتور فالح العجمي.. وقد يكون ما يأتي من المنطقتين متناقضاً، ولكننا لا نشعر بهذا التناقض.. وهكذا هو الغزالي تتكلم النافذة اليمنى من دماغه بشيء وتتكلم اليسرى بشيء مناقض وهو لا يشعر بذلك.

هذا إذا أحسنا الظن وأعطينا ظهورنا لمن قال: «إن سوء الظن من

حسن الفطن»، أما إذا سمعنا من قال ذلك فويل لهذا المتسربل بعباءة الصوفية من الرأس إلى القدم.

هل تعرفه؟

إنه الغزالي.

أنا حر

حين خطرت لي فكرة هذا المقال احترت في عنونته. . فبعض الموضوعات تمنحك بسخاء حرية أن تضعها تحت أي عنوان. . نظراً إلى زواياها الكثيرة. . فاخترت العنوان أعلاه، بدلاً من عنوان (فضيحة كاملة الأوصاف) أو عنوان (الحرية حين تصبح زناً) أو (أزاد الشيخ الطين بلّة) وكلها عناوين وردت صراحة وضمناً في الصحف المصرية.

بعد فتوى شيخ الأزهر بجلد الصحفيين ثمانين جلدة، وبحرمة شراء الصحف التي يكتبون فيها «سالت بأعناق المطي الأباطح» فلم يبق قلم حر أو قريب من الحرية، إلا وسال استنكاراً لفتيا شيخ الأزهر، سواء في داخل مصر أو في خارجها، وسواء كان كاتباً إسلامياً أو يحمل صفة أخرى.

اخترت العنوان من شيخ الأزهر نفسه، فهو حين سئل عن سبب فتواه، قال بخيلاء: «نعم أنا حر وفوق المساءلة»، وهذا قول تهتز منه حتى الحجارة، فالله وحده هو الذي «لا يسأل عما يفعل وهم يسألون»، فهل أصبح شيخ الأزهر من الآلهة الذين كانوا في فجر التاريخ المصري بالآلاف، أم ماذا؟

والواقع أن كل رجل يحمل صفة «عالم دين» حتى لو كان أجهل

من «قفا نبك» هو يعتقد في نفسه هذه العقيدة.. يعتقد أنه يمثّل الله حتى لو قال قولاً منكراً وبعيداً عن الدين: لأنه يدير المجتمع ويدير ويهدم أي جسر إلى الحضارة أو حتى إلى البحرين.

لا. أيها الشيخ، لست حراً.. أنت حرّ فقط حين تعبّر عن رأيك الشخصي. رأيك كفرد اجتماعي.. أما حين تعبر عن رأيك الشخصي في الدين فلست حراً على الإطلاق.

عنوان (أزاد الشيخ الطين بلّة) أطلقه المحلل الأستاذ أحمد قنديل من تلفزيون دبي.. وكان يعلق على فتيا أخرى أشدّ خطراً من الأولى، فهناك جلد أربعة، أما في الثانية فجلد شعب بكامله.. فقد أفتى الشيخ بجواز «التوريث بالانتخاب».

هذه الفتيا «كلمة حق يراد بها باطل» فظاهرها أبيض ولا غبار عليه، ولكن باطنها نعم.. يوضحه ما قاله الكاتب الإسلامي المتوازن - غالباً - فهمي هويدي.. حين يقول: «لماذا لم نسمع لشيخ الأزهر رأياً في إدانة التعذيب، وتزوير الانتخابات، واحتكار السلطة، والأغذية الفاسدة، والمبيدات المسرطنة.. ولا حتى الناس عند غرق العبارة.. لماذا لم يتحدث شيخ الأزهر؟ ونحن لا نثق مطلقاً في كلامه لأنه لم يكن أميناً».

مربط الجمل هنا هو تزوير الانتخابات، فكلنا نعرف أن استمرار أي رئيس جمهورية أكثر من ثماني سنوات، لا يمكن أن يتم إلا بتزوير الانتخابات.. وقد قرأنا وشهدنا على الفضائيات كيفية تزوير الانتخابات الأخيرة نهاراً جهاراً وبالقوة البوليسية.

التوريث بالانتخاب في مصر مثله مثل «من يتطلب في الماء

جذوة نار» كما يقول شاعرنا القديم. . وهكذا يبقى الباب مفتوحاً أمام كل ضروب الطغيان والفساد في مصر وفي غيرها. . حتى أن الإنسان يخامره الشك في المقولة الرائعة لأدونيس:

«كل شيء يمكن تزويره إلا الحرية».

القطيعة

-1-

إذا أردت أن يفر منك من يلبس التراث حلية من رأسه إلى قدمه ومن قدمه إلى رأسه ثانية.. فما عليك إلا أن تذكر أمامه مفردة «القطيعة» هنا يتخيل فوراً أن كل الجذور والحبال التي تربطه بالماضي قد تقطعت، بما فيها الأنساب والألقاب والعقائد وكل ما يحمل التاريخ والجينات الوراثية.. لقد انحسر عنه كل شيء وبقي بدون ذاكرة.

أما إذا أردت أن يمشي بعض الحداثيين على الهواء.. فاذكر أمامه المفردة نفسها «القطيعة»، فهو هنا سيتخيل أنه قد تربع على هرم المستقبل وأنه قد فارق بلا رجعة ذاك المسمى بالتراث الذي يشبه نهراً يحمل من الطحلب أكثر مما يحمل من الماء.

أظن أنك ستتبرأ من الفريقين كليهما.. فأنت - أمدك الله بتأييده - تنظر إلى القطيعة نظرة تاريخية، فترى أنها مفهوم يختلف من ثقافة إلى أخرى.. ومن فترة إلى أخرى داخل الثقافة الواحدة.

من السهل، بل من البداهي القول إن أوروبا أحدثت القطيعة مع ماضيها.. لا لأن ماضيها لم يكن ثرياً غاصاً بالثمار العقلية والفلسفية والقانونية، وهو الذي يعني الإرث اليوناني والروماني.. ولا لأنهم تنكروا لذلك التراث غروراً وعقوقاً، بل لأنهم فهموه وأحلوه محله من

التطور. . ثم تجاوزوه وارتفعوا عليه وبوساطته إلى الدرجات الأعلى في السلم الحضاري.

تبلور مفهوم القطيعة من الصراع بين الثقافة الإقطاعية والثقافة البرجوازية الناشئة بقوة كاسحة. . هنا سقطت رفوف من الأفكار ومن طرائق السلوك. . هنا تغيرت نظرة المجتمع إلى كل شيء من الإنسان حتى البناء لمجتمع جديد. . ثم استمرت هذه القطيعة في صيرورتها الصاعدة حتى الآن.

هذه القطيعة لم تكن نشازاً، لم تكن تنكراً لثمار الماضي ولم تقفز من النافذة. . إنها ثمرة لروافد فلسفية وعلمية وقانونية وصراع سقاه الدم الغزير بين العلم والخرافة. . حتى تغيرت انساق التفكير في المجتمع كله.

ونظرة واحدة على التاريخ توضح لنا حتى القناعة بأن القطيعة هي الشيء الطبيعي في مسيرة الإنسان على الأرض، فقد بدأ الإنسان أهم قطيعة في التاريخ البشري حين انفصل عن الطبيعة التي بقي جزءاً منها كسائر الحيوان أكثر من مليون سنة. . انفصل بواسطة اللغة التي حولته من كائن غريزي إلى كائن يدرك لذاته ولما حوله. . أي من كائن غفل إلى كائن ثقافي.

ثم أحدث القطيعة الثانية لمرحلة الصيد بعد اكتشافه للزراعة. . وهكذا (دواليك) كما يقول القدماء.

-2-

أطلق الفيلسوف الفرنسي غاستون باشلار (1884 - 1962م) مفهوم «القطيعة المعرفية» في حقل العلم. . ثم راح هذا المفهوم يغطي

جميع حقول النشاط الفكري والجمالي للإنسان.. وقد حدد هذا المفهوم العديد من الكتاب منها: إن القطيعة المعرفية هي «النقلة الكيفية من إطار معرفي إلى آخر (...) إنها انتقال من مرحلة إلى مرحلة متقدمة ينفتح فيها طريق كان مسدوداً» أو هي عند آخر «التخلي عن طريقة التفكير الحالية وإنتاج طريقة تفكير جديدة».

هذه التحديدات لا تعني بالطبع الجنوح في طرائق التفكير الفردية.. بل هي تعني انتقال المجتمع - الأمة - من مرحلة في التفكير الراكد إلى مرحلة التفكير المتجاوز.. وهذا بالطبع لن يتحقق إلا بالقطيعة مع الأنساق الفكرية القديمة.

وهنا تنصب أمامنا عقبة كبرى هي أنه لا يمكن انتقال مجتمع في تفكيره من درجة إلى أخرى أعلى منها.. ما لم يتغير الواقع الذي يعيشه عن طرائق الواقع القديم الذي أورثه تلك الطريقة في التفكير.. وهنا يأتي السؤال: هل المفاهيم العقلية والوجدانية والسلوكية تغيرت عن أنماط وطرائق الماضي البعيد والقريب على السواء؟

الإجابة الحتمية هي: لا

هي **لا** كبيرة بدءاً من الاقتصاد وحتى التعليم.. فجميع البنى التحتية والفوقية الناتجة عنها لم تتغير إلا قليلاً وفي جانب واحد من الحياة هو الجانب المادي.

لهذا فإن القطيعة التامة بالنسبة إلينا غير ممكنة على الإطلاق.. وحتى تتضح هذه الصورة دعنا نطرح السؤال الآتي: من هو المتحكم في الوجدان الجماعي والذائقة الجمالية العامة.. هل هو المتنبي أم محمود درويش؟

ترى ماذا سيكون جواب 97 بالمائة من المجتمع؟ وحين نسأل

مرة أخرى من الرافد الذي لا يزال يمد طريقة تفكيرنا بضوئه. . هل هو أبو حيان التوحيدي أم هو أدونيس؟ ترى هل تبقى النسبة هي 97 بالمائة أم سوف تزيد؟

إن بيننا وبين القطيعة بعداً ضوئياً. . غير أن ما نحن فيه الآن يمكن أن يطلق عليه مفهوم «التطور» الذي يحدد فلسفياً بالقول:

«التطور نمو بطيء متدرج يؤدي إلى تحولات منظمة ومتلاحقة تمر بمراحل مختلفة يؤذن سابقها بلاحقها كتطور الأفكار والأخلاق والعادات».

هذا ما نعيشه بشكل واضح في الجوانب المادية أما الفكرية. . فالسلحفاة تراهن على السباق معها.

خطورة التعريف

التعريف هو «تحديد المفهوم بذكر صفاته التي تميزه عن غيره» ولكن أكثر المفاهيم لا يكون ثابتاً. . أي إن الصفات التي تميزه ليست ثابتة. . أو إن بعضها لم تكن واضحةً فيه ظلال التعريف. . أو إن انتقاء بعض الصفات دون غيرها هو الذي يُصاغ على أساسه ذلك التعريف. . ومن هنا تنشأ الاختلافات بين الناس في تعريف الأشياء وما ينتج عن ذلك من درجات الفهم.

لنأخذ مفهوم الإنسان:

لقد عرف الإنسان منذ القدم بأنه «حيوان ناطق» حيوان لغوي. . وهو تعريف صادق لأنه يشتمل على الجنس والفصل. . ولكن يمكن، وبالصحة نفسها، تعريف الإنسان بأنه «حيوان أيديولوجي» أو إنه، وبالصحة نفسها، «حيوان ضاحك» وهكذا.

إن هذه الاختلافات، على صحتها، لا تعصم من اختلافات أخرى يكون مصدرها ذاتياً لا موضوعياً. . ومن هنا تنشأ خطورة قاتلة - أحياناً كثيرة - لأنها تكون منزلقاً إلى التناحر والنفي لرؤية الآخر المختلفة، بل وإرغامه على قبولها.

إن التعريف في الماضي كان يضعه الفلاسفة والمفكرون. . وهم موضوعيون بالضرورة، وإلا ما كانوا فلاسفة ولا مفكرين. . أما الآن

فالذي يضعه هو «الأقوى» وهو الذي يفرضه. . وهو، في الغالب، يكون غير صحيح. . أو إنه، كما يقال: «كلمة حق يراد بها باطل».

خذ - مثلاً - مفهوم «الإرهاب» الذي لا يعرف أحد تعريفه حتى الآن. . غير طغمة البيت الأبيض. . والذي يجعل من إنسان أُخرج من بيته بالقوة وبدون أدنى حق أو بحق خرافي، ونفي إلى منفى لا يعرف أين. . يجعل منه «إرهابياً» حين يدافع عن حقه. . أما المغتصب بالقوة والخرافة، حين يعتدي عليه، فذلك حقه لأنه يدافع عن نفسه.

وهكذا:

لنأخذ مفاهيم «الفساد» أو «المصلحة العامة» أو «الحرية» ترى من يحددها؟

إنه الأقوى. . ولذلك على المجتمعات المضطهدة أن تحقق ما يعادل تلك القوة. . لتعرض التعريف الصحيح الذي لا يستند إلى مصلحة الكل وقوة الكل.

الفساد ليس شيئاً متشخصاً نشير إليه بالبنان. . إنه مفهوم ويتمثل في صور عديدة وما يراه صاحب المصلحة الذاتية تعريفاً له لا يراه بالضرورة صاحب الوعي الموضوعي أو من اكتوى بناره.

علينا أن نعرّف الأشياء. .

أليس كذلك؟

شجاعة الاعتراف

-1-

الاعتراف يكاد يكون مفهوماً مسيحياً وقانونياً. . فمعناه قانوناً «تصريح إرادي يقر فيه الشخص بذنبه» أما مسيحياً فنجده في المزامير يحمل أكثر من معنى ولكنها متقاربة. . ولكنه أخذ في التمدد خارج هذين الحقلين. . وما أقصده هنا بالاعتراف ينحصر في معنيين هما:

أولاً: الاعتراف بالخريف:

كان حواراً صحفياً مثمراً ذاك الذي أجراه الدكتور علي الرباعي مع الشاعر الكبير سعدي يوسف، ورداً على أحد الأسئلة أجاب سعدي: «أنا الآن في مرحلة ما بعد الشعر. . بعض نصوصي أخيراً لا تجد فيها قيماً جمالية».

أن يعترف شاعر بقامة سعدي، بأنه أصبح في مرحلة ما بعد الشعر وأن بعض نصوصه خلو من القيم الجمالية. . ترى بماذا تصف هذا الاعتراف؟ أهناك أصدق من وصفه بالشجاع؟

إن أكثر المبدعين لا يستصغرون من سبقهم أو جايلهم فحسب. . بل يستصغرون إلى حد النكران إبداع من يستقبل الربيع في حين إنهم يودعونه. . ينكرون ثمار من يأتي بعدهم.

لماذا يا ترى؟

لأنه «لا يعترف» بأن القمة لا يمكن أن يأسرها أحد. . وإن اللغة في تطور دائم. . وإن الإبداع يتراكم كمياً ثم ينفجر في كيف آخر أنضر شباباً وأروع لوناً وأفصح لساناً.

إن الغرور الجامح الذي يصاب به المبدع نتيجة تميزه عن محيطه وعدم اكتفائه بما هو قائم وحنينه إلى تجاوز واقعه إلى ما هو أفضل. . كل هذا ينسيه - أحياناً - محيطه الماضي وينسيه - وهذه هي الكارثة - محيطه الذي يأتي شيئاً فشيئاً إلى أن يغرقه بمد لا يعرف السباحة فيه لا لقصوره. . بل لأن الإنسان مثل الطبيعة له فصوله هو الآخر.

للاعتراف شراسة تشبه شراسة الدمع. . وكما ان الدمع يطهر من أوضار الحزن أو حتى من فضول الفرح. . فكذلك الاعتراف يطهر الفرد من الجبن ومن لبس الغشاوة عن رؤية الحقيقة. . ولكنه يكسر شيئاً ما في الداخل. . إنه يكشف مجرى نهر قل ويقل فيه الماء حتى اللعنة.

يقول درويش:

قد نسمي نضوب الفتوة
نضج المهارة
أو حكمة
إنها حكمة دون ريب
ولكنها حكمة اللاغنائية الباردة.

ويقول عمنا:

ليت الحوادث باعتني الذي أخذت
مني بحلمي الذي أعطت وتجريبي

-2-

الاعتراف بالآخر كان خلقاً من أخلاق الفروسية، وحيث إن مفهوم الفروسية قد قضى نحبه منذ زمن.. زال هذا الخلق.. وبقي الآخر كرة في أقدام الطغاة، والقساوسة، ولم يبعث ثانية إلا في عصر التنوير.. حيث بدأ مفهوم المساواة بين البشر يأخذ أبعاده في الحياة الاجتماعية تحت رقابة الديمقراطية والقانون.

الاعتراف بالآخر ليس سهلاً إلا نظرياً في ساحة الإنشاء اللغوي.. أما تحوله إلى سلوك عملي فهو يتوقف على أشياء كثيرة.. انزرعت داخل الإنسان وعليه أن يجتثها من جذورها التاريخية.. وهذا ما يسمونه خرط القتاد.

يتطلب هذا الاجتثاث الإيمان بـ«التعددية». وهذا المفهوم الليبرالي يتوقف على مفهوم آخر هو الإيمان بـ«تعدد الحقيقة» خارج التجربة.. كما يتوقف على الاعتراف بحق كل فرد في «الحرية» التي يحددها ويكفلها القانون القائم على قاعدة المساواة بين الناس.. وهذه الحرية تعني في أحد معانيها الحق المطلق في الاختلاف الذي يعني نزع التعصب والقضاء على روافده العديدة من قبلية ودينية ومذهبية وأيديولوجية، وكل نزعة تجنح إلى نفي الآخر.

ترى ماذا يعني الآخر؟

نحن هنا لا نسأل عن مفردة لغوية، حتى نصغي إلى القاموس.. بل نحن أمام مفهوم لم يتبلور إلا بعد تراكم دلالات وتكاثر شروط وسعة معرفة بحقيقة الإنسان.. كذلك لا نصغي إلى سارتر حين يئن قائلاً: «الآخرون هم الجحيم» بل نصغي - ومع الأسف - إلى قول

رامبو: «أنا الآخر» الذي يوضحه الدكتور محمد حسين فنطر قائلاً: «فلا وجود للأنا دون الآخر».

نحن إذاً أمام مسألة وجودية.. لا ثنائية عائمة.. فكل تميز نفسي وثقافي وتاريخي وجيني لا يمكن تجسده بدون وجود الآخر.. وهذه الضرورة الوجودية لم يصل إليها الوعي البشري إلا بعد أن ارتوت الأرض بسيول الدماء التي سفكتها الحروب والانقسامات والبغضاء كل ذلك بسبب تجاهل هذه الحقيقة الوجودية أو عدم وعيها!!

وحين نقول «أنا والآخر» ترى ماذا تعني الأنا هذه؟ هي تعني «الإنية» الفردية أم تعني أنا/ المجتمع أو أنا/ الأمة؟ الفرد وحده لا يصنع أو لا يكفي لصنع وعي جماعي للاعتراف بالآخر.. إذاً فأنا تعني الـ«نحن» ولكن هل هذا متحقق حتى الآن على وجه الأرض؟ إنه متحقق بشكل نسبي في البلدان المتقدمة.. أما في عالمنا.. فليس هناك نحن.. هناك أنا فقط.. وهذا هو سر الانحدار الأخلاقي والقانوني ولغة النفي التي لا نجيد غيرها.

الاستبداد

-1-

كثيرون هم الذين تكلموا على الاستبداد في عالمنا العربي قديماً وحديثاً، فمنذ أبي العلاء المعري وحتى الآن نقرأ ونسمع وصف الاستبداد والكوارث التي يخلفها في نفسية المجتمعات، وفي أساليب حياتها. . ولكن كل هذا الوصف لم يقدح أي زناد للوعي العام. . لقد بقي أنيناً محدوداً وحسب.

يعرف الشيخ عبدالرحمن الكواكبي الاستبداد بقوله: «الاستبداد في اصطلاح السياسيين هو تصرف فرد، أو جمع في حقوق قوم بالمشيئة، وبلا خوف تبعة، وقد تطرق «تطرأ» مزايدات على هذا المعنى، فيستعملون في مقام كلمة «استبداد» كلمات: استعباد، اعتساف، تسلط، تحكم، وفي مقابلها كلمات: مساواة، حس مشترك، تكافؤ، سلطة عامة. . .إلخ.

غير أن الغائب عن الأقلام التي تناولت وصف الاستبداد هو التساؤل عن جذوره الاجتماعية والتاريخية، ذلك لأن الاستبداد سلوك، وأي سلوك، فردياً كان أو جماعياً. . لابد أن يستند إلى قيم، سواء كانت هذه القيم صحيحة أو أن الزمن قد تجاوزها فأصبحت قيماً مزدراة وخارج التاريخ.

قيم «القبلية الجاهلية» المتمثلة في الاغتصاب ونهب الآخر هي القيم المتحكمة في شعورنا ولا شعورنا، نحن العرب، حتى الآن. . وقد انضاف إلى هذه القيم ما عبر عنه ابن خلدون بـ«العصبية والدين» أي التفسير الخاطئ للدين واستغلاله. . وهذا ما حدث بعد الخلافة الراشدة مباشرة.

حين آلت الخلافة إلى معاوية خطب الناس وقال: «أما بعد فإني والله ما وليتها بمحبة علمتها منكم ولا مسرة بولايتي، ولكني جاهدتكم بسيفي هذا مجاهدة. . ولقد رضت لكم نفسي على عمل ابن قحافة، وأردتها على عمل عمر. . فنفرت من ذلك نفاراً شديداً. وأردتها على سيئات عثمان فأبت علي. . فسلكت بها طريقاً لي ولكم فيه منفعة».

إذاً فنحن بدأنا من هنا تاريخياً دخول طريق العصبية والتفسير الخاطئ للدين الذي يخالف طريق الخلافة الراشدة. . وهنا تفتح جذران للاستبداد هما القيم القبلية الجاهلية والتفسير المستبد للدين.

لي صديق قبلي مدح الاستبداد، فقال:

لا تنظرن إلى أحد — وقف الزمان أو اطرد
فالمرء زينته إذا — وضع العمامة(*) واستبد
والمنجل المسنون يطرب — في الحقول إذا حصد
لا تكترث إن شيئاً — واخطف ما اردت من البلد
ودع الزمان إذا رآ — ك ارتد خوفاً وارتعد
أنت المياه الدافقات — وما عداك هو الزبد
لا تستمع وعظاً فقد — ذهب الذين لهم رشد

لـم يـبـق إلا الـثـعـلـبـيـون الـلـصـوص ذوو الـعـقـد
هـذي نـصـيـحـة نـاصـح زرع الـزمـان ومـا حـصـد

(*) وضع العمامة إشارة إلى قول الحجاج: متى أضع العمامة تعرفوني

-2-

المقال السابق كان سريعاً، لذا لم يبحث أهم نقطة في مسألة الاستبداد وهي المتمثلة في السؤال الآتي:

إذا كان الاستبداد يتجذّر بالعصبية والدين. . . فما هو السبب في خضوع المجتمعات واستسلامها له، طوال هذا التاريخ العربي المجيد والمديد معاً؟

هذا هو السؤال.

لنقرأ هذا النص:

«تضافرت آراء أكثر العملاء الناظرين في التاريخ الطبيعي للأديان، على أن الاستبداد السياسي يتولد من الاستبداد الديني. . والبعض يقول: إن لم يكن هناك توليد، فهما أخوان، أبوهما التغلّب، وأمهما الرئاسة، أو هما صنوان قويان، بينهما رابطة الحاجة إلى التعاون، لتذليل الإنسان، والمشاكلة بينهما أنهما حاكمان، أحدهما في مملكة الأجسام، والآخر في عالم القلوب. . والفريقان. . مصيبان في حكمهما بالنظر إلى مغزى أساطير الأولين والقسم التاريخي من التوراة والرسائل المضافة إلى الإنجيل. . ومخطئون في حق الأقسام التعليمية الأخلاقية فيهما، كما هم مخطئون إذا نظروا إلى أن «القرآن» جاء مؤيداً للاستبداد السياسي. . وليس من العذر أن يقولوا نحن لا ندرك

دقائق القرآن، نظراً إلى خفائه علينا في طي بلاغته ووراء العلم بأسباب نزول آياته. . وإنما نبني نتيجتنا على مقدمات ما نشاهد عليه المسلمين منذ قرون إلى الآن من استعانة مستبديهم بالدين». (الشيخ عبد الرحمن الكواكبي، **الأعمال الكاملة**، ص 443)

ما قاله الكواكبي واضح، إنه ينفي أن يكون القرآن مؤيداً للاستبداد، ولكنه غفل عن أن تفسير القرآن ليس واحداً، وغفل عن تعليل استجابة المسلمين واستسلامهم لهذا الاستبداد منذ قرون. . وهاتان أهم نقطتين في الموضوع.

إن الذهنية العربية في جميع بلدانها قائمة أو مبنية على شيئين: الإيمان بالجبر والإعجاب بالقوة إلى حدود الاستسلام المطلق، - والإيمان بالجبر لم يأت من العهد الإسلامي، بل هو متمكن في عقلية الإنسان العربي منذ العصور السحيقة التي سبقت ما نعرفه من العصر الجاهلي -.

إن معظم البلاد العربية بلاد صحراوية أو مجاورة للصحراء، وقد أوضح ما تتركه هذه الجغرافيا عالم الاجتماع الكبير علي الوردي، وتعرض له - في ما أظن - المحلل السياسي القدير الدكتور يوسف مكي في إحدى مقالاته في جريدة **الوطن**، فالجغرافيا الصحراوية نقرأ عنها - أحياناً - أقوالاً إنشائية في الأنفة والإباء، وغير ذلك من صفات الرفض، ولكن تلك الأقوال لا يساندها التفكير العلمي، فالعربي بطبيعته هشّ الإرادة، ينتظر أن تجيئه الأمنيات انتظاره للسحاب في صحرائه. . وهذا هو معنى الاستسلام المفضي إلى الإيمان بالجبر.

أما الإعجاب بالقوة والوقوف الذليل أمامها فهو أوضح من أن

نضرب له الأمثلة. . ولكن لا ننسي أن أي شعب يتعرض مفكروه وطلائعه المتنورة للعسف والعزل والإبادة والذهنية الأسطورية. . لا بد أن يتوقف نسبياً عن النمو.

ونحن نعرف «أيضاً» أن «العزل» قد مورس منذ الجاهلية وحتى الجاهلية الثانية التي نحن فيها حسب اقتراح سيد قطب أو ليلى الجهني، بل «بحسب» ليلى الجهني.

في يومٍ فقَدَ ظلّه

في يوم واحد هوى نجمان هما السيّد محمد حسين فضل الله والدكتور نصر حامد أبو زيد. . وبهذا يكون اليوم نفسه قد فقد ظلّه. . أي إنّه يوم ميت.

الذي يجمع بين هذين النجمين أنّهما معاً فَهِما التراث فهماً شجاعاً. . أي إنّهما عَبّرا عن هذا الفهم لينيرا بعض ما في الأذهان من الأوهام في الاعتقاد. . أي حاربا «الجهل المقدّس» الذي يحرسه التقليد. . وهذا ما يصب في مصلحة التراث نفسه، لأنه يزيل عنه غبار سوء الفهم.

وما يجمع بينهما أنهما حورِبا وكُفِّرا من قبل طائفتيهما من طغمة لا يفهمون ما قالاه، بل لم يفهموا مقاصد الشريعة نفسها.

وهذا ما يفتح باباً واسعة أمام اختلال منظومة كل من الطائفتين. . وإذا اختلّت بنية المنظومة التي حجبها غبار السمع والطاعة. . يلوح حينئذٍ ما نسميه التنوير.

يقول بعض المفكرين إن المنظومة الطائفيّة لا تنحلّ من داخلها، إنها تنحلّ من خارجها. . وأنا ضد هذا الرأي. فمحاولة تفكيكها أو نقضها من الخارج قد يزيدها تماسكاً بحكم التعصّب وحماية الذات. . أمّا إذا نُقِضَت من الداخل فهنا بدء التحلّل وحتى الانقراض.

محاربة النجمين كل من طائفته أوّل الخطوات إلى إضاءة ما تنطوي عليه منظومتاهما الاعتقاديّة من أمراض باطنة.

تغمّدهما الله برحمته.

6 تموز 2010

يخرب بيتك

ليس لقارئ حين يفرغ من نصٍّ ما يهزّه هزّاً حتى يتساقط ما في شجرة ذهنه من أوراق صفراء أو سوداء.. ليس له إلاّ أن يصرخ «يخرب بيتك».

«يخرب بيتك» دعاء يوحي بكره من ندعوا عليه ولكن فيروز أحالته إلى كلمة إعجاب مترع بالمرح: «يخرب بيت عيونك يا عليا شو حلوين..».

تفضل واقرأ معي ما يقول محمد الرطيان:

- من هو أعظم ناقد سعودي؟

- المطر!.

و«بإمكان عود ثقاب أن يحرق غابة كاملة،

ولكن ليس بإمكانه أن يعود شجرة!!».

حين تفرغ من قراءة هذا.. ماذا بوسعك أن تقول؟ أنت لابد أن تقول أولاً: هذا ما كان ضباباً في خاطري، وبالطبع كان في خاطر الرطيان.. ولكنه استطاع أن يحيل ضبابه إلى ضوء وهذا ما يعجزني.

ولابد أن تقول ثانياً: هل هذا ما يسمونه الإيجاز؟ ولكن الإيجاز هو: «التعبير عن المعاني الكثيرة باللفظ القليل»، ونحن نعرف أنه يتم

بأسلوبين: أسلوب الحذف وأسلوب القصر. . فهل هذا ما يدخل فيه قول الرطيان؟

لا. هو ليس الإيجاز القديم، إنه إيجاز جديد، إيجاز إبداع معنى جديداً للكلمات، فقد أحال المطر إلى شجرة كثيفة من المعاني وأحال عود الثقاب إلى مطر من الإيحاءات.

لا تحاول تصنيف قوله، فقط حاول أن تقول معي:

يا محمد بن الرطيان: يخرب بيتك!.

8 تموز 2010

إلى هناك

مسلّمات:

1. ليس هناك في ساحتنا كاتبة أو كاتب مقالة أو زاوية صحفية يملك حتى في الحلم نصف مليون ريال عداً ونقداً.

2. التخلي علن الكتابة الجادة هو تخل عن المسؤولية الاجتماعية التي تضيء بالنقد جوانب الخلل في مسيرة المجتمع والهادفة إلى إيقاظ الوعي و«تربية الأمل».

3. الكتابة عن «نانسي عجرم» وأخواتها حقل ثري ناضج الثمار. والكتابة عن الحشرات لا يقل عنه ثراء وفائدة وإمتاعاً، ولكن الزميل خلف الحربي والزميلة حليمة مظفر يستطيعان قطف حقول أكثر ثراء.

4. أي تردد في السير على الصراط الممتد بين نار الكلام وجنة الصمت لا بد أن يوصل إلى ما هو أشد هولاً وهو محو الذات والدخول إلى مسامرة المقابر.

5. ليس هذا وحسب، بل يجعل وزارة الإعلام الموقرة التي لا وجود لها إلا في البلدان المتخلفة، يجعلها تتحول إلى مزمار ذي مخالب.

لهذه المسلمات أقترح الاستمرار على النهج الذي سارت عليه الزميلات والزملاء حتى الآن. .

وبدلاً من أن لا يرى بعضنا بعضاً لتباعد المسافات، سوف نجتمع في سجن واحد. . وهذا سيعوضنا عما يسمونه النقابات والاتحادات في البلدان الأخرى.

فـ إلى هناك.

6/ 2011

المقاوم

تحتار عندما تحاول أن تُطلق على عبدالعزيز مشري كلمة واحدة تكون مفتاحاً للدخول إلى عالمه: فهو «المختلف» من حيث إنه لم يدخل إلى حقول الإبداع عن طريق أكاديمي أو تعليمي.. فهو قد دخل عنوةً وأثمر أفضل من كثير من الأكاديميين.

وهو «المُقاوم» فقد كانت الكآبة تزأرُ من حوله.. ولكنه غضّ سمعه عنها وراح بمرح مُعاند يسخر بأمراضه متراكمةً تنوء بها أشد الإرادات صلابةً وتفاؤلاً بحيث تظن ظناً صلباً أن المتنبي كان يقصده حين قال:

وإذا كانت النفوس كباراً   تعبت في مُرادها الأجساد.

نعم. لقد شكا الجسد الذي تداعى إلى حد البتر، شكا من إصرار روحه على المرح والعطاء المنهمر.

كانت طاقات المشري تنبع عفويّاً من اتساع موهبته.. فهو عازف عود وهو فنان تشكيلي وهو روائي ولم يكن أي من هذه الفنون يستوعب نشاطه أو يُشغل طموحه عن التفكير في الأمام دوماً.

يقول الشاعر الكبير عبدالعزيز المقالح:

«لا يموت الشهيد
ولا العبقري سوى مرّةً
حين يولد

ثم تظل الحياة ترافقه
في بروجٍ من الضوء
مكنونةً في ضمير الزمان
وفي رحمة الله . . »

وحين نخلع عن كلمة الشهيد جلبابها الديني ونستخدمها في من يموت في سبيل هدفٍ نبيل وغاية إنسانية عامة . . نجد أن المشري من الذين تصدق عليهم كلمة الشهيد . . فهو عمل حتى وهو بين أنياب الموت في سبيل خدمة القيم الإنسانية . . أما كلمة العبقري فلا أظن أن المقالح قد استخدمها في غير أمثال المشري .

لا أذكر أن المشري خلال أحاديثنا اليومية طرح قضية حياتية عادية أو همّاً ذاتيّاً . . كان دائماً يطرح السؤال عن المفاهيم : من هو «اللامنتمي» من هو الملتزم . . ما هو الالتزام؟ إن هذا الأسلوب في التفكير يدل على وعي متجاوز للقبول بالنظر إلى سطوح الأشياء . . إنه يبحث عن المعرفة القريبة من الحقيقة ، إن لم تكن الحقيقة نفسها .

كان المشري ثريّاً بمواهبة وثريّاً بأصدقائه الذين وقفوا إلى جانبه حيّاً وشهيداً وعلى رأسهم الشاعر علي الدميني والباحث محمد القشعمي . ومن له مثل هذين الصديقين لابد أن يكون باذخ الثراء .

عليك الرحمة
ولك الذكرى العاطرة
يا كوكباً ما كان أقصر عمره . . وكذا تكون كواكب الأسحار .

2010-05-18

غصون

لا تغار الأغصان الأخرى من الشجرة المثمرة حين نختار منها غصوناً معيّنة لقطف الثمار. . فالاختيار نفسه ليس له معيار ثابت. . إنه خاضع للذوق، ذوق المُختار وفراسته النقديّة. . ولذا فهو يختلف عن الانتخاب الطبيعي الداروينى. . إنه انتخاب يشترك فيه الذاتي والموضوعي. . ومن هنا فالذي يتم اختياره يبقى في نطاق من يختار للأنضج فالأنضج في نظره هو. . وليس شرطاً أن يوافقه الآخرون. والشجرة نفسها لن تسأل: لماذا اختير هذا دون ذاك، فالذي يهمها هو العطاء وحسب.

غصون مجلة أو باقة، تقوم باختيارها نخبة من الشباب تملك الرهافة الشعرية والحس النقدي. . تختارها لا من المطلق. . بل من حديقة واسعة، هي «منبر الحوار والإبداع» ومن هنا تتفتّح حواجز كثيرة:

أولاً:

أشجار هذا المنبر تحمل ثماراً مختلفة الألوان متقاربة النضج. . وعلى هذه النخبة من الشباب الانتقاء منها لبناء هذه المجلة. . وهذه مهمّة شاقة لأنك أمام أشجار تسر الناظرين. . كل منها يغريك بالدنو منه. . بل يأسرك -أحياناً- ولكن الثقة في هذه النخبة من الشباب ثقة كبيرة في أنها ستقوم بالانتقاء الصائب.

ثانياً:

إن منبر الحوار نفسه هو انتقاءٌ واعٍ لأفضل ما يُنشر في الساحة الفكرية والاجتماعية.. وهو يسير نحو هدف محدد هو خدمة الفكر والمجتمع وإيضاح ما في الواقع السائد من ثقوب سوداء..و هذا نفسه لا يقوم به سوى فكر نقدي وموضوعي واسع الأبعاد وذو صبر يشبه صبر الماء على تفتيت الصخر.. ومن هنا تنشأ صعوبة الانتقاء الثاني الذي تقوم به هذه النخبة لهذه المجلة.

ثالثاً:

منبر الحوار لا يلتفت إلى الأسماء.. إنه يسير على القاعدة القديمة «لا تنظر إلى من قال.. بل إلى ما قال»، ولذا فهو لا يفرّق بين اسم ذي بريق قديم وآخر وليد الإضاءة.. ولكن الأسماء لا تعرف القاعدة القديمة.. بل إن الأسماء قديمة الضوء تضفي على موضوعاتها ضوءاً سرابيّاً.. وعلى هذه النخبة ألاّ تقع في إغرائه.

يقول المثل القديم «الحديث ذو شجون».

والشجن هنا ليس الحزن.. بل هو الغصن الملتف بالأغصان الأخرى.. ويعني أن الحديث استسلم لما يعبرّ عنه قديماً «الشيء بالشيء يُذكر» أو بما نعبر عنه نحن الآن بالتداعي أو تيّار اللاوعي.. ومن هنا تنشأ صعوبة أخرى أمام الاختيار.. فأغصان المنبر ملتفّة مع بعضها لأن هدفها واحد وهو «التنوير»، وهذا الالتفاف يحتاج إلى تفكيك يقوم به المُختارون الذين نرجو لهم الوصول إلى الهدف.

2010/5/9

محمد عبدالله العلي

شاعر ومفكّر من السعودية. يُعتبر من آباء حركة الحداثة الفكرية والأدبية في المملكة. شارَك بكتابة المقالات والزوايا في صحف ومجلات عديدة، منها: **الحياة، الشرق الأوسط، الرياض، عكاظ، الشرق، اليمامة، الجزيرة** وصحيفة **اليوم** التي استمر بالكتابة فيها منذ أواخر الستينيات حتى الآن، وقد رأس تحريرها لمدة عامين حتى اعتُقل ضمن من اعتقلوا أوائل الثمانينيات، ومُنع من السفر على إثر هذا اثنا عشر عاماً. وقد عانى طويلاً من منع كتاباته من النشر.

شارك في الكثير من المحاضرات والأوراق النقدية التي قدمها في مختلف الأندية الأدبية والنشاطات الثقافية، من أهمها: مفهوم الوطن، الغموض الشعري، نمو المفاهيم، المثقف والأيديولوجيا، الأواني المستطرقة. أمّا نتاجه الشعري، فقد جُمع أخيراً في ديوان **لا ماء في الماء**.

صدر له حتى الآن:

- **محمد العلي شاعراً ومفكراً** - مختارات من أعماله - دار المريخ.
- **كلمات مائية** - دار الانتشار العربي.
- ديوان (**لا ماء في الماء**) - نادي المنطقة الشرقية الأدبي.

- **الديوان الصوتي** - نادي حائل الأدبي.
- **دَرسُ البحر** - دار طوى/ الجمل.
- **هموم الضوء** - دار طوى/ الجمل.
- **حلقات أولومبية** - دار مدارك/ نادي تبوك الأدبي.
- **البئر المستحيلة** - نادي الرياض الأدبي/ المركز الثقافي العربي.
- **نمو المفاهيم** - نادي الرياض الأدبي/ المركز الثقافي العربي.

أحمد عبدالسلام العلي

مواليد 1986م، تخرّج من جامعة البترول عام 2010.

- صدر له ديوان **نهّام الخليج الأخضر** عن نادي المنطقة الشرقية الأدبي 2010.
- أدار تحرير مجلة **غصون** الإلكترونية الصادرة عن موقع منبر الحوار والإبداع 2011.
- التزم بكتابة عمود أسبوعي في صحيفة **شمس** بعنوان «شرارة» 2011.
- جمع وأصدر عدداً من أعمال أ. محمد العلي 2012/ 2013: **هموم الضوء** و**درس البحر** و**حلقات أولومبية** و**البئر المستحيلة** و**نمو المفاهيم**.
- يصدر له ديوان **يجلسُ عارياً أمام سكايب** عن دار طوى/ الجمل 2013.